مستقبلنا

المعالم النظريّة لإستشراف المستقبل الإسلامي

عبد الرحيم الحُصيّني

مستقبلنا / معالم النظرية الإسلامية لإستشراف المستقبل
● عبد الرحيم الحُصيني
● دارالغدير / قم
● الطبعة الاولى / ٢٠٠٠
● ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م
● ISBN: 964-7165-91-9
● ١٧٠٠ تومان
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الغدير للطباعة و النشر و التعليم
تلفاكس: ٧٧٤٤٦٩٥ (٢٥١-٩٨+) رقم ٣، الفرع ١٢، شارع معلّم، قم - ايران
Email: darul_ghadeer@yahoo.com

مستقبلنا

المعالم النظريّة لإستشراف المستقبل الإسلامي

عبد الرحيم الحُصيني

دار الغدير / قم

الحُصيني الموسوي، عبد الرحيم
مستقبلنا / معالم النظرية الإسلاميّة لإستشراف المستقبل
تأليف عبد الرحيم الحُصيني الموسوي
دارالغدير ، قم / ١٤٢٤ ه / ٢٠٠٣ م
ISBN: 964-7165-91-9
١. ألإسلام – نظرة نحو المستقبل .
٢. ألإسلام – تجديد الحياة الفكريّة .
الف.عنوان .
٦ح ٩آ / ٥ / BF ١١ ٢٩٧/٠٤
المكتبة الوطنية الايرانية ١٣١٨٥-٨٢م

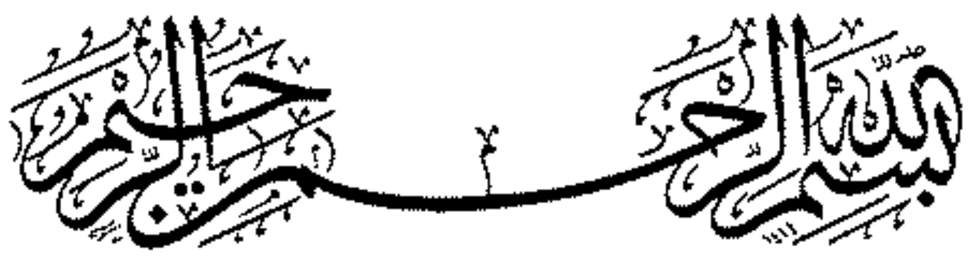

المقدمة

• تعاظمت الدراسات المستقبلية في العقود الأخيرة من القرن العشرين وستزداد بالتأكيد في مطلع القرن الحالي كباقي الدراسات العلمية الجارية في مختلف الحقول.

وانطلاقاًمن أهمية اكتشاف المستقبل في حياة الإنسان وكذا في مجالات السياسة الدولية ومصالح الحكّام دعت تلك القوىٰ بأن يولوا اهتمامهم بهذا العلم ويسعوا بجد لاحتكاره وحصره في الدوائر الحكومية الخاصة ومراكز البحوث الاستراتيجية وضم انجازاته، وتوظيفها لأغراض الهيمنة واستعمار الشعوب للقدرة الهائلة التي يمتلكها هذا العلم ولياقته الواسعة في تقديم الخدمات المختلفة في مجالات متعددة من حياة الانسان، ومن جهة قدرته على السيطرة والتلاعب بالظواهر الاجتماعية المحتملة الحدوث بالاضافة الى امكانيته في تهيئة البدائل وايجاد الظواهر المرغوبة عند الساسة أو توظيف هذا العلم لغرض التخلص من العقبات التي تحول دون تحقيق النمو والتطور الذي يرتئيه المخططون وأصحاب القرار في السياسة، الدولية كالمستقبل العسكري أو المستقبل التكنولوجي أو السياسي.

ومن المعروف أن الطروحات العلمية في حقل المستقبليات قد استبعدت الوسائل التي تنظر للمستقبل برؤىٰ خرافية كما استبعدت قرارات الحاكمين القائمة على الانفعال أو ذات النزوات الشخصية الطارئة. بالاضافة الى تجاوزها ـ أي تلك الدراسات ـ أدوات الصراع القديمة، فلمّا استطاعت الدوائر الاستكبارية

توظيف كل الانجازات العلمية في المجالات الأخرى نجدها قد سيطرت على علم المستقبليات لما فيه من القدرة لتحقيق الهيمنة والاستكبار ،واسست مبادئ لهذا العلم والاستشراف على أساسه وأنشأت له مدارس وجمعيات ومراكز ابحاث، بل نجد مثلاً دولة السويد أنشأت وزارة خاصة بالمستقبل، وقد بلغ عدد المؤسسات في أمريكا حتى عام ١٩٦٧ م الى ما يقرب من (٦٠٠) مؤسسة وارتفع الرقم الى (١٠٠٠) بعد أقل من عشرين عام، وتفرع عن علم المستقبل علوم أُخرى كعلم اجتماع المستقبل وغيره.

لكن الخبرة الإسلامية لازالت متواضعة بالقياس الى التقدم الذي أحرزته الدول الأُخرى في هذا الحقل، الأمر الذي يدعونا في هذا الظرف بالذات أن نترصد بوعي ثاقب الأحداث الظالمة التي تمر بها الأمة الإسلامية والتحدي الاستكباري بأساليبه الحديثة من أن حركته لا تقف عند حدٍّ، بل هي في تقدم سريع ومستمر يتجاوز مواقفنا السطحية وحركتنا الارتجالية ـ أو المتفرجة أحياناً لتعمد بالتالي الى سحق الهوية واخضاعنا لحضارتهم الشيطانية.

ومواقفنا اللامسؤولية إزاء هذا التحدي الرهيب لا ينسجم مع ما تدعو إليه الرسالة الإسلامية وما قدمه القرآن الكريم والسنّة الشريفة وحركة أئمة أهل البيت من تصورات ونظريات تؤهل الأمة لأن تحتل مكانتها الطبيعية وأداء دورها القيمومي ووسطيتها بين الأمم .

ففي العقيدة الإسلامية ومصادرها المعتبرة ما يكفي كضمانة لحاضر الأمة ومستقبلها فمن خلال مراجعة النصوص القرآنية والتجربة التاريخية لخط العصمة الإلهي في حياة الأمة يتبين أن الإسلام سبق جميع النظم والنظريات في الدعوة لاستشراف

المستقبل استشرافاً علمياً مدروساً واستباق أحداثه ومفاجآته والتخطيط لاحتمالاته .

فلو لاحظنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن السنن الإلهية سنجدها تشير الى الترابط بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وضرورة التعرف على المستقبل بهدف بنائه فقوله تعالى: (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ...) اشارة واضحة لدخول الارادة الإنسانية ومسؤوليتها حين تبدو مظاهر الفساد من قلة البركات وغيرها في حياة الأمة لأن قوله تعالى: (بما كسبت) اشارة الى تدخل السلوك البشري ودوره في ايجاد الظواهر.

كما توجد حتميات ووعود الٰهية مستقبلية تكشف عن المخطط الالهي البعيد وانتصار الأمة الإسلامية وتمكينها آخر الزمان، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

كما لو راجعنا السيرة النبوية الشريفة وما تتخللها من أحداث وهكذا سيرة الإمام علي عليه السلام ومن بعده ما كان يخطط له الإمام الحسن عليه السلام حين صالح معاوية وكذا الإمام الحسين عليه السلام وثورته الخالدة سنلاحظ فيها الدروس المستقبلية وقدرتها حين الاستنطاق الواعي على اثراء التفكير المستقبلي وتأصيله اسلامياً.

وانطلاقاً من كل الذي سبق فان النظرية الاسلامية قد قدمت بين يدي المسلم أُطروحة مستقبلية متكاملة وما عليه سوىٰ اكتشافها من خلال تلك المصادر والعمل بموجبها بهدف تحقيق العدالة الإلٰهية وتحقيق الكمال المنشود.

من هنا تأتي الدراسة التي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ كاثارة من أجل

---

(١) النور: ٥٥ .

تأسيس نظرية اسلامية للمستقبل تتخذ من العقيدة أساساً لها على أمل أن تلحقها دراسات أُخرى أكثر عمقاً عسىٰ أن تتم معالم النظرية فيما بعد لتعتمد في مرحلة لاحقة كأساس لدراسات أُخرى تطبيقية كالمستقبل العسكري الإسلامي أو المستقبل الاقتصادي وغير ذلك، ويتحول هذا الانجاز العلمي الى أداة قوة بيد المسلمين، وعند ذلك تصبح جهودنا الدراسية بهذا المستوى كطريق للعمل والتغيير والاصلاح.

وقد تضمن البحث عدة أبواب:

الباب الأول: تناولنا فيه عرضاً تاريخياً لنشأة هذا العلم في حياة الإنسانية وكونه يمتلك جذوراً فطرية ويلبي حاجة حضارية وإن بدأت ارهاصاته الأولىٰ كمظهر اعتمد الخرافة بدل العقيدة أو العقل. إلّا أنه تحول في نهاية الأمر الى علم موجه لأغراض جزئية وضيّقة.

أما الباب الثاني: فقد سلّطنا الضوء فيه على الآيات القرآنية التي تعتبر تأسيساً لصياغة النظرية الإسلامية في هذا التفكير .

والباب الثالث: فقد تضمن عرضاً لمسيرة البشرية ومستقبلها التاريخي وفق الرؤية الاسلامية وماهي التصورات الالهية في مجالها النظري التي تزود بها المسلم تربوياً وعقائدياً التي تؤهله في نهاية الأمر لاستشراف المستقبل والأخذ بيده لمستقبل أفضل حيث يتعالى على التاريخ ببركة التفكير المرتبط بالوحي ويجعله يسير قدماً بدون تأثره بالظروف والملابسات التي تحول دون مسيرته الهادفة من خلال المقارنة بين النظرية الإسلامية وغيرها من النظريات الأُخرى التي أنتجها العقل الاروبي بما يطلق عليه بفلسفة الحضارة.

وفي الباب الرابع: نعرض فيه مفهوم الانتظار كمفردة من التخطيط الإلهي

الذي يؤدي الى المحطة الإلهية الأخيرة منه بقيادة المعصوم آخر الزمان التخطيط الذي يسوق الأُمة بوعي عام وبرنامج تتداخل فيه العقيدة والحياة معاً.

وأخيراً الباب الخامس: قدمنا فيه دراسة واقعية لحركة الإمام الصادق لتكون نموذجاً واقعياً يستفيده المسلم في حياته كدرسٍ عملي يرى من خلاله كيف انطلق الإمام وغيّر الحاضر بما ينسجم مع المستقبل الذي خطط له عليه السلام ابتداءً.

ولا أدّعي من أن دراستنا قد قدمت نظرية متكاملة ولا حتى جزئية لاستشراف المستقبل، بل لا تتعدى كونها اثارات أو معالم باتجاه هذا التفكير، أو لعلّها تصلح كمفردات تأسيسية في هذا الطريق على أمل أن تتكامل من خلال بحوث أُخرى يقدمها ذوي الاختصاص والمبدعين في هذا الحقل.

ثم إني قد راعيت في بحوث هذا الكتاب الاختصار في العبارة بغية استفادة المتخصص أو من له رغبة في الكتابة في هذا المجال، كما أن البعض من فقرات هذه الدراسة قد كتبت بأوقات متفاوتة والبعض الآخر كالباب الخامس شاركنا من خلاله في مؤتمر الإمام الصادق عليه السلام المنعقد في ايران الإسلامية بدعوة من المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

نسأله تعالى أن يقودنا لما فيه رضاه انه ولي التوفيق والحمدلله رب العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

عبدالرحيم الحُصيني
١ / ر بيع الثاني /١٤٢٤
٢٠٠٣/٦/٢ م

الباب الأوّل

النزعة المستقبليّة..
من الخرافة الى العلم

لم تكن محاولة التعرف على المستقبل والاهتمام به وليدة هذا العصر أو من إبداعات الإنسان الغربي، وإنّما بدأت البشرية تتناوله منذ انفتح الإنسان القديم على أسرار الطبيعة، وبدأت علاقته بالوجود، حيث كان هذا التفكير يعبر عن وجوده على مسرح التاريخ بصور شتى، وعليه لا يمكن دراسته بمعزل عن حيثياته وتاريخيته كما تذهب إليه بعض الدراسات، الأمر الذي يجعل منها دراسة، ناقصة الاستقراء.

وتتأكد ضرورة مراجعة تاريخية هذا التفكير ونشأته من كونه لا ينحصر في اطار علمي محدد كالمستقبل السياسي، والمستقبل الاقتصادي، أو يختص بحالة تاريخية طارئة دون أخرى، وإنّما هو همّ إنساني مشترك.

ثم أن دراسته بطبيعتها لا تقبل التفكيك والانتقاء، فانطلاقاً من تلك الزوايا أو غيرها تتجلّى أولوية مراجعة مناشئه التاريخية، ومتابعة التطورات التي طرأت عليه؛ لتشكل هذه الرؤية مفردة تأسيسية باتجاه التعرف على معالمه النظرية.

الفصل الأول

تطلع الإنسان القديم نحو المستقبل

تتداخل في دراسة المستقبل حركة التاريخ والمجتمع وتتشابك في إطارها معادلات الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأن الوقوف على خيارات الإنسان لمستقبله المنشود يغني الباحث بأكثر من مفردة علمية، بالنظر لسعة التفكير المستقبلي وضرورة إشباعه بتجارب الحضارات والمدنيات التي تستوعب أكثر من بعد وحقل.

وتمهد الدراسات المستقبلية، من خلال فهم حركة الأمم والحضارات القديمة، لاكتشاف المشتركات الفكرية والإنسانية ذات العلاقة بالتفكير المستقبلي ذي الأبعاد المشتركة، محوراً للتقارب الإنساني وأرضية للحوار، «إذ أن كثيراً من شعوب العالم مازالت تتبنى معتقداتها الاولى، فالبوذية والكوفوشيوسية والهندوسية والتاوية لازالت سائدة في اليابان والصين والهند ودول شرق آسيا»[1]، فاذا كانت الاسطورة تمزج بين الجانب الخرافي من التفكير الإنساني والواقع التاريخي للأُمم وحضاراتها فإن تراث المسلمين لا يخلو من هذه الظاهرة، إذ لو لاحظنا كيف يصعد قسمٌ من هذا التراث بقدرات البطل الى موقع اللاطبيعي لوجدنا درجة من الشبه بين النموذجين، ولذا نبّه

---

(١) راجع شلبي، أحمد، ديانات الهند الكبرى، ط ٩ ـ ١٩٩٣.

القرآن الكريم الانسان المسلم وحذره من أسطرة الأبطال، مستخدماً التذكير بأساليب اليهود والنصارى عندما ألّهوا علمائهم ﴿اَتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، ثم أنه لابد من التمييز بين المنهجين، الاسطوري الذي يتجاوز المعقول، والإسلامي الذي يستوعب الغيبيات ويربط بينها وبين الطبيعيات، فلابد إذن من التمييز بين كلا المنهجين والتفريق بينهما لئلا يتصور بأن الاسطورة وملحقاتها تمثل التراث البدائي للدين الذي تطور فيما بعد، فأصبح له مناهجه العلمية.

إذا كانت المعتقدات القديمة قد صُبغت بالصبغة الدينية فاكتسبت بذلك قيمتها وقدسيتها، مما جعلها تقف بوجه الدين الحق، حتى تحولت المعركة الى صراع بين دينين متكافئين، فإن الاختلاف العقيدي لا يمنع العلم، أو السياسة، أو النصر عبر الثورة، أو التجارب الاجتماعية، أو سيادة الإنسان الغربي، من اكتساب نفس القيمة والصعود به الى مستوى الاسطورة وبالتالي الإنتقال بالصراع وبقوة الروح الاعتقادية المقدسة نفسها الى الصراع بين الحضارات، أو الصراع تحت أي عنوان آخر.

نشأة التفكير المستبقلي وأساليبه المؤسطرة

لاحظ الإنسان البدائي ما حوله من مظاهر الطبيعة وغرائبها وتضاريسها، وزلازلها وحركة كواكبها، وعجائب الحيوان والنبات، ثم لاحظ ذاته فوجدها فضاءً مليئاً بالتساؤلات التي تتزاحم وتتراكم، كلما تقدم الزمن وتوغل أكثر في تجاربه مع الطبيعة ومع أخيه الإنسان، وفي لحظات الوعي والتأمل راح يتجه نحو ذاته ليؤلف ويربط بين الأحداث والظواهر المتكررة ليخرج بنتائج جديدة،

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣١.

لكنه بقي في حيرة أمام المستقبل المجهول الذي يشعر بأنه قد يداهمه بالمستجدات، وعندها لا يجد سبيلاً للخروج منها.

وقد شكل هذا التفكير والمعاناة كابوساً خيالياً لا ينفك عنه، ورأى أنه لابد من التوقف عنده ودراسته، كما تحسب لاحتمال تعرض جهوده وأمجاده وما يؤسسه اليوم للانهيار غداً، وبهذا إستنفر قواه الداخلية وعاش حالة من الترقب والحيطة والحذر، ثم أخذ يبحث عن وسائل وخطط لتأمين مستقبله.

لا يمكن وضع الرؤى المستقبلية بمعزل عن الكل المعرفي المتراكم حول الوجود، والذي يكتسبه بدوافع ذاتية أو بمؤثرات خارجية. ولا يوجد بين أيدينا مصدر نطل من خلاله على تجارب الأمم القديمة[١] إلا ما قدمه لنا علم الآثار عبر الاكتشافات الحديثة التي سجلت لنا الكثير مما يتمحور حول دراسة الاسطورة «وتعني في اللغة القصة أو الحكاية يمزج فيها الخيال بالتقاليد الشعبية»[٢] والدينية المزيفة، أما العرافة والكهانة والحلم والتنجيم والفأل فهذه مفردات يمكن معرفتها وتحديد الموقف منها خلال دراستنا للتفكير المستقبلي الاسطوري.

تعكس لنا تلك الدراسات طبيعة تأملات واعتقادات المفكر البابلي حول المستقبل، إذ كان يرى أن الناس يمكنهم أن يتحققوا من إرادة الإله طالما أن كل ما يجري في السماء يتكرر حدوثه في الأرض، وقد أدى ذلك منذ وقت مبكر الى ربط الظواهر الأرضية بمواقع الكواكب في السماء، وعندما يتكرر الحدث فإن الظواهر الفلكية إذا ما أحسن تفسيرها إحصائي كفوء، ستعطينا الحدث المصاحب الذي لابد أن نتوقعه[٣].

---

(١) الدراسات الإسلامية تناولت المستقبل كظاهرة إنسانية، لكننا نرجئ البحث فيها الى دراسة أُخرى.

(٢) المنجد في اللغة والأعلام، ص ١١، دار المشرق، بيروت.

(٣) جفري، بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، الطبعة، ٢، ١٩٩٦م، مكتبة

وكان للبابليين آلياتهم لتشوّف المستقبل، فعندما تكون الدولة على وشك إصدار قرارات خاصة كالاتفاقيات الدولية أو شنّ الحروب، كان الأطباء وكهنة التعاويذ على حد سواء يسجلون الفأل السيء من المواليد المشوهة[١] لاستكناه المستقبل. أما لو رجعنا الى المعتقدات الدينية الآسيوية واستقرأنا التفكير المستقبلي فيها لوجدنا الشيء الكثير منه، فقد برع الكهنة في هذا المجال، إذ اعتمد الجوند في علاجاتهم بالقوى غير المنظورة، على القدرة الخارقة للكهنة الذين يتولون مناصبهم بالوراثة، فالمتنبئون تأخذهم غيبوبة النشوة فيصبحون عرافين أو وسطاء تتحدث الآلهة عن طريقهم الى الناس مباشرة[٢]. والبوذية تتطلع الى (Namasangiti) ناماسانجيتي، إلهاً يمثل صورة (السيد المنتظر) أو بوذا القادم صاحب الرحمة اللامتناهية، رموزه: زهرة اللونس والسيف والعصا وجرة الماء[٣]، لأنها تعتقد أن الحاضر البوذي قد تردى ولابد من العودة، فلو أن جوتاما بعث من قبره حياً وذهب من اقصى التبت الى اقصاها باحثاً عن تعاليمه لما وجدها، وسيحدث هناك ذلك الطراز العتيق من أحكام البشر، وهو الملك الرب متوجهاً وممثلاً في شخص الدالاي (Dalai lama) الذي هو البوذا الحي، وسيجد في لهاسا (Lhasa) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة والرهبان واللامات، وهو الذي لم تكن مبانيه إلا الخصاص. ولم تكن له أي كهنة[٤].

← مدبولي، القاهرة ص ٥٦.

(١) المصدر السابق، ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق ص ٥٧.

(٣) إمام، إمام عبدالفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد ٣، ص ١١، قسم الفلسفة جامعة الكويت.

(٤) شلبي، أحمد، أديان الهند الكبرى، ط ٩، ١٩٩٣، مكتبة النهضة، القاهرة، ص ٢٠٥.

وهكذا بقي هاجس التطلع المستقبلي موضع اهتمام أغلب شعوب العالم وعلى مختلف حضاراتها، إلا أن طرق تناول هذه الشعوب للمسألة اختلفت من حضارة الى أُخرى، فمنها ما تناولته ضمن الرؤية التاريخية للوجود، وأُخرى تناولته ضمن اسطورة الحدث أو ضمن أُسطورة البطل المقدس، فيما اعتبرت إيران القديمة التفكير المستقبلي مسالة تاريخية، فكانوا ينظرون الى التاريخ على أنه صراع بين الإله والشيطان، وفي بداية الخلق إخترق الشيطان السماء وهاجم الإنسان الأول والحيوان الأول بالمرض والموت، ولكن في اللحظة التي يحقق فيها انتصاره الظاهري تنبعث من الإنسان والحيوان معاً بذور تؤدي الى ظهور الحياة، فيتأكد دوام الخلق الطيب وهزيمة الشيطان(١). وينقسم التاريخ في تصورهم الى أربعة فترات، تمتد كل منها الى ثلاثة آلاف سنة.

في الفترتين الأُولى والثانية كان الله والشيطان يعدان قواهما، أما في الفترة الثالثة فقد إشتبكا في الصراع وفي الفترة الاخيرة سوف ينهزم الشيطان الى النهاية إذن فالنظرة للمستقبل تنطلق من الرؤية التاريخية، حيث تفسر حضارة إيران القديمة نهاية التاريخ بمرحلة محتومة، وهي إنتصار الحق على الباطل، بعد صراع طويل يستنفد من حضارة الشيطان كل أدواتها.

والرومان يعتقدون بوجود علاقة بين الناس والنجوم، فنحن نشارك الكواكب في القدرات والمشاعر، ولما كان مسار زحل بطيئاً فقد اعتقدوا أنه يجعل الناس كسالى، أما كوكب الزهرة فهو المشرف على الحب، في حين يهب

---

(١) إمام، عبدالفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد ٣ ص ١٣.

كوكب المشتري الناس القوة، ويبارك عطارد التجارة[١].

والصينيون يتطلعون الى المستقبل عن طريق ملوكهم، ولا يمكن للإنسان أن يتوصل الى معرفة المستقبل إلا من خلال الملوك الذين هم ملوك وكهنة في آن واحد.

إن النظرة الاجمالية للثقافة المستقبلية لدى الحضارات القديمة، ومن خلال النصوص التي تناولناها، تُلخص أن التفكير المستقبلي أدى الى ظهور عناصر بارزة تتمحور حولها كافة النشاطات الإنسانية في هذه الدائرة، كدخول العنصر الرباني في الحركة الأرضية من أحداث ونبوءات، وكالتفسير الجبري لحركة التاريخ بمعزل عن إرادة الأُمة واختياراتها الى جانب هيمنة نموذج الكاهن كصاحب قوة مقدسة وسلطة مؤثرة على النفوس والمشاعر، قادرة على التحكم في تطلعاتها، أما العنصر الأخير فهو تدخل قوى الطبيعة من مخلوقات سماوية أو ارضية وهيمنتها على إرادة الإنسان الذي منحها بدوره هذه السلطة.

تكشف هذه العناصر بمجملها عن أمرين، الأوّل: أن التفكير المستقبلي قد تحكمت به قوى خارجية ذات سلطة مقدسة ترتدي اللباس الديني، والثاني: كأن الإنسانية ـ في رؤيتها الى المستقبل ـ لا تريد أن تعتمد على الذات بشكل مطلق، وإنّما تسعى الى من يحرك مسيرتها من الخارج، بالإضافة الى الاعتماد على الذات.

المنهج الذاتي وأثره على التفكير المستقبلي

تعامل الإنسان القديم مع مظاهر الطبيعة إنطلاقاً من الذات، فحاول أن يطبق كامل اكتشافاته وتأملاته واستنباطاته لأغوار النفس ومداخلها، من تخيلات

---

(١) جفري، بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٢٧.

فرضية، وسنن نفسية وعقلية، ونداءات وجدانية، على حركة الطبيعة، ويحاول أن يدمج هذه التخيلات والتأملات مع حركة الطبيعة بكل مظاهرها، فنراه يفسر الظواهر ويتعامل مع الطبيعة تبعاً لما يرى من شؤون ذاته، فأخذ يتخيل أن لمظاهر الطبيعة حياة وشعوراً ورغبة طبقاً لما يتوافر في الإنسان من خصائص. ثم ارتقى مرتبة أخرى، ففرض، على وفق هذه التصورات، أن للطبيعة غايات تتحرك نحوها، فبما أنه يتحرك في عمله وسلوكه اليومي ضمن غايات معينة، راح يملي هذا المنطق الغائي على الطبيعة، ويفسر في ضوئه حركتها، معتقداً أن لها غايات وأهدافاً محددة(١).

واسترسل مرة أخرى مع تفكيره وفرضياته ففرض بعداً ثالثاً للطبيعة تعتبر ضمنه ذات مدخلية في حياة الإنسان ومصيره وغاياته المستقبلية، تمتلك فيه سلطة وإرادة فوقية مقدسة وحاكمة على سلوكه ومصيره، بينما لا تتوفر لديه هو القدرة على الافلات من هيمنتها الفوقية القاهرة، كتحكم النجوم والكواكب والماء والهواء في حياته ومستقبله. هذا الربط الجدلي الذي ابتكره الإنسان، ادى الى تكبيل إرادته وتحديد آفاق وعيه، وبالتالي ظهور آثار سلبية على نمط ملاحظته للمستقبل.

كانت الحضارات القديمة تنظر الى أصل الوجود وبدايته انطلاقاً من الذات، أي بنفس ما فسّر الإنسان على أساسه مظاهر الطبيعة، حيث اعتقدت أن الوجود بدا ونشأ بما يشبه الظروف التي ينشأ بها الانسان في تكاثره وتوالده، وظهر تصور يفترض أن وجودين اثنين ولّدا سائر المظاهر الوجودية الأُخرى،

---

(١) زكريا، فؤاد، الفكر العلمي. الكويت، عالم المعرفة ص ٦٠ ـ ٦٢.

ويمثلان عند المصريين والاغريق الأرض والسماء[١]، وهما الشمس والقمر عند غيرهما[٢]، ونجد هذا التفسير عند سكان نيوزيلندة الأصليين أيضاً[٣].

وإذا كانت نظرة الإنسان لبدء الخليقة قد نسجت في ضوء استيحاء دوافع الذات ومظاهرها بالاضافة الى تأثيرات الطبيعة والظرف الاجتماعي الطارئ، وهمومه الآنية، فإن هذه النظرة للوجود قد انعكست على هموم المستقبل أيضا، ولمّا كان الإنسان قد حول النظرة التفسيرية للوجود الى رموز مادية مجسدة تعبر عن تلك الفكرة المصاغة له، فقد وضع آلهة للأرض والشمس والقمر، وجعل الرمز المجسد معبراً عن الوعي بالوجود وحصره بهذا التجسيد المادي، فانتقل الى نفس التفكير المستقبلي ليجسده في إله، مثل الإله آنكي أو آيا في مدينة لجش التابعة للسومريين المرتبط اسمه برؤية الطالع[٤].

ولما كانت التصورات حول الوجود قد تحولت الى رموز وثنية محددة المعنى، وأصبح لكل حضارة رمزها وفلسفتها حول الوجود بما ينسجم مع طورها الحضاري الخاص، فقد اختلفت آلهة النبوءة والطالع والأحلام تبعاً لذلك. وحيث كان التفكير المستقبلي قد خضع لهذه المعادلة فقد اكتسب فيما بعد صفة الاطلاق وصفة التقديس، كما هو شأن الاسطورة، وهذا يعني تقديس الفكر الماضوي الذي له القدرة في التحكم بالتفكير المستقبلي الذي يجعل من المستقبل نسخة من الماضي.

---

(١) فرانكفروت. هـ. أفرا، جون ولسن، توركيلد جالويس، ما قبل الفلسفة: ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، دار مكتبة الحياة، فرع بغداد، ص ٢١.

(٢) مسعود، د. ميخائيل، الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام، دار العلم للملايين ط١، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٦.

(٣) فرانكفروت، جون ولسن: ما قبل الفلسفة، ص ٢٢.

(٤) إمام عبدالفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد ٣، ص ٣.

سلطة الكاهن

الكاهن من يقوم بأمر الرجل، ويسعى في حاجته، وكهنة، وكُهان: من يدعي معرفة الأسرار أو أحوال الغيب، وعند اليهود وعبدة الأوثان هو الذي يقدم الذبائح والقرابين، وعند النصارى هو من ارتقى الى درجة الكهنوت(١).

وهناك علاقة بين الكاهن والاسطورة نشأت بفعل امتلاك الكاهن لمعلومات وتنبؤات غيبية، كان قد حصل عليها من الموروث الديني، أو من الأنبياء، لكنه عمد الى الاساءة اليها عبر توظيفها لاغراضه الخاصة وفي إطار خدمة السلطة السياسية.

وبقيت الحاجة للكاهن قائمة، فأخذت اجتهاداته الوضعية ذات الصبغة الدينية تتسع وتتراكم بمرور الزمن، حتى أنتجت نموذج الكاهن بسلطته الدينية السياسية، كونه يتمتع بقيمة مقدسة تميزه عن غيره، وله خصوصية اللقاء مع الآلهة التي تمنحه الاتصال المزعوم بالغيب، لأنه الإنسان الذي ينتمي الى طبقة الجنس العالي، ولهذا كانت الديانات الهندية مثلاً تربط المجتمع بنظام الطبقات حيث نجد شخص الكاهن وعنصره يفوق غيره من باقي الأصناف، بل رأت أن تربطه بنص مقدس «فورد في قوانين (منو) وهو يعدد خلق برهما للكائنات:... ثم خلق البرهميّ من فمه، والكاشتريا من ذراعه، والويشا من فخذه، والشودرا من رجله، فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هذا النحو»(٢).

---

(١) المنجد في اللغة والاعلام، ج١، ص ٧٠١.

(٢) شلبي، أحمد، أديان الهند الكبرى، ص ٦٠.

ويذكر (Weech) إن طبقة الكهنة حافظت طويلاً على نقائها، أما الطبقات الأُخرى فقد تفتت ونشأ عنها طبقات كثيرة[١]، وهذا يتيح للكاهن صلاحية رسم حدود مستقبل بيئته ومجتمعه، ويمده بالتفكير المستقبلي الجاهز. فالتفكير المستقبلي إذن يخضع بتأثيره لخطاب الكاهن المؤثر، وتكون الأمة متلقّاة من جهته بأُسلوب قيمي مقدس، حتى تحول نموذج الكاهن فيما بعد الى جهاز، ففي روما نجد الكاهن ينظم الى دائرة تسمى (دائرة الكاهن الأعلى) تضم جميع أسماء القناصل وأعضاء مجلس القبيلة وموظفي الإحصاء والأمراء[٢]، ويتولى هذا الجهاز حماية الدين والمعتقد السائد، ويبتدع لذلك الأفكار عبر تكريس تصوراته الكهنوتية. وفرض طقوسه فيبذل جهوداً حثيثة ترمي الى تقديس الثقافة المؤسطرة كل النزوعات الفطرية المتطلعة الى المستقبل، لصالح النخبة عبر قدرات هذا الجهاز التي توظف الحدث فيما يخدم مصالحها.

فالملحمة البابلية (إنيوما إيليش) إنّما جاءت بفضل الجهود التي بذلها كهنة بابل (١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ ق. م) فكانت طوقسها يتلوها الكاهن الأكبر في اليوم الرابع من احتفالات رأس السنة البابلية بحضور الملك وكبار القادة والكهنة[٣]، وهذا الطقس واحد من الأنشطة التي يتولاها الكهنة في توجيه أقوامهم.

وقد لعب الكاهن والجهاز الملحق به دوراً كبيراً في تاريخ الشعوب، ودخل أغوار المستقبل، وكان يبرز في المنعطفات التاريخية والأغراض الحربية،

---

(١) المصدر السابق، نقلاً عن: Rebgions of the world p.42

(٢) الأحمد، د. سامي سعيد، تاريخ الرومان. بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٨م، ص ٢١.

(٣) عبدالباسط، د. سيد، من الوعي الاسطوري الى بدايات التفكير النظري، بلاد الرافدين تحديداً، دار الحصاد، دمشق، ط ١، ص ٣٤.

وكانت القوى الحاكمة تلجأ إليه رغبة منها في الإبقاء على الذهنية السائدة، والوقوف أمام تطلعاتها، وتثقيف العامة على ربط حاضرها ومستقبلها بهذا الجهاز، وعندما يريد الملوك وضع قانون ما، فإن المؤسسة الناطقة باسم الآلهة هي التي تروج له(١).

الى هنا يكون التفكير المستقبلي قد دخل في أضيق آفاقه عندما استسلم لنزوات وتصورات الكاهن، ولما كان هذا النمط من التفكير صادراً عن الثابت الفطري في المحتوى الإنساني حاجة وطموحاً، فلابد من ترقب ظهوره في مناخات أُخرى حتى لو تلبّس لفترة ما، أو عبر عن نفسه بتشكلات ضعيفة، فهو لا يستسلم نهائيً، ولابد أن يتبلور في ظرف آخر بعيداً عن دائرة الكاهن.

البدائل الخرافية

ظل الإنسان ـ بدافع حاجته وطموحاته ـ يبحث عن بدائل فكرية يتطلع بواسطتها الى المستقبل، ويتهرب عن كابوس آلهة الطالع الأسطوري وهيمنة الكاهن، فلجأ الى الخرافة، باعتبارها النشاط الفكري الذي يقوم على عنصر الإدهاش والمبالغة والتهويل، وتجري الخرافة في احداث بعيدة عن الواقع، فيدخل عنصر الآلهة مسرح الأحداث الخرافية أحياناً، لكنه يظهر أشبه بالبشر المتفوقين، لا كآلهة سامية متعالية، كما هو شأنهم في الأسطورة(٢)، حين تدخلت فيها يد الكاهن المقدسة، وتظل الخرافة معبرة عن أزمة نفسية واجتماعية، إلا

---

(١) فوزي، رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص ٨٥ـ ٨٩

(٢) السواح، فراس، الاسطورة والمعنى، دراسات في المثيولوجيا والديانات الشرقية، ١٩٩٧، دار علاء الدين، دمشق ط١، ص ١٤.

أنها نشاط غير دافع نحو العمل والسلوك والفعل المستقبلي... «هبطت عشتار ذات مرة الى العالم السفلي وهي تبحث عن حبيبها المفقود (موزي) أو تموز، ونتيجة لهبوطها توقف الخصب والاخصاب»(١).

إنّ ظاهرة الأحلام من بدائل التفكير المستقبلي الخرافية التي تشبث بها الإنسان ظناً منه أنه يتعرف بواسطتها على مستقبله.

فالأحلام تعني تارة التخيل والأماني لرسم صورة المستقبل المرغوب.

وتعني أُخرى النبوءة بما سيتحقق مستقبلاً وإن كانت مُرّة ومؤذية. فالاغريق كانوا يتعاهدون المبيت في معبد خاص لعلهم يحصلون على الأحلام الجيدة، وكان للبابليين إله خاص بالأحلام اسمه (ماخر)، وللمصرين أيضاً إله خاص لذلك اسمه (بس)(٢).

وفي الصين برز العراف مظهراً خرافياً آخر يمثل الروح الوسيط (او الشامان) كحلقة وصل بين البشر والأرواح، وتحولت هذه الصور فيما بعد الى التعاويذ والتنبؤ بالحظ(٣)، وبقيت الخرافة عنصراً يعمد الى إحداث نوع من التوازن في الوسط الاجتماعي بعد تعرض هذا الوسط للاضطراب، فحينما يواجه ظاهرة غريبة تثير دهشته ويصاب في بداية الأمر بحالة من القلق وعدم الاستقرار، فانّه سرعان ما ينتج لذاته خرافة ـ بواسطة الحلم أو غيره ـ تلتقي ببيئتها المحلية وتتشابك علائقهما مع كائنات ماورائية مثل الجن، والعفاريت. ولهذا أمثلة كثيرة في الحضارات العالمية(٤).

---

(١) جفري، بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٨.

(٢) الوردي، د. علي، الأحلام بين العلم والعقيدة، ص ٣١.

(٣) جفري، بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٣٣٩.

(٤) السواح، مصدر سابق، ص ١٦.

الفصل الثاني

التفكير المستقبلي يدخل مجال الفلسفة

أخذ التفكير المستقبلي لدى الإنسانية ـ في فترات ما قبل الميلاد ـ يبحث عن أجواء ومناخات عقليه حرة يُعقلن فيها تصوراته، حيث لم يكن بمقدور البدائل الخرافية أن تكون بديلاً عن التفكير الواقعي، خصوصاً بعد تهاوي وسقوط الطرح المؤسطر لنموذج الكاهن، فراح الإنسان يلملم شتات تأملاته باحثاً عن وسائل وصيغ معقولة، ففي الصين كثر الفلاسفه فى القرن الثالث (ق.م)، وكانوا يعلنون نقاشاتهم أمام الناس، حتى تطورت مدارسهم الفلسفية كالكونفوشيوسية والتاوية وانتقل التفكير المستقبلي «في حينها من الاهتمام بالفأل الحسن والفأل السيء الى الاهتمام بالصواب والخطأ»، والقضايا القيمية[1]، وطرح افلاطون (٣٧٤. ق. م) بذور تفكيره الفلسفي حول المستقبل من خلال رسم صورة المدينة الفاضلة. حيث يرى لابديّة أن يسعى الإنسان لتحقيق ذلك المستقبل الاجتماعي المتصور. وضمن خطة المدينة الفاضلة يرى أنه لابد من النظر الى مفهوم الأسرة والزواج بصورة مختلفة عن المألوف، فالغرض من الزواج عند افلاطون هو استمرار النسل، وحيث ان الحياة الزوجية

---

(١) جفري، بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٣٣١.

هي مصدر كل شر، باعتبار أن الغاية من الدولة لا تتحقق إلا بائتلاف المنافع، وكلما ائتلفت المنافع والأغراض، حققت الدولة مهمتها على الوجه الأكمل، بينما الزواج والأسرة هما مصدر لاختلاف المنافع، ومن ناحية أخرى إذا كانت الملكية هي مصدر اختلاف المنافع أيضاً، فيجب إذن ـ لكي تقوم الدوله المثلى ـ أن يقضى على الزواج والملكية، وعلى هذا ستبدأ الدولة بتسلّم كل طفل ذكر وتضعه في ملاجئ لتربية الأطفال، فالذين يصلحون للجيش يخضعون لتربية عسكرية، والذين يصلحون لادارة الدولة يتلقون تربية فلسفية... أما الموسيقى فيجب أن تكون إيقاعاً يفيض بالقوة، وأن تخلو من الميوعة التي نشاهدها عند بعض أهل الألحان، وكذلك الحال في بقيه الفنون، حيث يجب أن تطهر نهائياً من كل فكرة أو نزعة مخالفه للفضيلة. ويحمل افلاطون على كثير من الشعراء ويطردهم من مدينته الفاضل، وعلى رأسهم هوميروس[1].

لو لاحظنا الخلفيات والمؤثرات التي أدت الى نشوء هذا اللون من التفكير، ليتسنى لنا بالتالي تصنيف التفكير الافلاطوني الفلسفي حول المستقبل، لرأينا أن افلاطون تأثر بنظام الدولة الإسبرطية، كما صنعه لوكرجوس، فهو يقول كما يقول التشريع الإسبرطي، بأن الفرد للدولة، ويقول بتربية الأفراد تربية عسكرية وبالقضاء على الملكية، والقضاء على الزواج، كما كانت الحال عند الإسبرطيين. إلا ان هناك اختلافاً كبيراً بين افلاطون وبين النظام الإسبرطي من حيث الروح والغاية فالغاية في النظام الإسبرطي تقوية البدن فحسب، أما الغاية عند افلاطون فهي الفضيلة وتحقيق العلم الفلسفة. وهذه الدولة الافلاطونية أقرب ما تكون

---

(١) بدوي، عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، ج١، ص ١٨٤.

الى نظام الكنيسة الذي كان موجوداً في العصور الوسطى[١]. ولم تقتصر هذه الطروحات الفلسفية حول المستقبل آنئذ على هذا النتاج الذي جاء به افلاطون. وإنما كانت عناك تصورات أُخرى تناولت المستقبل، مثل الفلسفة التاوية في الصين، حيث قدمت تفسيراً توحيدياً للوجود، لكن بطريقتها الخاصة، وتضمنت بعداً اجتماعياً ـ كما سوف نلاحظه ـ للمستقبل. فالتاوية نشأت على يد لاوتان (حدود ٦٠٠ ق. م) وهو المعروف بت (لاوتز) مؤسس التاوية، فلسفة الصين العظمى، إذ قدمت تفسيراً اجتماعياً للمستقبل، إلا أنه قد اعتمد على صور الماضي المتخيل، أو الذي يُعتقد أنه قد تحقق، ليكون أملاً مستقبلياً، فكانت هذه الفلسفة تردد: «تاو الإنسان، بساطته من حالة اللافعل، واللافعل هو سبب للأبدية، ومنه فقط تستمد الأشياء خلودها». على أن سلب الفعل عند التاويين يتسع ليشمل أُسلوباً آخر...، «باللارغبة يصل المرء الى المحجوب، وبالرغبة يصل المرء الى المشهود، فمن سلب الرغبة نفذ الى الغيب، جوهر الوجود وحقيقته، مخترقاً حجاب المشهود، اللااسم هو بداية السماء والأرض، أي أنه بداية الوجود كله»، فالوجود يبدأ من السلب مثلما ينتهي إليه، والسلب هو جوهر الوجود وحقيقته، وفي حياة البشر: «عدم جمع الكنوز يمنع السرقة، عدم رؤية المرغوبات يمنع تشوش القلب».

ويشبه التاو إناءً فارغاً تستعمله دون أن تحتاج الى ملئه، يتجول الحكيم دون أن يفعل شيئاً، ويعلم دون أن يتكلم، ولكي تكون تاوياً يجب أن تكون بسيطا في كل شيء. والتاوي هو الذي يعمل بلا فعل، أي ينتج ماهو خصيص به

---

(١) بدوي، مصدر سابق، ص ١٨٤.

وينسحب دون ضوضاء. «لقد دخل القدماء في حكم التاو، والرغبة منضبطة والعاطفة مسيطر عليها، فلم تسقط الروح في الغربة. استمدوا الراحة من سكون الخلق فلم يزعجهم تأثير المذنبات، ولا ذيل بنات نعش...

خلال هذه الحقيقة، كان الناس في حالة من البساطة التامة، يأكلون ويتنزهون، يمتعون بطونهم ويتمتعون، ينعمون معاً في بركات السماء، ويأكلون من ثمرات الأرض، لا يتشاحنون ولا يتبادلون التهم، ولا يتنازعون على الحق والباطل.. وفي أيديهم السلام والوفرة..»[١].

هذه الصورة التي يرسمها التاوي للماضي المفقود، والتي تعتمد الوصايا الأخلاقية لها ما يقابلها من الأفكار التي تؤمن بها الديانات الكبرى، لكن الفرق في أن الديانات تتطلع الى المجتمع الإلهي المستقبلي الفاضل[٢]، أما التاوي فهو يحنُّ الى صور المجتمع الفطري الذي كان متحققاً[٣].

تراجع التفكير المستقبلي في إطاره الفلسفي

لم تتمكن الفلسفة من استبعاد اللون المؤسطر من التطلع الى المستقبل، وإن استطاعت أن تحقق تقدماً في مجالات محدودة، فقد ارتفعت بالوعي المستقبلي الى مستوى التفكير العلمي ـ بعد أن استحوذت عليه الخرافة ـ

---

(١) العلوي، هادي، التاو: نصوص من الفلسفة الصينية القديمة ص ٣٥.

(٢) بالصورة التي يتحدث عنها القرآن الكريم فيما يرتبط بالوعود الالهية لمستقبل الإنسان، كوراثة المستضعفين وتحقيق عصر العدل.

(٣) الشبيه بالمجتمع الفطري الذي تشير اليه الآية الكريمة ﴿كان الناس أُمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾.

وادخلت إليه عنصر الإرادة الإنسانية وقدرتها على تصميم مستقبلها. لكنها في تفسيرها للمستقبل بقيت متأثرة ببيئتها، فرغم هجوم افلاطون على الخرافة والاسطورة ومجيئه بالبرنامج العلمي المستقبلي عبر مدينته الفاضلة، لكن هذا التفكير بقي فرضياً عالياً لا يحرك الواقع نحو العمل، ومجمل آرائه بالواقع وبمدينته أشبه ما تكون بردة فعل للنظم والأفكار السائدة، وهو قد تأثر ـ كما لاحظنا ـ بالتفكير الاسبرطي، والشيء الجديد أنها اضافت لهذا التأليف صوراً مستقبلية لم تكن معروفة، فهذه نقطة تحرك الإنسان والمجتع ليساهم في هذه الدائرة، وان كان ضمن إطار محدود لا يمتد الى عامة الناس.

كما أننا نلاحظ تراجع الفلسفة التاوية والكونفوشيوسية في نظرتها، فكونفوشيوس، رائد الاستذهان اللبي ـ كما يعتبره الصينيون ـ كان يطرح في المرحلة الأولى تفكيراً فلسفياً خالصاً، ثم تحول مذهبه بعد ذلك الى دين له طقوسه لكنه مشوب بالفلسفة والتصوف، ونلاحظ أن التراجع قد أصاب الفلسفة التاوية أيضاً [1].

يتسائل نيدهام، عالم الصينيات الانجليزي، عن السر الذي جعل فلسفة راقية كالتاوية تتحول الى دين. ثم يلتمس لها عذراً في إطار رد الفعل ضد الدين الجماعي الكونفوشيوسي، بقرابينه وطقوسه المفرطة التي اتسعت مع اتساع الدولة، حيث لم يعد مقدوراً لكل الناس أن يؤدوها، فجاءت الديانة التاوية لتكون ديانة الخلاص الفردية لأهل الصين، لتحررهم من فروض الكونفوشيوسية الباهضة، وترفع عنهم الاغلال التي كانت عليهم، لكنها وقد

---

(١) العلوي، مصدر سابق، ص ١٠.

تحولت الى دين، لم تعد قادرة على أن تفعل هذا كله، ففزعت الى الأباطرة، وسلك لاهوتيوها ـ للتأثير على هؤلاء الحكام ـ سبل الشعوذة، فاخترعوا اكسيراً لاطالة العمر شربه أربعة منهم فماتوا. وحاولت التاوية أن تصبح دين الصين الوطني ضد البوذية القادمة من الهند(١).

إنّ الرؤية الفلسفية للمستقبل قد استخدمت المفاهيم الذهنية أدوات معرفية لها، أما التفكير المستقبلي الاسطوري فكان يلجأ دوماً الى الخيال والعاطفة حيث تطرح المبادئ والقيم عندما يراد تحريكها في جو من التقديس ذي السلطة الكهنوتية على النفوس، وهذا كفيل بدفع الناس نحو الأهداف المستقبلية كما لاحظناه، وهو ذات السر الذي أطاح بالتاوية، والكونفوشيوسية من قبلها، وانتهى بهما الى دين يتبناه الأباطرة. وأخيراً فإن التفكير المستقبلي لم يبلغ مستواه، ولم تكتمل معالمه في ظل الفلسفة بعد أن تراجع الى اسوأ مراحله في ظل التفكير الاسطوري. وهو يعود الى التقاطع، أو شبه التقاطع، القائم بين التفكيرين الفلسفي والمستقبلي، فالتفكير المستقبلي لا يعتمد على إحداث الوعي النظري والعقلي المحض فحسب، وإنّما يتوافر على بعد عملي يتكامل عن طريقه. أما التفكير الفلسفي فلم يكن يتعدى المفاهيم الذهنية.

وهناك مسألة أُخرى أُصيبت بها الفلسفة والعلوم الطبيعية على حد سواء، حيث بقي كلٌ منهما يحمل بعض عوالقه الخرافية التي تتسرب إليه من بيئته وظرفه، وهذا ما يمتد بطبيعة الحال الى الرؤية المستقبلية فيما لو تكوّنت في إطار هذه الفلسفة أو ذلك العلم.

---

(١) نفس المصدر ص ١٠.

إن الإنسان، مع تحقيقه لتقدم ملحوظ في اكتشافاته العلمية، بقي متأثراً بالتفكير الذاتي والخرافي. فعندما اختراع الكهرباء كان يعتقد أنها دليل على وجود مبدأ حيوي، يتغلغل في الأجسام غير الحية. والمغناطيسية تعد مظهراً لوجود حياة طبيعية فيها، وهذا ما يلاحظ من خلال تسميته (Laimant) أي المحب، لأن المغناطيس يجذب الحديد مثلما يجذب المحب محبوبه. فعلماء أوروبا المشهورون ظلوا يعتقدون، حتى القرن الثامن عشر الميلادي، بإمكان الاهتداء الى طبيعتين ذكرية وأنثوية في المعادن، وكان ذلك يبعث في نفوسهم أملاً كبيراً في أن يأتي اليوم الذي تكتشف فيه هذه الثنائية الجنسية في الذهب مثلاً، حتى يتمكن من تحقيق التكاثر في هذا المعدن النفيس(١).

وبعد النهضة العلمية الحديثة طرأت على التفكير المستقبلي تغيرات جوهرية رسمت مساره الحديث أسوة بباقي العلوم. فقد ألف أوغسطين «مدينة الله»، وكامبانيلا «مدينة الشمس»، ووتوماس مور «يوتوبيا الرجل المتفوق» وسان سيمون وماركس في «الشيوعية النهائية»(٢).

ونشأت الفلسفة الحديثة، وتم التوصل، في بعض المجالات، الى المصالحة بين العلم والفلسفة، وإن كان العلم حيادي الموقف دائماً، وظل بعض يعتقد بأن الفلسفة قادرة على إعطاء العلوم أساسها، بينما هناك من راح يرى العكس، أي عدم قدرة الفلسفة على مماشاة العلم، وأن بمستطاع كل علم ان ينمو وحده(٣). إلا أن الأفكار المطروحة في موضوع المستقبل تأثرت بما كتبه ابن سينا

---

(١) السنوي، سهل، تاريخ العلم وفلسفته، ص ٣٣.

(٢) بيجوفيتش، على عزت، الاسلام بين الشرق والغرب، ص ٢٤٤.

(٣) السنوي، مصدر سابق، ص ٤٠ ـ ٤١.

والفارابي وابن رشد والبيروني. وفي أيام روجر بيكون برزت فكرة التمييز بين العلوم الرياضية بمناهجها الاستدلالية والصورية، وبين العلوم الطبيعية، وازداد هذا التمايز وضوحاً بانفصال العلوم واحدة تلو الأُخرى عن الفلسفة(١)، حيث اتجهت الكتابة عن المستقبل اتجاهاً علمياً، بديلاً عن الطابع الفلسفي، وبهذا الصدد يقول آلبرت شفيتسر الفيلسوف الألماني: لقد كانت الفلسفة ذات يوم عاملاً فعّالاً في انتاج معتقدات عامة عن الحضارة، أما الآن وبعد الإنهيار الذي حدث في منتصف القرن التاسع اصبحت هذه الفلسفة نفسها مجرد مستوف لأرباح الأسهم، مركزة كل نشاطها على ما استطاعت ادخاره بعيداً عن هذا العالم الواقعي.

لقد أصبحت الفلسفة مجرد علم يستخلص النتائج التي وصلت اليها العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية، ويستمد منها المادة اللازمة لوضع نظرية في الكون وبذلت نشاطها في مختلف فروع المعرفة، واضعة هذا الهدف نصب عينيها، وفي الوقت نفسه، استغرقت شيئاً فشيئاً في دراسة ماضيها حتى أصبحت الفلسفة عملياً، تاريخاً للفلسفة (٢). كما نجد مثلاً أن أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع الفرنسي، قد لعب دوراً كبيراً في تجديد العقل الاوربي، واعتبر أن الفترة الوضعية هي آخر مرحلة في الفكر الإنساني، ومنذ ذلك الحين أخذ علم المستقبل يعتمد التحليل العلمي.

كما ألف لميرت كيونليت كتاباً في علم الاجتماع أعطاه عنواناً منطقياً هو «طبيعيات المجتمع» استند فيه الى أدلة تنتهي الى نتائج علم الطبيعة وعلم

---

(١) السنوي، مصدر سابق، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) شفيتسر، البرت، فلسفة الحضارة، ترجمة عبدالرحمن بدوي، ص ١٦.

الحيوان[١]. وبعد أن احتلت العلوم الطبيعية الصدارة والهيمنة، استطاعت أن توظف العلوم الطبيعية والفلسفة معاً لصالح أغراض السياسة، وحماية النخب، ونظام الدولة. فلقد آمن الإنسان الغربي، بشكل لا يقبل التردید، بأنه السيد المطلق على وجه المعمورة، وبكون الفرد أصلاً للوجود الاجتماعى الذي يجب أن تقدم مصالحه واغراضه على مصالح المجتمع الوهمية. فقد أباح لنفسه التصرف المطلق بموارد وخيرات الطبيعة بلا رادع أو مقياس، إذ استخدم العلم بما أُوتي من انجازات هائلة بحيادها الإنساني لأغراض الهيمنة.

وكان علم المستقبل أحد تلك الفروع التي طالها التوظيف السياسي، لشدة حساسيته، وعلاقته بأغراض الصراع والعمل العسكري والسيطرة على الشعوب الفقيرة. ففي أمريكا، التي تعتبر من أكثر الدول اهتماماً بهذا العلم، نجد سنة (١٩٧٠م) أن عدد الهيئات الأميركية الأساسية المتخصصة بالدراسات هذه قد بلغ (٣٨٦) هيئة[٢]. ولم تقتصر هذه العناية الأمريكية بعلوم المستقبل، على ميدان واحد من ميادين المعرفة، بل شملت العلوم الأُخرى، كالسياسة والاجتماع والاقتصاد والادارة، وقد سخَرت أمريكا قواها التكنولوجية والبشرية والمخابراتية لدعم هذا الاختصاص. إن هذا الانهماك المتزايد بالدراسات يكشف حجم المحاولات الرامية الى استعمار المستقبل، والانتقال من استعمار الأرض الى استعمار الزمن.

وبعد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي وانهيار

---

(١) بيجوفيتش، علي عزت، الاسلام بين الشرق والغرب ص ٢٤٤.

(٢) مجلة الكلمة، العدد٣، سنة ١، ص ٨٢

الاتحاد السوفيتي، وتحسب أمريكا من بروز تكتل سياسي او حضاري يهدد المصالح الغربية مستقبلاً، كثرت الكتابات في موضوع المستقبل، مثل أُطروحة صِدام الحضارات لصاموئيل هنتنغتن، ونهاية التاريخ لفرنسيس فوكوياما. وتبلورت تلك الكتاب والأُطروحات، على وفق الاطار الأوروبي، وحظيت بالاهتمامات العلمية، وروّج لها دعائياً، خاصة الكتابات والاهتمامات المستقبلية ذات الدوافع والانتماءات السياسية، مما ادى الى تأطير هذا العلم وانتزاعه من دائرة الحياد العلمي وهويته الإنسانية لتضعه في الزاوية الايديولوجية الضيقة.

مثلاً يجد فوكوياما أن خيار البشرية سينتهي الى الطريق الذي رسمته الحضارة الغربية، ويحاول أن يعطي لفرضيته قانوناً، ليبرهن على أن الديمقراطية الليبرالية أُطروحة علمية وقانونية بسبب ثباتها التاريخي، وقدرتها على البقاء، بعد أن فشلت الملكية، والشيوعية. واعتقد فوكوياما بأن التطور الأخير على الصعيد الايديولوجي والسياسي والاقتصادي هو المحطة الأخيرة والشكل النهائي للحكم الذي تجسد في الديمقراطية، وأن السبب في عدم تقدم الأنظمة الأُخرى هو نقصها وعدم شموليتها، الأمر الذي أدى الى سقوطها. دليل تكامل الديموقراطية هو بقاؤها سالمة دون غيرها من الأنظمة، بل نجدها ـ كاطروحة ـ تمثل طموحات الشعوب في كل العالم. وهذا يكشف أيضاً أنها خالية من العيوب، لأنها وضعت على المحك، وأثبتت صلاحيتها في واقع التطبيق.

ثم أن النظام الديمقراطي ـ حسب فوكومايا ـ جاء حصيلة تجربة طويلة خاضتها كل الشعوب، وعلى مختلف الأزمنة. إذن، فهي حصيلة الجهد البشري والثمرة الناضجة الأصلح في عالم اليوم، والمستقبل.

ثم يضاف الى ذلك أن الحركة النقدية النامية، والتعديلات المؤسساتية، وثبات الشكل الديمقراطي لها، والذي حصل بمرور الزمن، أدت بمجموعها الى استحكام التجربة، ووصولها الى أرقى صورها، فلا يبقى مجال لحذفها، أو الاضافة عليها، وبهذا يتبين أنه النظام الأخير الذي لا يوجد أفضل منه.

كما أن النظام الديمقراطي لم يثبت قدرته وجدارته وبقاءه على الصعيد السياسي والاجتماعي فحسب، بل أصبح طموحاً ثقافياً قد تبنته الثقافات الأخرى المختلفة في العالم، إذ تروج له الأنظمة السياسية في العالم الثالث، وغيره، وتطالب بتطبيقه، وتتناوله على أنه حقيقة مسلمة. من هنا يمكن القول بأن النظام الديمقراطي، حسب زعم فوكوياما، هو الحاكم على الفكر الإنساني. بالاضافة الى ذلك، يدعي هؤلاء أن الديمقراطية قامت بتطوير الفكر والانتقال به الى مستويات أفضل[1]. هذه اشارة لاحدى الدراسات التي تنبأت بنهاية التاريخ الذي سوف يكون، بنظر صاحب هذه الدراسة، لصالح الديمقراطية، لكنها ديمقراطية الغرب. وقد عمم فوكوياما المعادلات التي ذكرها في دراسته وأضفى عليها صفة الاطلاق، دون أن يدعمها بدليل علمي وفلسفي، واكتفى بمساحة من التأملات السياسية التي حولت دراسته الى دراسة سياسية أكثر من كونها نظرية للتاريخ.

لقد تعددت الدراسات المستقبلية، وابتكرت لها مناهج مختلفة تتناول بموجبها موضوع المستقبل، كالمنهج التغييري، أو المنهج النظري. كما قدمت أساليب متعددة كالأسلوب الذي ينطلق من الموقف الراهن ليسقطه على المستقبل، وهذا ما يسمى بالمقاربة الاستكشافية. ومنها الأسلوب المعياري، أو

---

(١) مجلة الثقافة العالمية: العدد ٨٥، ١٩٩٧م.

الاستهدافي، وبعض تلك الأساليب أخذ يدمج بين الأسلوبين الاستكشافي والمعياري. أما الأمريكيون فقد تبنوا أسلوب مد الماضي في المستقبل وتشكيله في إطار تكنولوجي.(١)

كل هذه الأنماط تستدعي حشد الطاقات الفكرية والعلمية للبحث عن رؤية منهجية جديدة للتعامل مع المستقبل، يحقق المجتمع الإنساني من خلالها مستقبلاً أفضل تسوده العدالة والسعادة، وصولاً الى المستقبل النهائي الذي حدده الله تعالى للبشر أجمعين.

---

(١) مجلة علوم وتكنولوجيا، العدد ٥٧، اغسطس آب ١٩٩٨.

الباب الثاني

معالم ومنطلقات تأسيسيّة

الفصل الأول

البيئة والإنسان
الاتجاه الفردي، الاتجاه الاجتماعي، الموقف الاسلامي

سلطنا الضوء في هذا الفصل وما بعده من بحوث هذا الباب على ثلاث نقاط فكرية بعدد فصوله الثلاث من شأنها أن تعطي رؤية لبعض الثوابت التي ينطلق منها المفكر المستقبلي حين يستشرف المستقبل.

البيئة والإنسان

من هو الصانع للتاريخ الفرد أم الأمة؟ أم الظرف الاجتماعي؟ أم العمل السياسي؟ أم هناك حقيقة إجتماعية تتمتع بالصارمية والقانونية، لا يتخلف فيها المعلول عن علته، أي أن حدث التاريخ حتمي الوقوع لتوفر علته السابقة عليه، ولا تدخل الإرادة حينئذ لتحول دون وقوع الحدث التأريخي؟ فالفرد نتاج المجتمع؛ فإن لم ينهض هذا الفرد فسوف تولد لنا المرحلة التأريخية إنساناً آخر ينتج لنا الحدث التاريخي وهناك إتجاه يؤمن بالحتمية الإجتماعية وإن الفرد لا يملك أي إختيار أزاء تلك الحتمية.

الإتجاه الفردي

هناك إتجاهاً آخر يذهب إلىٰ القول بأصالة الفرد، وأن العلاقة بين الفرد والمجتمع ما هي إلاّ علاقة إعتبارية؛ الفرد هو المقدم، وهو الصانع للتاريخ، وهو الحقيقة في الحياة والوجود، من هنا فأن المجتمع ليس له وجود والسبب يعود من كون الفرد هو الذي يوجد المجتمع، وعليه فان ظاهرة المجتمع جاءت نتاج إرادة الأفراد؛ إذ لولا إرادة هذا الفرد، وذاك الفرد وميلهم الواحد للآخر، لما وجد المجتمع، لأنه ينحل إلىٰ إرادات متعددة، ولذا نجد الافراد إذا قرروا العيش كافراد يبقى المجتمع بلا وجود حقيقي في الخارج، ومن حقّنا أن نقول ليس هناك شيء في الخارج إسمه المجتمع وانما الموجود في الخارج هم الأفراد فقط.

اذن الاصل والاولوية للفرد لا للمجتمع[1]، وبناء علىٰ هذا القول لا يمكن التوصل إلىٰ وجود قوانين أو سنن إجتماعية يعتمدها الإنسان في التخطيط الإجتماعي أي لا وجود لقوانين اجتماعية عليا يخضع لها الفرد.

والتفكير المستقبلي الذي نريده لابد أن ينطلق من الثابت الفردي لا الاجتماعي.

الاتجاه الاجتماعي

يؤمن هذا الأتجاه علىٰ أن الفرد لا يملك مشاعر وارادة فردية وإختياراً لكي يخطط لنفسه قبال المجتمع لأنه يعيش في المجتمع ولا يوجد عنده شيء

---

(١) راجع المجتمع والتاريخ لليزدي ص ٤٧ والمجتمع والتاريخ للشيخ مطهري ص ٣٤ وانظر (توماس هوبز)
Thomas Hobbs: De homin _ man and Gitizen. Garden city, Y: Anch,r books: n n.1972

مستقل عن المجتمع، وأما مشاعره وإرادته وسلوكه فما هي إلاّ حصيلة المجتمع، لا حصيلة الفرد، فهذا الاتجاه يذهب الى أصالة المجتمع أما نظرته للفرد فيراها اعتبارية وان الفرد وطاقاته تابع للمجتمع، لإنه عندما يولد الفرد يجد نفسه مسبوقاً بالمجتمع، والعادات، والتقاليد، والثقافة، والدين، فالفرد لا يمكنه الغاء هذا البناء كما لا يمكنه أيضاً العيش بدون هذا المجتمع الذي تبنى هذه القيم(١).

اذن هناك نسيج إجتماعي من الأفكار والقيم متشابك ومنتظم، لكنه مسلط علىٰ الفرد ويملي عليه الارادة الاجتماعية، والانسان الفرد لا يملك الحرية في التأثير علىٰ المجتمع والأكثر من ذلك ليس بمقدوره التخطيط لنفسه بمعزل عن المجتمع، لان الفرد كل ما أوتي من قوة فهي من نتاج المجتمع، وهي من صناعة ذلك المجتمع، ولولا المجتمع لما كان لهذا الفرد تلك القوة، فالفرد الألماني يشعر بنزعة التفوق الجنسي علىٰ غيره من الأجناس بفعل التقدم الذي أحرزه الألمان في حروبهم العسكرية، كما يشعر الفرد الذي ينتمي لقبيلة ليس لها أمجاد ينظر لنفسه بأنه إنسان محتقر، لاحظ شعور الفرد بتبعيته للمجتمع سوف تجدها في كل شيء حتى في أسماء الأشخاص ولنا أن نسأل ما هي الحاجة لان نسمي هذا محمد وذاك علي؟ لا شك ان تلك الحاجة ترجع لمأثور اجتماعي أكثر من كونه مأثور فردي لأن الفرد فى وسط المجتمع يبحث عن هوية ولا يحصل عليها إلا بوجود المجتمع والاسم تعبير عن هذه الحاجة ثم لاحظ الأهم من ذلك حيث تجد الطاقات الفردية لا تبرز بدون التحفيز الاجتماعي، فالانسان

---

(١) (دوركهايم) من العلماء الذي يعتبرون العامل الإجتماعي هو العامل الوحيد لتكامل الاخلاق.

الفرد بدون المجتمع يتحول إلىٰ كتلة جامدة لا معنى لها والّا كيف نفهم هـذا الفرد شجاع وهذا الفرد كريم وذاك الفرد متواضع.

كل هذه الامور الأخلاقية أو السلوكية كان السبب في بروزها وتأصيلها في نفس الانسان الفرد هو المجتمع، فأننا لو تخيلنا إنساناً في غابة يعيش وحده فلا يمكننا القول إنه صاحب نظريات في علم الإجتماع، أو أنه قائد سياسي محنك أو رجل إقتصادي لأن هذه الامور يركزها المجتمع في نفس الإنسان الفرد وعلماء الاجتماع فلسفوا علاقة الفرد بالمجتمع فقالوا إن للأنسان علاقات متبادلة مع المجتمع تفرضها الحاجات الغريزية والطاقات العقلية والنفسية المودعة في نفس الفرد وبواسطة تلك العلاقات تتحق الحاجات النفسية والغريزية والعقلية(١).

ولهذه العلاقات أثار صارمة علىٰ حياة الفرد فهي التي تصوغ الفرد بالقالب الإجتماعي.

كما أن المجتمع هو الذي يبرز هوية الفرد ولولا المجتمع لبقي الفرد حالة مبهمة لا يعرف من طاقاته شيء.

اذن فالمجتمع هو السبب في ظهور الطاقات والأبداعات الفردية والمجتمع هو الذي يساهم في تطويرها.

ويوظف هذا الاتجاه ما أنتجته العلوم الحديثة مثل علم الوراثة، والبيئة علىٰ تقدير كون الانسان يولد وهو حامل بداخله إرث الماضي، الذي حصل عليه من أبويه لأنه لا يولد عاري، الأمر الذي يؤكد لنا تبعية الفرد للمجتمع لا العكس.

---

(١) عناصر تشكيل المجتمع الدكتور محسن الخليجي: مجلة التوحيد العدد ٧٧.

ولم يقتصر تأثير الوراثة على المظهر الخارجي للإنسان، بل يتعداه إلى تركيب الإنسان الداخلي، الجانب البايلوجي، وهذا الإختلاف البايلوجي مثل حجم الأعضاء والأجهزة الجسمية الباطنية لها تأثيرها وانعكاساتها النفسية على الإبن فيما لو ورث من أبوية حجم تلك الأعضاء والتجاويف الداخلية، ثم يدخل عامل الطبيعة الجغرافية كأحد عوامل البيئة التي لا يختلف عن سابقه في التأثير على محتوى الإنسان من حيث الشكل واللون والنفس.

وبناء على كل الذي سبق ذكره يمكن القول بأن الفرد أسير البيئة مرة والمجتمع أخرى، ولا يمكنه التحرر من قيود البيئة فهو محكوم على أي حال بالمعادلة الاجتماعية، ومحبوس داخل قبضة المجتمع أو البيئة بمختلف صورها، كالثقافة، واللغة، والكتابة، والدين، والمناخ والموقع الجغرافي والبيئة البايلوجية. وأذا آمنا من أن الاصالة للمجتمع لا للفرد فينبغي أن تكون نظرياتنا وحساباتنا ومخططاتنا المستقبلية تتكأ على ثابت الذي يعني على أساس هذه النظرية هو المجتمع لا الفرد.

الموقف الإسلامي

أما ما هو الرد الإسلامي أو الموقف الإسلامي من هذا التفسير الذي يبدو أنه قد جعل للفرد علاقة واحدة فقط هي علاقته مع المجتمع، وهي التي تتحكم فيه وفي مسيرته، وتطوره، ولا يمكنه الوقوف أمامها؟

والجواب ان الفرد له علاقتان أو نوعان من الحاجة أو بإستطاعتنا القول أن الفرد مصمم ضمن خاصيتين.

الأولى: تكوينية لها الأصالة والبقاء والأولوية.

والثانية: جعلية مرتبة على الأولى ومجعولة من قبلها ومتأثرة بها.

فأما الأولى فهي التي تتمتع بالثبات وعدم التغيير المتمثلة في العنصر الثابت في الإنسان، وهو ما يسمى بالفطريات، الحرية، والإرادة، والإختيار، والوعي، وهذا العنصر ـ التكويني ـ بمفرداته يتصف كما قلنا بالثبات فليس بمقدور المجتمع أن يهضمه، أو يفتته حسب إرادته، ويلغي هذا العنصر الثابت لأنه قد تمتع بالثبات وعدم طرو التبدل والتغيير على حالته، وقد أشارت الآية الكريمة التالية الى محتوى الإنسان الداخلي ومفرداته التركيبية التي أهّلته الى عدم الذوبان مهما كانت التحديات، اشارت الآية الى تلك الخاصيتين سابقتي الذكر ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ ...** ﴾[1].

لاحظ كلمة (**خَلَقْنَـٰكُم**) هذه إشارة إلى الخاصية الأولى التي تمثل عنصر الثبات عنصر الخلق.

ثم لاحظ ثانياً كلمة (**وَجَعَلْنَـٰكُمْ**) هذه اشارة إلى الخاصية الثانية والتي تؤكد على الجانب العلاقاتي أي علاقة الانسان مع المجتمع فأولاً اشارت الآية الى خلقناكم ثم ثانياً الى جعلناكم فاذا كانت الخاصية الأولى قد إتصفت بالثبات فهي منتجة للعلاقة الثانية أما الخاصية الثانية فهي تتصف كونها مستجيبة ومتأثرة بالخاصية الأولى لأن الخاصية الأولى تؤسس العلاقة الثانية وتوجدها، لذا سميت مجعولة فجعلناكم شعوباً وقبائل بهدف التعارف لغرض ولعلة التعارف

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٣.

وهذا معناه علاقة الإنسان بأخية الانسان مجعولة ناشئة من الخاصية الأولى.

إذن فللإنسان نوعان من العلاقة أو قل أن محتوى الإنسان الداخلي له خاصيتين الأولىٰ وهي التي تمتاز بالثبات، والثانية التي يتكامل بها الانسان مع أخيه الانسان.

والفرد يمتلك الأرادة والعقل، وهو يتحرك نحو ما يلائمه من الظروف، ثم بإستطاعته أن يحسن ظروفه، ويختار حسب رغبته ما هو ملائم له، ثم يأخذ هذا التصميم والرغبة والطموح فعلاً مؤثراً في المجتمع.

فالعنصر الثابت يؤثر في المجتمع لأنه مترتب عليه حتى يصبح هذا التأثير في المجتمع ظاهرة إجتماعية تعبر عن ظرف إجتماعي، وتأخذ شكلاً تدريجياً وعلى هذا الأساس لا يمكن القول بأن البيئة، والوراثة، أو العلاقات المتبادلة مع المجتمع هي التي تتحكم في الفرد بشكل مطلق؛ فعلى سبيل المثال إذا كان للوراثة دور قسري علىٰ الفرد وتدخل في بنائه بشكل مطلق فآدم وحواء عليهما السلام بلا أب ولا أم؛ فالمجتمع إذاً عاجز عن إستبدال العنصر الثابت الفطري في الانسان بثابت آخر ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ... ﴾[1].

نعم هناك علاقة بين الفرد والمجتمع ولهذه العلاقة الخارجية الاجتماعية تأثير علىٰ الفرد أو قل العنصر العلاقاتي له تأثير علىٰ العنصر الثابت، لكن ما هو لون هذا التأثير؟ نعم أن المجتمع يمارس دوراً تحفيزياً وتحريضاً للفطرة ويستثيرها وبعبارة اخرى ان الجو العام إذا كان خيرا فان النفس الإنسانية تنسجم معه لأنه منسجم مع محتواها وحركتها الفطرية.

---

(١) سورة الروم الآية: ٣٠.

ثم هناك ميزة لخاصية العلاقات الأنسانية البيئية أي أن الظرف الاجتماعي يستجيب بطبيعته لتحريك الفرد لوجود الرصيد الفطري في كليهما.

ونخلص الى ما يلي من أن علاقة المجتمع مع الفرد علاقة تبادل. فمرة يأخذ المجتمع من الفرد طاقاته وابداعاته ويتأثر به من خلال العنصر الثابت، ومرة نجد المجتمع يحفز العنصر الثابت في الإنسان الفرد بسبب ما تتطلبه الظروف، ووسائل التربية المنحرفة، أو الخيرة فتتحرك الطاقة الكامنة وتنتقل من مرحلة القوة إلىٰ مرحلة الفعل.

وأخيراً تبقى مسألة قد يقول قائل ان العملية أصبحت أشبه بالدور فالمجتمع يخلقه الفرد من خلال العلاقات المتبادلة، وبايعازات الفطرة، كما نجد الفطرة يقوم بتحفيزها الواقع الاجتماعي؟ الأمر الذي يدعونا بأن نؤمن بوقوف حركة التاريخ والمجتمع وهذا ما لا يمكن أن يصدقه العقل لبديهية حركة المجتمع

والجواب أن الأمر ليس كذلك لأننا قلنا الأولوية والتقدم للعنصر الثابت، الذي لا يطرأ عليه التبدل والتغيير فهو العنصر المشترك في الإنسانية جمعاء مهما اختلف مكانها أو زمانها فالمجتمع من صنيعة الفرد حسب التفصيل الذي ذكرناه من أن النفس الإنسانية لها خاصيتين الثبات والتحرك، نعم يساهم المجتمع في تحفيز الفطرة لأإيجادها أذن هناك فرق فالمجتمع لا يصنع لنا الفطرة وانما الانسان يوجد لنا المجتمع بواسطة الفطرة ومن جهة أُخرى أن الإنسان الفرد وبواسطة الفطرة يوجد لنا المجتمع.

فاذا كان العنصر الثابت يؤثر في المجتمع من جانب ويتحفز هو وينشط

نحو الخير أو الشر بفعل تأثير المجتمع من جانب آخر، بقي أن للعنصر الثابت علاقة مع الغيب لا مع المجتمع فقط فالعامل الغيبي «الايمان بـالله» هـو الذي ينسجم مع الفطرة وتتحرك الفطرة بايعاز العنصر الرباني الخارجي، لكن ربما لا نتتهي المسألة مع هذه الحلقة ولا يكفي تعلق العنصر الثابت مـن قـبل الفـرد بالجانب الغيبي وبرسالة السماء بل تحتاج المسألة إلىٰ عـنصر رابـع ذلك هـو إدراك السنن الألهية التي تؤهل الإنسان لأن يخطط للمجتمع ولنفسه من خلالها الأمر الذي يؤهل المجتمع لأن يتولى موقعه كمغير ومصلح لهذه الحياة وينطبق بحقه كونه المستخلف في هذه الأرض وان الأُمة الإسلامية قد اختيرت لموقع الوسطية والقيمومة على المجتمعات الأُخرى على أساس هذا التصوير.

فتخلص لدينا أن هناك عناصر أربع تؤطر حـركة الانسـان فـي المـجتمع والتاريخ ليأخذ عن طريقها بناء حياته ومجتمعه ومستقبله الالهي.

الأول: العنصر الثابت التكويني.

الثاني: علاقة الإنسان بالمجتمع حسب التأثير المتبادل.

الثالث: علاقة الإنسان وارتباطه بالغيب.

الرابع: إدراك الإنسان للسنن الأجتماعية والعمل بموجبها.

فاذا إمتلك الإنسان تلك العناصر بإستطاعته العمل والتغيير لبناء المستقبل وبعكسه يبقى حبيس العلاقات المتبادلة التي يتوقف فيها المجتمع علىٰ الفرد والفرد علىٰ المجتمع ولا يمكنه الادعاء بأنه قادر على صناعة مستقبله سـوءا تبنىٰ النظرية الفردية أو النظرية الاجتماعية أو حتى الاثنين معاً فيما لو أقـصى العناصر الأُخرى سابقة الذكر من حياته.

الفصل الثاني

المجتمعات الإنسانية بين الأشتراك والاختلاف

١ ـ أصل الاشتراك في الخلق والوحدة الإنسانية.

٢ ـ مناقشة مع الرأي الآخر.

٣ ـ الاستدلال علىٰ وحدة الخلق والإنسانية من خلال القرآن الكريم.

١ ـ أصل الاشتراك في الخلق والوحدة الإنسانية

يتوقف التخطيط للمستقبل علىٰ معرفة المجتمع من جهة مساره التاريخي وعناصر الثبات والحركة فيه وهل أن المجتمعات مختلفة فيما بينها إلىٰ حد التباين الذي لا التقاء فيه؟ أي أن لكل مجتمع مسيرته وحركته التي تميزه عن باقي المجتمعات الأخرى أو أن هناك وجوه للاشتراك بين المجتمعات؟ اختلف علماء الاجتماع فيما بينهم؛ فمنهم من ذهب إلىٰ أن المجتمعات البشرية لا تشترك بقوانين اجتماعية ثابتة؛ بل أن لكل مجتمع هويته الخاصة به، وبناءً على ذلك تصبح ثقافة كل مجتمع هي المقوم له، وهي من مختصاته وحده دون غيره من المجتمعات.

وخلاصة هذا الرأي: ان تباين المجتمعات المختلفة يؤكد بأن هناك قوانين

خاصة ومؤثرة في هذا المجتمع دون ذاك.

وعليه فلا يمكن التخطيط والتعميم لهذه القوانين إلىٰ غير هذا المجتمع، أي أن لكل مجتمع ثقافته[١] وهذا يعني مرة أُخرى أن لكل مجتع مستقبله الخاص به.

٢ ـ مناقشة مع الرأي الآخر

ويؤاخذ علىٰ هذا القول الذي يذهب اليه جملة من علماء الاجتماع[٢] عدة مؤآخذات.

المؤاخذة الأُولىٰ: هي أن الثقافات والانظمة القيمية، التي هي الركن الاساس في عملية التخطيط للمستقبل قد تزلزل، وبهذا لا يمكن عقد مقارنة بين تلك النظم القيمية مع بعضها الآخر، وبمعنى آخر لا يحق لنا أن نقول مثلاً: أن النظام القيمي الذي يتبناه المجتمع (ألف) الأمريكي مثلاً افضل من النظام القيمي الذي يتبناه المجتمع (باء) الألماني؛ لأنا قلنا:بأن لكل مجتمع له ما يناسبه، ويصلحه من القيم الخاصة به وهي نتاج هذا المجتمع وتاريخه التي قد تكون سيئة لمجتمع آخر بينما نجد التبادل الثقافي والخبرات الإنسانية بين المجتمعات سمة ثابتة بين المجتمعات.

والموآخذة الثانية. التي تترتب علىٰ الرأي القائل بعدم وجود وحدة اشتراك بين المجتمعات هي: أنه كما لا يمكن لنا أن نجعل نوع الحيوان؛ كالحصان مثلاً الذي يختلف عن نوع الحيوان؛ كالطير في أطار واحد، ولا يمكن نقل بعض

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي المجتمع والتاريخ ص ١٣٤.

(٢) (آميل دوركهايم) العالم الأجتماعي الفرنسي مجلة رسالة القرآن العدد / ١ / ١٤١١.

صفات الحصان الذاتية ككونه صاهل إلىٰ الغراب الذي يتصف بالنعيق فيما نحن فيه أيضاً لا يمكن أن نقوم بعملية نقل بعض المقومات والخصوصيات من مجتمع ما؛ كالثقافة والنظام القيمي، الخاصة بالانسان والمجتمع (ألف)، إلىٰ مجتمع آخر كـ (باء)؛ لأن كل مجتمع له نظامه القيمي والثقافي، الذي أفرزه تاريخ المجتمع نفسه ومحتواه الثابت الذي تميز به عن غيره من المجتمعات. وعلىٰ فرض نقل بعض الشؤون الاجتماعية والقيمية من مجتمع لاخر، فهذا معناه أننا قد قمنا بجهد وعمل ليس لصالح هذا المجتمع الذي تم نقل ثقافة الغير إليه ومثله كالذي يريد من البلبل أن يصهل.

وبناءً على ذلك فلا يصح القول بضرورة تصميم ثقافة واحدة، ونظام قيمي واحد لكل المجتمعات. بينما نجد المساعي الثقافية ذات الصبغة العالمية أو تأثير المجتمعات بعضها بالآخر من المسلمات التي تتصف بها الحقب التاريخية في حياة الإنسان وهذا خير دليل على عدم صحة هذا القول.

والمؤاخذة الثالثة التي تترتب علىٰ هذا القول هي: أن فكرة تشكيل مجتمع عالمي موحد يتمتع بثقافة واحدة، تكون أقرب إلىٰ الخيال.

أما إذا آمنا بوجود وحدة مشتركة بين كل المجتمعات وأن هناك سنناً اجتماعية وقانين ناشئة من هذه الوحدة، والتعدد الحاصل بين المجتمعات لا يقف حائلاً أمام الإرادة الموحدة لكل المجتمعات الإنسانية فيما إذا تطلعت لمستقبل واحد ما زال الاختلاف ليس في أصل الانسان وهويته الواحدة ومقومات إنسانيته الواحدة.

ومن هنا يحق لنا أن نقارن بين الانظمة الثقافية والقيمية، ونقول: إن النظام

القيمي والثقافي، الذي يتبناه المجتمع (ألف) أفضل من النظام القيمي والثقافي الذي يتبناه المجتمع (باء) ويصح عقد الأمل على قيام مجتمع عالمي موحد يسوده نظام قيمي وثقافي واحد.

وتكون وحدة الاشتراك بين المجتمعات أساس القوانين المشتركة بين المجتمعات، ومنشأ القوانين الاخلاقية والحقوقية المشتركة أيضاً.

وأخيراً أن الايمان في اصل الانسان ومحتواه التكويني المشترك على طول التاريخ يصح على وفقه التطلع والتخطيط للمستقبل الانساني انطلاقاً من الوحدة التكوينية المشتركة كما قلنا بين الإنسانية التي تؤمن ـ بشرط التخطيط على أساسها ـ بدولة الانسان وهذا التصور حول وجوه الاشتراك في أصل الإنسانية. ووحدة الاشتراك بين المجتمعات والايمان بأن هناك سنناً اجتماعية ثابتة. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1] على مرور التاريخ التي يمكن التوصل إليها واستنباطها عن طريق القرآن الكريم انطلاقاً من وحدة خطابه، ووحدة موقفه، وتخطيطه لنهاية الانسان الذي يجمعه روح التطبع للمستقبل الواحد المنشود ـ الأمر الذي يؤكد ذلك ايمان الأديان كلها بالمنقذ آخر الزمان ـ ويمكن الأستدلال على أصل الاشتراك في الإنسانية بعدة من الآيات القرآنية.

٣ـ الاستدلال على وحدة الخلق والإنسانية من خلال القرآن الكريم

من الآيات التي يمكن الاستدلال بها على وحدة المجتمعات وأن هناك اشتراكاً في أصل الإنسانية قوله تعالى:

---

(١) سورة الفتح الآية: ٢٣.

أ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ... ﴾[1] في القرآن الكريم تُنسب أحياناً أعمال جيل معين إلىٰ الأجيال التالية، كما تنسب أعمال بني إسرائيل السابقة إلىٰ قوم معاصرين للنبي صلى الله عليه وآله فيقول عن هؤلاء القوم: إنهم إستحقوا الذلة والمسكنة لقتلهم الأنبياء بغير حق. ذلك لأن القرآن يرى أن هؤلاء امتداد لأولئك، بل أنهم نفس أولئك في منظار الروح الجماعية، وهذا المفهوم هو المقصود من مقولة «ان البشرية تتكون من الأموات أكثر من الأحياء»[2].

اذن لنرى أين وحدة الموقف في هذه الآية؟ الوحدة في الموقف والمنطلق عند اليهود تتجلى في هذه الآية ؛ حيث نجد موقف اليهود الأوائل ومعتقداتهم، وما نسبوه إلىٰ الله من أفكار ومعتقدات «يد الله مغلولة» الذي جاء بدوافع ومنطلق مصلحي، هو نفس المنطلق الذي دعاهم إلىٰ التخندق ضد الرسالة المحمدية؛ لأنها تحدي لكيانهم فاليهود الأوائل كانوا يقولون بعدم جواز نسخ التوراة، كما كانوا يقولون أيضاً بأن البداء لله لا يجوز في القضايا التكوينية، وهذه المعتقدات قدسوها؛ لأنها تحمي مصالحهم السياسية والاجتماعية؛ لان عدم النسخ لرسالتهم يعني أن رسالتهم هي الخاتمة، واليهود المعاصرون للرسالة المحمدية انطلقوا من نفس المنطلق؛ بسبب وحدة الدوافع ووحدة الأهداف، نعم الاختلاف في الأسلوب، اليهود المعاصرون للرسول يدركون جيداً خطر الرسالة المستقبلي؛ لأنهم كانوا يتمتعون بمركز ديني ومرجعاً لتفسير الأحداث

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٤.

(٢) مرتضى مطهري القسم الأول المجتمع والتاريخ ص ٢٣.

في المدينة وغيرها وكانوا يسمون بأهل الكتاب ويتباهون بالأحبار، وما يمتلكونه من علم وحكمة، وكانوا يسمون باقي الناس بالأميين، وكانوا يهددوا العرب بأن نبياً من عندهم سيخرج وينتقم لهم من أعدائهم العرب ولما جاء وعرفوا ما به وانه جاء لالغاء مصالحهم وتعاليمهم وشعورهم الاستعلائي واعتزازهم بماضيهم دفعهم إلىٰ الموقف المعادي دون الموقف المناصر للرسالة، فكان منطقهم «يد الله مغلولة»، وان كان مورد هذا المنطق هو الرزق إلاّ أن المنطلق واحد، والآن موقفهم من الرسول ورسالته كان عملياً قد ترجم الموقف السابق وتحمس له بالفعل؛ لأنه لا خيار لهم أما الذوبان في الرسالة والتنازل عن معتقداتهم، أو التزام الموقف العدائي من الرسالة ولا بد أن يختاروا الأخير، فالذي يتجرأ حتى علىٰ ساحة الله المقدسة فيقول: «يد الله مغلولة»، فنفس الدافع السابق الناشئ من الروح اليهودية الخبيثة يزيده الآن تخندقاً، وتحدياً للرسالة، وتمادياً عليها أكثر تشدداً من سابقه لأنه من سنخه ومتمّماً له قال تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

هذه الوحدة، والاشتراك في المنطق اليهودي الذي دفع بالمتأخرين منهم أن يقفوا الموقف الاكثر طغياناً وكفراً أزاء الرسالة من المتقدمين، يؤكد مرة أخرى بأن الخطر المستقبلي الذي تكنه النفس الإنسانية، صاحبة المنطق اليهودي إزاء التحديات التي يخطط لها أتباع الرسالة المحمدية، وانطلاقاً من وحدة الاشتراك في أصل الإنسانية وما ينبغي الحذر منه لوجود إحتمال تكرر الموقف بأسلوب آخر لأن الذات اليهودية واحدة أين ما كانت.

---

(١) الاسراء الآية ٨٢

٢ ـ ومن الآيات التي تدل على وحدة الاشتراك بين الإنسانية ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...﴾[١].

فمن قصد الإنسانية التي في الواحد منهم فقد قصد الإنسانية التي في الجميع كالماء إذا وزع بين أواني كثيرة فمن شرب من أحد الانية فقد شرب الماء وقصد الماء من حيث إنه ماء، وما في جميع الآنية لا يزيد على الماء من حيث إنه ماء فكأنه شرب الجميع، والكلام نفسه في إحياء الناس جميعاً[٢] قتل الناس، فماذا يعني القتل؟ ليس هو قتل كل هياكلهم اللحمية، وانما قتل لما في قلوب الناس من حب للخير والتعاطف معه فهو قتل للصورة السامية في النفوس اين ما وجدت بغض النظر عن موقعها الزماني أو المكاني. فقتل الانسان ظلماً كونه يمثل طريق الحق معناه قتل للصورة الماثلة الموجودة في كل نفس برها وفاجرها.

اذن الجريمة تريد إلغاء الخير، وفناءه، وإستأصاله أينما وجد، والخير موضوعه القلوب لا في الأرض ولا في السماء، فقتل مشاعر الحب والخير والعدل الموزع في النفوس كلها، معناه قتل لهم كلهم، ولأن الخير حياة لهم، وهم أموات بلا خير ولا محبة ولا عدل وإذا كانت المجتمعات مختلفة ولا اشتراك بينها فيكون الخير عند هذا المجتمع شراً عند مجتمع آخر ولا معنى لهذا النعيم سوى وحدة الاشتراك بين بني الإنسان.

هذه نقطة الاشتراك في الإنسانية التي ينظر إليها القرآن وكيف تكشف عن

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٢.

(٢) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي الجزء / ٦ / ص ٣١٧.

قيمة الخطوة السيئة وأثرها على المستقبل، كما تكشف من جانب قيمة الخطوة الحسنة وأثرها على الإنسانية سواء، وحياة نفس واحدة تعبر عن رسالة حياة إلى الناس جميعاً لأنها تحمل بشرى ورسالة حب للناس جميعاً، إنها تحريك للقلوب عامة اين ما حلّت؛ لأن الخير حتى لو وجد كمفردة واحدة معناه قد خاطب الجميع وميز بين سلوكين وبناءً على ذلك يصبح لدينا فئتان بل يصح لنا أن نقسم المجتمع الواحد الى قسمين انطلاقاً من معيار واحد مشترك مع القسمين فامة تمثل الحق، وأخرى تمثل الشر، حتى لو كانت فئة الخير شخص واحد.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ **قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] الآية تشير الى لونين من العلاقة الأولى ما يطلق عليها بالتواصل الحضاري في مسار الأمم والتي تتصف بالعطاء والأخذ الفعلي الآلي والمحسوس عن طريق الأخذ المباشر بين أُمة وأُخرى، واللون الثاني من العلاقة الذي أشارت إليه الآية لا يشترط فيه التعاصر بين الأمم و لا توجد علاقة أخذ وعطاء فعلي ألي ومحسوس ومباشر فحسب، في الحياة الدنيا بين تلك الأُمم، فقد لا يوجد تعاصر بين بعض الأمم ولا المجاورة ولا الاتصال؛ حسبما نلاحظه من خلال الآية التي تنقل لنا الحوار بين الأمم السابقة القديمة (**قد خلت**) بمعنى التي قد انتهت.

وقع حوار بين الأمم المتعاقبة في داخل النار وهذا دليل على أن هناك مقابلة بين تلك الأُمم إلاّ أنها من جنس واحد أمم الكفر من الجن والإنس[2]، ولكن

---

(١) سورة الاعراف الآية ٣٨.

(٢) الميزان الجزء ٨ / ١١٤.

الآية تشير من جانب إلىٰ وجود علاقة بين هذه الأمم (أختها) لا بد من وجود حالة مشتركة بينهما، تعترف الأمة اللاحقة بوجود هذه العلاقة إنها علاقة التبعية، والتبني لحضارة الأسياد السابقين.

(لعنتها) ما هذه العلاقة؟ وما هذا اللعن؟ الأمة المتأخرة تنحى باللائمة علىٰ الأمة المتقدمة، وتشتكي عليها في المحضر الالهي، شكوى قد تكون لا مبرر لها، وباستطاعة الأمة السابقة أن تتبرأ من هذه الدعوى، وهذا الاتهام؛ وذلك لوجود البعد الزمني، وعدم التماس المباشر بين الامتين في الحياة الدنيا.

لكن الأمة اللاحقة تعبر عن ندمها بسبب سوء اختيارها كونها قد قلدت تلك الأمم السابقة.

يمكن لنا أن نعلل هذا الندم الكاشف عنه اللعن الواحدة للأخرى فلابد من إرجاعه إلىٰ طبيعة العلاقة التي اسستها الأمة السابقة كونها قد خططت لما بعدها من الأجيال وأحكمتها بقوانين من شأنها أن تكون تلك الأجيال تبعاً لها في الفكر، أي هناك منهج تضليلي، كالذي تمارسه أميركا الآن مع الشعوب المستضعفة، ومع شعوبها ليجعل من الأمة والجيل الذي بعدها تبعاً لها؛ وبالتالي تأمن خطورته أو اختياراته الحضارية الغير ملائمة لاختيارات الحاكمين أو أن الأمة اللاحقة لا تأخذ بالمباشرة وإنّما تأخذ وتلتقط الأفكار ولو على مستوى المنهج وهذا لا يشترط به أن تكون التبعية بالمباشرة وإنّما قد تأخذ الأمة المعاصرة فكرها من أمة قديمة قبل آلاف السنين ويضاف من أن الأمة اللاحقة التابعة تعي وتعلم بهذا التضليل وتشعر به؛ لأنها كانت مستجيبة لهذه التبعية ومستجيبة لهذا الشكل من العلاقة.

لاحظ النص القراني كيف ينقل لنا حوار الأمة السابقة وحوارها مع الأمة اللاحقة، فتقول انكم في الضلالة والموقف، ومن المضالم والاختيارات

المنحرفة الضالة كان هو الرضا، والتأييد والطاعة، إنكم لم تعترضوا علىٰ قولنا ولا علىٰ اهدافنا فأين هو الفرق بيننا وبينكم؟ نحن اسسنا، وأنتم رضيتم فالأطار واحد، والمنهج واحد، والرضا واحد، لم نر منكم الاستنكار، لهذا جاء في ذيل الآية ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّاتَعْلَمُونَ﴾ أي أن الأمة اللاحقة وليد شرعي، قد ترعرع وتربى برعاية الآباء. سواء بالتبني المباشر أو بالتماس عن طريق المنهج والافكار.

ثم تكشف الآية عن وجود روح وصفات مشتركة بين جميع تلك الأمم، حيث كان موقفهم واحداً خلال فترات زمنية متباعدة، ثم كان كلامهم وتعبيرهم قد صاغه القرآن بجملة واحدة، وبهذا يقدم القرآن للمؤمن حقيقة تاريخية بين يديه لتكون درساً يضعها بنظر الاعتبار في حياته ورسالته.

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1].

موقف الأمم السابقة من الرسالات واحد؛ لأن الانسان واحد، لذا كان الخطاب الالهي للأمم السابقة واحد، اسأل، ولاحظ أصحاب التجربة الالهية من قبلك، ستجد المعاناة التي تعرضوا لها هي نفس المعاناة التي تتعرض لها أنت يا محمدﷺ الآن قد تستغرب التحديات التي تواجهك وسوف تجد كلمة الله هي واحدة وسنته واحدة إزاء المعاندين الذين يتكررون في مواقفهم كل يوم وفي المستقبل، فعليه ينبغي الثبات والمواصلة على الطريق من أجل رسم المستقبل الأفضل.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2] البلد الطيب، الأمة الطيبة،

---

(١) سورة يونس الآية ٩٤.

(٢) سورة الاعراف الآية ٥٨.

التي يسود العدل علاقاتها الاجتماعية، سوف يكون لها عطاء على أفراد هـذا البلد، من محبة ووئام، كالفرد الصالح عندما يكون له عطاء لأسرته ومـجتمعه (يخرج نباته بأذن ربه) صفة الخير صفة العمل الصالح بأنه عطاء قانوني الخير يولد الخير السنبلة تنتج سبعة سنابل، الله قد نسب المعطيات الطيبة لنفسه لان الله محض الوجود، ومحض الخير، ولا خير في الوجود إلاّ له ومنسوب اليه لقد وصف الله العطاء للبلدين البلد الطيب والبلد الخـبيث مشـبه له بـالنبات؛ لأن النبات يتكاثر، ويـعطي ويـنتج وله آثـار مـضاعفة، وهـذا يـعني أن العـلاقات الاجتماعية تكون ذات عطاء مـضاعف إذا كـانت قـائمة عـلى اسـاس العـدل والمساوات، اما البلد الذي يسوده الظلم، فهذا البلد لا عطاء فيه، ولا خير فيه، مثل النبات الذي لا يثمر، أو فيه ثمر لكن ثمره فاسد لا فائدة فيه.

هذه السنة التي تشير إليها الآية، وهذا الترابط في العطاء أي بأن النتيجة من سنخ السلوك الذي خطه ذلك المجتمع، هذه السنة تؤكد وحدة الاشتراك بين الأمم، ما زال أثار البلد الصالح أمة صالحة، أمة طيبة، صاحبة عطاء طيب، ليس فيه ملل ولا انقطاع، عطاء ثري، هذه السنة يستطيع الانسـان الاعـتماد عـليها، وتوظيفها بإرادته، وحريته، في أن يتمكن من انتاج أمة صالحة تقتني آثار الأمة الخيرة، اذن فبوحدة الاشتراك بين الأمم ونسبة التأثير نكون قد ضمنا المستقبل الذي ننشده.

٦ ـ وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

الآية تعالج الانحراف الفكري والعقائدي الذي من المحتمل أن تتعرض له

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

الرسالة الاسلامية، كما تعرضت له الرسالات الالهية من قبل إلىٰ التحريف؛ كالتوراة، والانجيل، وتولي الأحبار والرهبان علىٰ أنهم الورثة الشرعيين للرسالة الالهية، الآية توقي الرسالة من الانحراف المحتمل، الذي قد يجيء بعوامل سياسية أو اقتصادية أو فكرية، فتصاب الرسالة الاسلامية بفعل تلك العوامل، كما أصيبت الرسالات من قبل فمستها يد التحريف فأدى إلىٰ أندثارها؛ لذا خاطب القرآن الكريم الرسولﷺ ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، هذا الاسلوب التبليغي للخليفة من بعده يكشف عن مخطط منهجي يحافظ عليك من أثر المؤامرات التي تريد أن تجعل من الرسالة أداة موظفة لمصلحة السلاطين من بعدك.

وتقريب الاستدلال: أن النفس الإنسانية التي دفعت بالاحبار والرهبان أن يحرفوا الكتب ويوظفونها لصالح الأهداف الدنيوية ويجعلونها رسالة سلطان، لا رسالة الله سبحانه، وما نحن فيه نرى أن النفس الإنسانية هي النفس واحدة في كل جيل ومن المؤكد سوف تدفع بالقائمين علىٰ الرسالة من بعدك يا رسول الله فيحرفونها؛ تعباً لمصالحهم، لذا يجب سد الطريق عليهم عن طريق تعيين الخليفة من بعدك [1] ؟ لكي يعصمك من التحريف والمؤامرات التي لولا هذا الاسلوب الالهي الذي يعصم الرسالة بعليعليه السلام من التحريف، لاصابها ما أصاب الكتب السماوية الاخرى.

وهذا يعني أن حركة النفس والمجتمع واحدة يجمعها مشترك واحد يتصف بالثبات الأمر الذي يدعونا أن نتفحص حركة الأجيال في التاريخ لغرض الاعتبار.

وننطلق في التخطيط للمستقبل العالمي وفق هذا التصوير.

---

(١) وخط العصمة بعد النبي في الرسالة الإسلامية مستمر، فإذا كان النبيﷺ يبلغ الرسالة فيأتي دور الإمام بحجته الالهية يتولى تطبيق ما جاء به النبي وهو الهادي للأمة بعده وسيأتي تفصيل ذلك في البحوث اللاحقة من هذا الكتاب.

الفصل الثالث

توظيف السنن الاجتماعية لمستقبل الانسان

١ ـ كيفية توظيف السنن لصالح المستقبل.
٢ ـ الطغاة وتوظيف السنن الاجتماعية.
٣ ـ موقف الطغاة أمام ظاهرة الرسل.
٤ ـ المؤمنون وتوظيف السنن الاجتماعية.

الدافع الفطري هو أحد العوامل التي تدفع الانسان إلى التطلع نحو معرفة الحقائق ذات الصلة بمستقبله، ثم رغبه الانسان في الوصول إلى المنافع، والمصالح، والأمن من الضرر والأخطار والتحديات التي يتوقعها، تشكل الدافع الثاني لضرورة الاحاطة بالمستقبل والتخطيط له بما ينسجم مع مصالحه.

من هنا يكون البحث عن المعلومات والأفكار والمواقف، وتحصيلها لغرض تكوين رؤية واضحة نحو المستقبل، يتمكن بواسطتها التأمين لحياة ومستقبل أفضل.

كان الانسان مسؤولاً عن عمله؛ بحكم الإرادة والحرية، التي يتمتع بها دون غيره من المخلوقات، بالاضافة إلى كونه مخلوقاً يسعى بطبيعته إلى الكمال، ولا يرضى لنفسه النقص، والانسان المسلم محوره الله، وهدفه النهائي التقرب اليه سبحانه، وهناك أهداف أخرى في طول ذلك الهدف الكبير، والتي منها، التعبد اليه عزوجل في انجاز الأعمال الحياتية، وقد وفر الله سبحانه وسائل وطرق،

وأساليب، تتكفل بوصول الانسان إلىٰ هدفه الاعلىٰ، بشرط تفاعل الانسان معها، ومن تلك الوسائل التي اراد الله تعالى أن يتقرب الانسان بواسطتها اليه سبحانه، هي هدايته بواسطة الانبياء وأطروحاتهم السماوية، والأسلوب الالهي الآخر: هو تعرض هذا الانسان للابتلاء والامتحان ليشكل التمحيص أداة تربوية، ودرساً حياتياً، يأخذ بالانسان في أن يختار الطريق الأنسب لمستقبله.

اذن هناك طريقان إلهيان لترشيد الانسان والآخذ به إلىٰ المستقبل وهما: هداية الانسان عن طريق دعوات الرسل والأنبياء(عليهم السلام) وأتباعهم، والطريق الآخر هو مرور الانسان بظروف شديدة، قاسية؛ تأتي جراء اختياره، لغرض تربيته، ليكون بالمستوى اللائق لحمل الأمانة، واداء دور الخلافة، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1]؛ تأكيداً للحكمة من هذا الأسلوب الالهي الذي لا يفلت منه أحد، وبهذا يشكل الأسلوبان معاً عاملاً يدفع بالانسان، ويحرضه نحو التفكير بالمستقبل، ويجره نحو أهمية تحقيقه طبعاً بحكم الارادة والاختيار.

والمهم لدينا هنا هو أن نبين الطرق الاخرى التي تتيح للانسان أن يستغلها لصالح مستقبله، بحكم الاختيار الحسن لتلك الأساليب والطرق.

وقد أشرنا في الفصل الأوّل من هذا الباب الى العناصر المؤثرة في حركة المجتمع والتاريخ والتي كان منها السنن الحاكمة فيه ودور الارادة الإنسانية في هذا المجال وفيما يلي سنتحدث بالتفصيل حول هذا الموضوع.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٠ ـ ١٤٢.

١ ـ كيفية توظيف السنن لصالح المستقبل

وقبل الدخول في كيفية استخدام السنة الالهية لاغراض المستقبل وأهداف الانسان الكبرى لا بد من توضيح معنى السنة في القرآن الكريم.

لقد أشار القرآن الكريم إلىٰ وجود السنن التي تقود حركة الاحداث، فقد جاء في معنى كلمة السنة في اللغة العربية علىٰ أنها المسلك والطريقة والاسلوب الذي يتصف بالاستمرار(١)، وهذا المعنى هو الذي استعمله القرآن الكريم.

وعندما استعملها القرآن أطلقها علىٰ الضوابط العلية السائدة في الأفعال الالهية، التي يستخدمها الله تعالى في تدبير وادارة أمور العالم والانسان(٢).

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾(٣).

لكن ينبغي التفريق بين القانون والسنة، فالقانون غير السنة لأن معناه: قابلية الحدث للتكرار، مثل القوانين الفيزيائية؛ كقانون تمدد الحديد بالحرارة، فالحدث يتكرر نتيجة لتكرار السبب، والظروف، مع عدم الارتباط بأي نحو من الأنحاء بالارادة والوعي، بل هو تكرار وفق مسار مستقيم، لكنه غير واعي .

أما السنة فهي: تعني وجود وعي يكون هو السبب لتلك القاطعية، في تحقق الحدث والظاهرة الاجتماعية، والفارق الآخر أن السنة قابلة للتفكيك لأنها محكومة بالوعي والارادة.

وقد بين السيد الشهيد محمد باقر الصدر(قدس سره) معنى السنة الاجتماعية، وكيفية توظيفها لصالح مستقبل الانسان، بحكم الارادة التي

---

(١) المنجد في اللغة والاعلام ص ٣٥٣ و ٢ ـ سنَّ.

(٢) مصباح اليزدي: المجتمع والتاريخ ص ٤٤٩.

(٣) سورة الاحزاب الآية: ٣٨.

يمتلكها، وكون الظاهرة الاجتماعية تحركها العلة الغائية، لا السببية فقط؛ أي أن الظاهرة الاجتماعية لم تكن نتاج الماضي فحسب، بل هي نتاج تطلع الانسان إلىٰ المستقبل أيضاً؛ أي الوعي يدخل كعامل يحضر كتصور ونوايا في ذهنه؛ ليكون محركاً للفعل الانساني، نحو ذلك الطموح؛ حيث قال: إن الانسان هو الاساس لحركة التاريخ، وحركة التاريخ تتميز عن سائر الحركات الاخرى بأنها غائية، لا سببية فقط، ليست مشدودة إلىٰ سببها، إلىٰ ماضيها فحسب، بل مشدودة أيضاً للغاية؛ لأنها حركة هادفة ذات علة غائية متطلعة إلىٰ المستقبل.

المستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التاريخية والمستقبل معدوم فعلاً، وانما يتحرك من خلال الوجود الذهني ـ اذن ـ هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التاريخ.

إذاً فالوجود الذهني يجسد جانباً فكرياً، وهو الجانب الذي يضم تصورات الهدف، ويمثل من جانب الطاقة والارادة التي تحفز الانسان نحو هذا الهدف.

وبالامتزاج بين الفكر والارادة تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي علىٰ الساحة الاجتماعية.

هذان الامران: الفكر والارادة، هما في الحقيقة المحتوى الشعوري للأنسان ـ المحتوى الداخلي للانسان ـ اذن، هو الذي يصنع هذه الغايات، ويجسد هذه الأهداف من خلال مزجه بين فكرة وارادة[1].

فاذا كان المحتوى الداخلي، الفكر والارادة هو الذي يصنع المستقبل اذن فمن الذي يحرك ويصنع المحتوى الداخلي نفسه؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال يصبح بين أيدينا ثلاثة أمور:

---

(١) راجع المدرسة القرآنية، الدرس العاشر.

الأمر الأول: هو الظاهرة الاجتماعية (مستقبل الانسان).

الأمر الثاني: المحتوى الداخلي للانسان الذي يصنع المستقبل؛ أي التطلع الذهني الغائي، الارادة والفكر.

الأمر الثالث: من الذي يجسد الارادة والفكر ويحفزها باتجاه المستقبل؟ الجواب أن الذي يحرك المحتوى الداخلي للإنسان هو المثل الاعلىٰ الذي يتبناه الانسان وبتعبير آخر العقيدة والإله الذي يحرك بوعي نحو المستقبل (فكل جماعه إختارت مثلها الاعلىٰ فهي بالحقيقة قد إختارت طريقها ومستقبلها).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(١).

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(٣).

من هنا تدخل الارادة والتصميم لرسم المستقبل المستقبل ونعمه، وخيراته، وهدايته تتحقق بحكم الارادة والوعي المسبق، ونفس السنة تتحقق إذا اختار الانسان بوعيه هدفاً معاكساً لذلك الهدف: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَانَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾(٤).

وما زال هناك سنن يدخل فيها وعي الانسان وارادته ويوظفها هنا وهناك بلا تمييز في ما إذا كان هذا الانسان الذي يسعى لرسم مستقبله مؤمناً كان أو

---

(١) سورة الشورى الآية: ٢٠.

(٢) سورة مريم الآية: ٧٦.

(٣) سورة المائدة الآية : ٦٦.

(٤) سورة الاسراء الآية: ١٨. راجع المدرسة القرآنية الدرس العاشر ومابعده.

كافراً؛ لذا نجد أن الطرق والوسائل الالهية أو قل السنن الاجتماعية قد استخدمها الطغاة والمؤمنون على حد سواء، لكن كل حسب هدفه، ومنهجه في الحياة.

وسوف نتناول في هذا البحث نموذجين من ذلك الاستخدام:

الأول: دور الطغاة في استخدام بعض السنن الحياتية؛ توظيفاً لمصالحهم.

الثاني: تعامل المؤمنين مع سنن الحياة؛ توظيفاً لأغراضهم الالهية.

٢ ـ الطغاة وتوظيف السنن الاجتماعية

لقد أدرك الطغاة سنن الحياة، واستخدموها بذكاء ضد الشعوب لصالح أغراضهم، وسوف نتناول بعض أساليبهم في استخدام تلك السنن.

الاسلوب الأول

لقد كانت اساليب الطغاة وكما هو غريب موحدة، والسر في ذلك يرجع إلى كون هدفهم واحداً لقد وضعوا سقفاً محدوداً لتطلع شعوبهم، لا يجوز لأحد تجاوز هذا السقف المحدود ـ ولأجل أن يكون المستقبل هو الحاضر، وضعوا الناس في أطار تفكيرهم؛ لكي لا تسعى الأُمة إلى مثل أعلى، ينقلها من الحاضر إلى المستقبل ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾[1]، لقد ركزوا على ظاهرة تقليد الاباء، والرجوع للقديم، وان كان منشأ هذا الرجوع للماضي هو الاستئناس والألفة على حد قول السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، إلاّ أنه يمكن القول: بأن الرجوع للماضي له عامل آخر، وهو دعم السلاطين، وتأييدهم لهذا الشعور، وبلورته، وتنظيمه؛ لأن الرجوع للماضي يؤدي إلى أن يكون المجتمع المقبل

---

(١) سورة غافر الآية ٢٩.

تكراراً للماضي، لأن التخلي عن فكر الأجداد وتجاوز الحاضر، الذي سيطروا عليه، يجدون في هذا التخلي عن فكر الماضي هزاً لمواقعهم؛ لهذا حاول الطغاة أن يحصروا الناس في أطار تفكيرهم، نجد كثيراً من الآيات القرآنية قد أشارت إلىٰ هذه الظاهرة التاريخية، ودور الطغاة في بلورتها بشكل مفصل، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾(١).

اعتراف صريح لاغموض فيه، أن الذي يدعوهم إلىٰ الوقوف بوجه الدعوة الجديدة هو مخافة انتزاع السلطة من أيديهم وإعطاءها لرجال الدعوة الجديدة «وتكون لكما الكبرياء في الأرض»، إنكم تريدون تغيير عادات البلاد، وطاعة الشعوب للطغاة؛ لتلفتنا عما وجدنا عليه أباءنا من النظام الاجتماعي؛ إن دعوة الرسل تستلزم إلغاء التركيبية الاجتماعية السائدة، وتوفير القناعات لأبناء البلد لأن ينفتحوا علىٰ المستقبل الأفضل لهم، المنتفعون وسادتهم لا يرتضون ذلك التطلع المستقبلي ؛ لأنه سيؤدي إلىٰ بناء مجتمع آخر غير المجتمع الحاضر.

هناك تلازم يعمل علىٰ أساسه الطغاة بين الاعتقاد السائد الموروث، وبين المواقع السياسية والاقتصادية، فالغاء قيم الأجداد معناه إلغاء المصالح، وهذا هو السبب الذي دفع بتصريح سادة البلد، ووقوفهم المعارض من تغيير الأوضاع، والبنية الاجتماعية وهذا ما عبر عنه جواب أبي جهل؛ حينما سأله أبو شريف: (أترى محمداً يكذب؟ فقال له أبو جهل: كيف يكذب علىٰ الله، وقد كنا نسميه الأمين لانه ما كذب قط؟ ولكن إذا اجتمعت في بني عبد مناف السقاية والرفادة والمشورة، ثم تكون لهم النبوة، فأي شيء يبقى لنا؟ وكان أبو سفيان يقول (كنا

---

(١) سورة يونس الآية: ٧٨.

وبنو هاشم كفرسي رهان، كلما جاؤا بشيء جئنا بشيء مقابل، حتى جاء منهم من يدعي بخبر السماء، فأنى نأتيهم بذلك؟)[١].

الاسلوب الثاني

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَالَاتَعْلَمُونَ﴾[٢].

بذل الطغاة جهوداً كبيرة حين حشدوا كل قواهم من أجل الحفاظ على القديم؛ قربوا وعاظ السلاطين؛ لكي يكونوا أداة لاقناع الناس من أن هذا الوهم أو فكر السلطان يمثل الحقيقة، وتكللت جهودهم بالنجاح حتى أصبح الماضي الخرافي المنحرف، الذي صاغة الأجداد إلى حاضر مقدس، قد أمر الله به، وهم بموقفهم الدفاعي عن تراث الأجداد يؤدون واجباً إلهياً (والله أمرنا بها) وينتهي هذا القول بأن الذي إبتدعه الاقدمون هو من الله، وبهذا اكتسب إسلوب الرجوع للماضي قيمة مقدسة ينبغي الدفاع عنها.

الاسلوب الثالث

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[٣].

الطغاة يفسرون ظاهرة الرسل على أنها مرحلية غير متصلة الحلقات مع

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) سورة الاعراف الآية ٢٨.

(٣) سورة غافر الآية ٣٤.

بعضها وبتأكيدهم وإشاعتهم بين الناس لهذا التفسير يبتغون الترسيخ في الاذهان فكرة وجود فراغ يحصل بعد الرسول، ومعناه أن الرسالة حالة طارئة.

وهذه الثقافة، وهذا التفسير أي أن الرسالة مرحلية وطارئة يصحح وجودهم علىٰ رأس قيادة البلاد، ويبرر لهم شرعية نشاطاتهم السياسية والفكرية، وتبعاً لهذا الهدف كان الموقف من الرسل سلبياً.

٣ـ موقف الطغاة أمام ظاهرة الرسل:

استخدم الطغاة كما تشير الآية المذكورة إلىٰ إسلوبين بأزاء ظاهرة الرسل:

الأول: في حياة النبي أنهم كانوا يناؤونه ويكذبونه؛ حفاظاً علىٰ مواقعهم، ومصالحهم، حتى إذا تخلصوا منه عبر موته انتقلوا إلىٰ الاسلوب الثاني: الذي تتبدل فيه لغتهم، فالاسلوب الأول كان اثناء حياته (فما زلتم في شك مما جاءكم به) وأما بعد موته (حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا)، هذا هو الاسلوب الثاني فالطغاة أرادوا من الأسلوب الثاني انتزاع ما في الاذهان من تعاليم الرسالة، واليأس وعدم الترقب لمجيء رسول ثاني؛ لأنه يسبب زعزعة قيادتهم، وعدم شرعيتها.

وبهذين الاسلوبين يكونوا قد وقفوا أمام تطلع الانسان ورغبته في تحقيق المستقبل الأفضل، وفتحوا الأذهان أمام الثاني علىٰ انهم البديل الشرعي بعد الرسول.

وفي حالة تجاهل الانسان لسنن الحياة وإهمالها، وابتداعه لطرق ووسائل حياتية اخرى تكون هي البديل، وهي العوض للسنن التي منحت وقدمت بين يديه وباستطاعته استخدامها لصالح مستقبله الأفضل، يكون قد عطل العمل بالسنن.

هذا التعطيل وعدم العمل بالسنن الالهية لا يعني أن هناك فراغاً حياتياً بمقدور الانسان العمل به، بل إن لم يعمل الانسان بهذه السنة فهو سوف يعمل

بالسنة الاخرى، أو بالسنة المضادة، وبمعنى آخر: أن الانسان إن لم يغير نفسه، لا يتغير المجتمع، وان غير نفسه يتغير المجتمع، ولا طريق ثالث، أي هناك سنة، وضدها. ولكل منهما نتائجه الحياتية خيراً كان أو شراً، عطاء مستمراً، أو أثاراً سلبية.

٤ ـ المؤمنون وتوظيف السنن الإلهية

بالوقت الذي أدرك فيه الطغاة سنن الحياة واستخدموها لصالح اغراضهم أدرك قبل ذلك المؤمنون والأنبياء من قبلهم سنن الله فتعاملوا معها تحقيقاً لأغراضهم من هنا نجد القرآن يطرح صوراً لذلك الاستخدام ويدعو المسلم إلىٰ العمل بها.

أ ـ قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾[1] تشير الآية إلىٰ مستقبل بعض الأُمم، وتؤكد علىٰ السنة الاجتماعية المشروطة بالتقوى، والعلاقة بين معطيات السماء ومعطيات الأرض، حسب الشرط المذكور، وهذه السنة لا تتعطل عن العمل، ولا تغلى ولا تستثني أحداً، تجري في الآخرين كما جرت علىٰ الأولين ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً[2].

تشير الآية إلىٰ أن الانسان إذا تخلى عن التقوى، وتمرد عن الخط الالهي وعلاقته بالله، وادعى كونه السيد المطلق علىٰ الأرض، هنا سوف لا تستجيب الطبيعة لهذه العلاقة، وتنذره بالحبس عن عطائها الكامل، وتتركه وجهده. وعلىٰ هذا فان السلوك الطيب كالنبات الطيب بالعطاء. وعلىٰ هذا فان الانسان المنحرف المتمرد الذي لا يهمه شيء في الحياة سوى نفسه وذاته فسوف تعصيه الطبيعة؛ لأن

---

(١) سورة الاعراف الآية ٩٦.

(٢) سورة الفتح الآية: ٢٣.

السلوك المترف والظلم والتلاعب بخيرات الطبيعة وإستنزاف جهد المستضعفين وأكل أموالهم بالباطل يؤدي إلىٰ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

إذا انتهينا من هذه السنة الالهية وربط عطاء السماء والأرض بالتقوى، والسلوك، والعدالة بين الناس، تقول: الانسان عندما ينطلق من كونه السيد في الأرض، ولا شيء فوقه، ولا كونه الأمين علىٰ هذه الخيرات والانسان الآخر شريكاً له في الخلافة، إذا انطلق من هذا المنطلق السلبي بالموقف واعتقد مع نفسه أنه علىٰ طبق الخطوة الصحيحة، هذا الاعتقاد الخاطىء لا يصحح الخطأ ولا يعطل القانون، فالسنة تأخذ طريقها في التأثير ولا تنظر هذا الاعتقاد الخاطىء، هذه السنة تأخذ مجراها في التأثير.

لا تحصل إلاّ بالتقوى والعدالة، الموقع الالهي النيابي الذي أُنيط للإنسان باعتباره المستخلَف لا يعطل السنن الالهية الثابتة، فالله عندما جعل الانسان بهذا الموقع، فهذا لا يعني أن الانسان مخول علىٰ الطريقة المسيحية (الحق الالهي) ؛ إذ ليس من صلاحية الانسان أن يقرر السلوك والطريقة، والعلاقة مع الطبيعة بشكل آخر غير الشكل الذي قرره الله تعالى، فالله قرر بأن الانسان مستخلف وليس مالكاً حقيقياً، ولا سيداً في الأرض، له مطلق التصرف، بل مشروط بالتقوى والعدالة؛ لان الانسان وما ملك فهو لله، أما شعور الانسان بكونه مالكاً لأفعاله وكونها دائماً صحيحة هذا الادعاء وهذه الطريقة لا تستجيب لها السنن الالهية.

شعور الانسان بكونه السيد يمنحه شيئاً من الاطمئنان الكاذب، وهو عدم الشعور بالخطر الخارجي، فاذا جاءت نتيجة السنة الالهية يتفاجأ الانسان

---

(١) سورة الروم الآية ٤١.

ويفسيرها على أنها جاءت بلا قانون، ولا بحساب، العقوبة، وظواهر الفساد في حياة الإنسان التي تعني في الآية، الفساد الذي يظهر في البر والبحر يأتي والأمة غافلة، غافلة عن ماذا؟ عن الخطر الذي يهددها، عن تأثير السنن الالهية لأنهم لم يربطوا بين سلوك الانسان وبين علاقته بالطبيعة، وبأخيه الانسان، طغيان الانسان لا يسمح له أن يلاحظ بأن سبب هذا الفساد الخطير هو عمله وسلوكه.

من خلال هذا العرض يتضح أن الانسان فيما إذا أراد أن يختار المستقبل السعيد لا بد له أن يتعامل بالتقوى مع السنن التي توفر له الحياة المستقبلية الرغيدة.

ب ـ قوله تعالى عليهم السلام

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾(١).

الأمة إذا حققت تقدماً، ورقياً حضارياً في أي مستوى كان، سواء أكان سياسياً، أم فكرياً، أم عسكرياً، وتناولت شرع الله بالتطبيق هذه المرحلة من النصر والتقدم لم تأت اعتباطاً بل لا بد أنها جاءت عبر تضحية وعمل دؤوب يشكل مقدمة للنصر والتقدم، وعبر توفر شروط ذلك النصر والتقدم.

الأمة عندما تحصل على هذا النضج، ويشكل بالتالي ظاهرة في حياتها وأنها تسعى لتحقيق المستقبل عن طريق الوعي بالسنن الاجتماعية الالهية، سوف تؤدي هذه المرحلة الناضجة الى الانتقال بالأمة من مرحلة الى أُخرىٰ اكثر وعياً واكثر نضجاً، وهذه الآلية تضمن لنا التقدم نحو المستقبل الأفضل دائماً .

التقدم والوعي والبناء كان مشروطاً ببعض المستلزمات التي بدورها تمنع من الانحطاط والتراجع، وتدعو إلىٰ التقدم والتطور المستمر المشروط بوعي سنن الله وتقواه، نعم إذا فقدت تلك الشروط فسوف تؤدي هذه المخالفة إلىٰ

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٥.

إيجاد مرحلة الانحطاط بعدم التقدم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾، لا يمكن التراجع والضلالة بعد الهداية، فالله هداهم أي بين لهم الشروط التي تحافظ علىٰ هدايتهم وتمتّعهم، وتقيهم من الضلالة والانحطاط، وغلبة الاعداء والهزيمة، وبالتالي عدم السقوط الحضاري وعدم فقدان الهيبة وسيطرة الاعداء، فالذي كان ينطبق مع الآية: أنها حذرت المؤمنين من الانفتاح علىٰ المشركين والتعاطف والتواد معهم لأنهم أعداء الله، ولا يجوز الاستغفار لهم فعلى المؤمنين أصحاب الولاية أن ينتبهوا، ويحذروا من ظاهرة التعاطف، والحب لأعداء الله، لأن الانفتاح عليهم يسبب الانهيار والهزيمة بعد النصر للمؤمنين، والحذر من هذه الممارسات يمنع من الانحطاط، ويحافظ علىٰ بقاء الثورة واستمرارها، وقد ورد هذا المعنى في ايات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ...﴾[1].

اذن من هنا نفهم بأن القرآن الكريم قدم وعياً حضارياً للامة المؤمنة وبه يوفر لها ذلك الوعي ديمومة الثورة واستمرارها.

وهذا التقدم والاستمرار لا تراجع فيه نحو الاسوأ، وانه حتمي التطور ما زال قد توفرت فيه شروط البقاء والاستمرار، فالوعي بسنن الله والالتزام بها ودخل الارادة الإنسانية وحسن الاختيار الإسلامي الدائم هو السر الذي يمنع من الهزيمة والانهيار للأُمة، ويؤدي إلىٰ الرقي الدائم، وقد أشارت الآيةالى الممارسات الازدواجية أو الخطيرة في حياة الأُمة ومنها التعاطف والاستغفار للمشركين أعداء الله والتعاطف مع الظلمة يشكل أحد المصاديق والتوضيحات التي بينها الله لهم ﴿يُبَيِّنَ لَهُمْ مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي ما يتجبونه، والذي منه الاستغفار للمشركين.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣.

نتيجة البحث في هذا الباب

اتّضح من خلال أبحاث هذا الباب من أن التفسير الإسلامي لحركة المجتمع لا يتبنى النظرة الأحادية لحركته وإنّما يُدخل عناصر أُخرى مؤثرة فيه ولا يفكك بين محتوى الإنسان وطاقاته الفطرية الثابتة المودعة فيه وبين تلك العناصر كالوحي والسنن الاجتماعية .

وينطلق من وحدة الاشتراك بين المجتمعات ويستبعد التفسير الذي يذهب إليه بعض علماء الاجتماع من أن لكل مجتمع تاريخه وخصائصه الثابتة التي يتفرد بها عن غيره من المجتمعات.

وعلى هذا الأساس فان المستقبل برؤاه الإسلامية يمنح المفكر المستقبلي قدرة على التخطيط للمستقبل المرغوب، ولكن بفضائه الإنساني الواسع بالوقت الذي يحمل الإنسانية جمعاء انطلاقاً من وحدة المصير الإنساني المشترك مسؤولية ايجاد المستقبل العالمي ويستبعد التفسير الحضاري لحركة المجتمع الذي يلزم منه تعدد المستقبليات الإنسانية الأمر الذي يبقى ظاهرة الاختلاف ومبررات الصراع قائمة في حياة الشعوب.

الباب الثالث

المخطط التاريخي للبشريّة

المقدمة

الرسالة الاسلامية الخاتمة للرسالات قد تناولت المستقبل البشري بعناية فائقة ولم تتناوله كمفردة مجرده عن قيمتها الحياتية وإنّما نجد مفهوم المستقبل في منظوره الإسلامي قد اكتسب قيمة عقائديةلم تنفصل عن منظومة العقائد الأخرى، كل ذلك لما في هذا الموضوع من لياقة تربوية وحياتية تمد الانسان بالطاقة وتدفعه نحو البناء والاعمار والكمال.

والإنسان الذي يتحرك نحو المستقبل برؤية وروح عقائدية تأطر حركته الحاضرة وترشّدها من أجل بناء المستقبل، وتجعلها لبنة أو قل علة لبناءه فمن الطبيعي أن المهمة إذا كانت بهذا المقدار لابد وأن يُزود صاحبها بقابليات تؤهله للقيام بها ولذا ستقع مهمة صناعة التاريخ بيد الارادة الإنسانية وحرية الحركة التي يمتلكها دون المخلوقات الأخرى ولكن لا الإرادة بنحو الاطلاق وإنّما الإرادة والحرية المنسجمة مع الحكمة والمخطط الإلهي الموعود.

المخطط الذي يلمسه المسلم عبر مفهوم الانتظار الواعي.

ولم تقوِ الإنسانية أو الأمة الإسلامية للسيطرة على مستقبلها والتعامل معه بروح إسلامية، ما لم يتعالى الإنسان على الظرف التاريخي الحاضر ومؤثراته النفسية الطارئة عن طريق الارتباط بالسماء الذي يتعالى على المحدود ولم يستجب للمعادلات والظروف الآنية.

وهذه النقطة بالذات تَوَفَرَ استيعابها بفضل استمرار خط العصمة وعدم انقطاعه في الحياة بعد الرسولﷺ الذي يؤمّن ارتباطها فوق الظروف عبر ما توفرت فيه من شروط كالعصمة والعلم بالغيب وأمثالهما.

وحين تبقى الإنسانية أسيرة الظروف وملابساتها وتتقاطع مع هذه الصيغة من الارتباط مما لا يؤهلها أن تتحدث عن المستقبل الذي هو فوق التاريخ وفوق الحاضر لأنها وفق هذا الاستبعاد تتحرك نحو المجهول أو تتحرك وفق قيم ووصايا ومواعظ ونحن نريد الارتباط العضوي لا المفاهيمي فحسب الارتباط الذي رسمت آلياته من قبل الرسالة.

من هنا ركّز الحديث في هذه المسألة بالذات ضمن عدد من الفقرات لننتهي بالنتيجة أن الفكر الإسلامي الإمامي قد توفرت فيه العناصر المهمة لخلق التاريخ عن طريق التعامل مع المستقبل المتمثل بالارتباط بالمعصومعليه السلام والتعامل مع التركة الحديثية الصادرة عن النبيصلى الله عليه وآله والأئمة المعصومينعليهم السلام كمنظومة ترشد حركة الإنسان غير المعصوم وتدفع به نحو التمركز والتوحد لبناء المستقبل الإلهي الموعود.

ففي الفصل الأوّل تناولنا مسار التفكير الاوربي ونظرياته التي فسرت التاريخ والحضارة ومناقشتها في مدىٰ قدرتها في استيعاب المستقبل والتخطيط له. أما الفصل الثاني فقد تعرضنا فيه للمستقبل البشري في المنظور الديني غير الإسلامي ويعد تمام مناقشته تناولنا في الفصل الثالث التفسير الناقص للمستقبل البشري وفي الفصل الأخير سلطنا الضوء فيه على التفسير الإسلامي لمسيرة الحضارة وإليك التفصيل.

الفصل الأول

مسار التفكير الاوربي ومراحله

مرّ التاريخ الأوربي كما يؤرخ له الأوربيون أنفسهم عبر مراحل معروفة لديهم، كان لها الأثر البالغ في صياغة العقل الأوربي وتطلعه للحياة والكون والمستقبل، وأوّل مرحلة في هذا السياق نعتوها باسم النهضة الأوربية، التي جاءت بعد القرون الوسطى التى حكمت فيها الكنيسة.

وقد بدأت تلك النهضة من القرن الثاني عشر وتلتها نهضة ثانية وامتدت حتى القرن السادس عشر الميلادي وكان الفكر فيها قوامه إحياء التراث اليوناني والروماني المتمثل في مجاله الفلسفي والفني والأدبي، وهذا يعني في منطوقهم الرجوع للأصالة وربط حاضر أوربا في تراثها وحضارتها.

وتلت مرحلة النهضة مرحلة فكر الأنوار التي بدأت في القرن السادس عشر الميلادي والتي تعني الاستقلال المطلق للعقل والتخلص من المرجعية للفكر اليوناني الروماني والرجوع الى نور العقل وحده بلا اقرار لأي مرجعية أخرى .

ولم تدم تلك المرحلة طويلاً وإنما تلتها مرحلة الحداثة، وأعنى بها الانتقال بالتفكير من عقل الأنوار إلى عقل الحداثة ولما كان الفكر في المرحلة السابقة يعتمد فكر الفرد حيث كان العقل الفردي هو الحاكم والمرجع الوحيد لتمييز

الخطأ من الصواب والحسن من القبيح جاءت مرحلة الحداثة لتنطلق من فكر الفرد الى فكر المجتمع، فالحداثة تعني عندهم أعلى قمة وصل اليها العقل الاوربي وبناء على ذلك سمي هذا العصر بعصر التقدم وأدى هذا التفكير الى الاعتقاد بسيادة اوربا ومركزيتها في العالم باعتبارها الحقل الذي تتكرس فيه حركة التاريخ وانها الساحة المنتجة لتطوره ونموه.

وهذا الاعتقاد صعد بالتفكير الأوربي في أن يعتقد بأن التاريخ وتقدمه المستمر أن يحل محل الله وأن تصبح أُوربا وشعبها شعب الله المختار.

ودعا الفلاسفة في هذه المرحلة أن يثروا الدراسات التاريخية، إنطلاقاً من هذا الإيمان، الأمر الذي جعل بالإنسان الغربي يثق بمستقبله ويستعلي على الماضي، وخلصت تلك الجهود الى القول بأن الدراسة التاريخية تعني الحضارة متجاوزة بذلك الدراسات القديمة، التي كانت تعتني بأخبار الحروب والعلاقات السياسية، وظلت نظرية التقدم بهذا المعنى سائدة طوال القرن التاسع عشر الميلادي، حتى انتجت لنا عدداً من الاتجاهات لتفسير التاريخ بمعناه التقدمي كالمعنى التطوري المؤثر الذي يذهب الى القول بأن الطبيعة الإنسانية أنبل حصيلة لعملية التطور ذاتها، ومن ثم فإن التقدم التاريخي يتضمّنه قانون الطبيعة، ذلك أنه لما كانت عملية التطور حتمية وقد أدت بالإنسان أن يصبح على رأس الكائنات الحية كان معنى التقدم متضمناً في الطبيعة ذاتها.

وبما أن الإنسان ابن للطبيعة فهو خاضع للقانون الطبيعي، ومن ثم فإن مسار التاريخ لابد أن ينطوي على تطور نحو ماهو أسمى، وبناءً على ذلك أنتجت لنا الحادثة معناً آخر للتقدم تمثل بالمعنى السياسي الذي مكّن له المد الاستعماري

في القرن العشرين، حين وصلت الامبراطورية البريطانية الى أوج عظمتها، حتى أصبح التقدم قضية مسلماً بها لدى المؤرخين[١] كما بشرت مرحلة الحداثة بالمعنى الفلسفي للتقدم، حيث اتّخذ هذا المفهوم طابع نظرية شاملة في فلسفة التاريخ، كالمادية التاريخية عند ماركس الذي افترض الديالكتيك أو الصراع الطبقي كقانون يسود البشرية وينتهي بالمجتمع اللاطبقي .

المادية التاريخية تفسير تقدمي للتاريخ

وخلاصة ما بشرت به المادية التاريخية وعلاقة ذلك بالمستقبل البشري بالشكل التالي:

تعتبر المادية التاريخية أحد النظريات التي ولدتها مرحلة الحداثة حيث فسرت حركة التاريخ وظواهره على مستوى الإنسان والطبيعة عبر قوانين حتمية منسجمة مع فكرة التقدم، فاتخذت منها ـ أي من تلك القوانين منهجاً لتفسير التاريخ ضمن ثلاث قوانين فأطلقت على القانون الأول التغير من الكم الى الكيف الذي يشمل جميع ظواهر الحياة ويتم عبر الطفرة إذ لا يعرف هذا التغير حداً فاصلاً في التغييرات الكمية حين يستحيل الكيف الى كيف آخر.

وهذا التحول المفاجئ الذي يعم عالم الطبيعيات ينسحب على عالم الإنسان أيضاً[٢].

أما القانون الثاني فقد أطلق عليه بصراع الأضداد الذي يعني بأن كل ظاهرة

---

(١) B. Russell: Portraits from Memory p.17

(٢) فلسفة التاريخ للدكتور أحمد محمد صبحي: ٢٢٣ .

اجتماعية أو غيرها تشكل وحدة عضوية يختفي التناقض في داخلها فهناك إذاً صراع وتناقض في أعماق الظواهر وهو السر في تطورها نحو الأفضل وهو القوة المحركة للتاريخ بمعناه الطبيعي والإنساني وأي حركة بسيطة لا تتم إلا بوجود الأضداد في داخلها فعل ورد فعل.

والقانون الثالث فهو قانون نفي النفي ومعناه أن التطور في عالمي الطبيعة والإنسان يشمل سلسلة من نفي النفي كل مرحلة تنفي سابقتها ثم تأتي مرحلة ثالثة تنفيها وهكذا وليس النفي فناء وانما هو هدم وبناء وتخريب وتجديد بالموت وبالتخريب ينبثق ماهو أفضل وأكثر تنوعاً[1].

ورافق ذلك التفسير التفسير الحضاري للتاريخ فجاء شبنلجر بنظريته الحضارية المسماة بالتعاقب الدوري للحضارة .

ب ـ نظرية التعاقب الدوري للحضارة

لخّصها شبنلجر ضمن مقولة المصير ويصورها على أن للحضارة ميلاد ثم صراع مع حضارات أُخرى ونمو متكامل ثم تتلاشى الحضارة وتموت حين تقف عن عطائها التاريخي فهي بمثابة الشجرة العجوز حين تعلن عن موتها عبر عدم عطائها الثمر.

والحضارات مغلقة وليست روحاً مطلقة كما عند هيجل، وإنّما تعيش التعاقب الدوري ـ شأنها كشأن أي كائن عضوي حي ـ ولادة ونمواً وشيخوخة

---

(١) فلسفة التاريخ: ٢٢٤.

وفناء، أو كما هو الحال في فصول السنة تبدأ بفصل الربيع لتنتهي بالخريف.

ويصور شبنجلر كيفية ميلاد الحضارة وموتها بهذا التصوير:

١ ـ يبدأ ميلاد الحضارة بوجود ظروف تحدٍّ خارجية وفوضى ملائمة لنموها فتستيقظ فيها الروح الجديدة فتنزع الى حيز الوجود وتحطم الفوضى المحيطة بها.

٢ ـ وحين تلتقي هذه الحضارة مع حضارة أُخرى أضعف منها لا يعني ذوبان الحضارة الأضعف، وإنّما تضطر تلك الحضارة الضعيفة الى التشكل الكاذب لحين مجيء الوقت المناسب لبروزها.

٣ ـ نعم إذا التقت حضارة قوية جداً مقابل حضارة ضعيفة لازالت في مرحلة الولادة هنا تختنق الحضارة الضعيفة فتموت في مهدها.

٤ ـ تتلاشى الحضارة وتموت حين تفقد عطائها التاريخي فهي بمثابة الشجرة العجوز حين تعلن عن موتها عبر عدم عطائها الثمر.

٥ ـ الحضارة الغربية فقدت عطائها فهي الآن في مرحلة الخريف من عمرها[١].

ومن الذين فسروا التاريخ حضارياً توبيني حيث يرى أن الموت للحضارات السابقة لم يكن قضاءاً وقدراً وإنّما كان انتحاراً، وهذا ما سيؤدي بالحضارة الغربية الى الانهيار والموت فيما لو دخلت حرباً عالمية ثالثة فقد رفض توبيني نظرية المصير عند شبنجلر وجاء بنظرية التحدي والاستجابة.

---

(١) لمزيد من التفصيل أُنظر الموسوعة الفلسفية عبدالرحمن بدوي شبنلجر.

ج: التفسير الديني للحضارة عند توينبي والنظر للمستقبل

وإن تأثر توينبي بأفكار شبنجلر ونظريته إلا أنه رفض الحتمية التشاؤمية اللازمة في نظرية التعاقب الدوري للحضارات لدى شبنجلر فهو لا يجد حركة التاريخ دوراناً كدوران العجلة.

ويقول توينبي إذا لم تكن حركة التاريخ كحركة عجلة دائرة فإنها أقرب الى أن تكون أشبه بعربة تصعد جبلاً يقتضي صعودها حركة عجلاتها، وإذا كان الصعود تقدماً، فليس المقصود الجانب المادي دون الروحي.

فالاوربي ـ بالغاً مابلغ مستواه العقلي والتكنولوجي ـ لم يستطع أن يخلع عن نفسه الشر فلازال الإنسان بعد عشرات الألوف من السنين لم ينقص من الشر شيئاً، لقد استطاع أن يسيطر على ماهو غير انساني ـ على الطبيعة ـ ولكنه لم يتقدم شيئاً مذكوراً فيما هو إنساني أي من خلال علاقته مع أخيه الإنسان، ومن ثم كان هذا التخلف المروّع في الجانب الروحي المتمثل أصلاً في علاقته بالله إذا قورن بالجانب المادي المتمثل في علاقته بالطبيعة، مع أن الأول أكثر أهمية بل أن القيمة الروحية لتتضائل الى جانبها كل القيم.

بعد أن رفض توينبي نظرية المصير لدى شبنجلر والنظريات التي تماثلها جاء بنظرية التحدي والاستجابة، وقال: إن وحدة الدراسة التاريخية هي المجتمع وليست الأمة، إذ ليست هذه إلّا جزءً من كل فلا يمكن دراسة انجلترا تاريخياً مستقلة عن سائر دول أوربا.

وقسم توينبي الوحدات التاريخية لمجتمعات العالم الى عدد من

الحضارات وفق التقسيم التالي: الحضارة المسيحية الغربية، الحضارة المسيحية الشرقية، الحضارة الإسلامية، الحضارة الهندية الهندوكية والبوذية الهينايانا، حضارة الشرق الأقصى أو بوذية الماهايانا، وهذه الحضارات الخمسة في نظر توينبي هي المتبقية من إحدى وعشرين حضارة اندثرت. ويشير توينبي في نظريته الى أسباب انهيار الحضارات واندثارها.

فيرى أن الظروف الصعبة المتمثلة إما في البيئة الطبيعية أو الظروف الاجتماعية القاهرة من ظلم واستبداد التي تشكل تحدي خارجي للحضارة متخذاً شكل التحدي البشري إما بعدوان من دولة مجاورة أو جماعة بشرية ذات أغراض سلطوية، ولا يؤدي هذا التحدي والعدوان المتمثل بهيئة غزو أو تهديد الى مجرد الاستجابة لطرد الغازي أو التخلص من القوة الضاغطة على الحدود، بل قد يدفع الى الانتقام أو القصاص وليس القصاص دائماً من قبيل الثأر، وإنّما يذهب الى امكانية تفسيره بعوامل سايكلوجية على أنها تعبير عن تعويض بمعنى تتخذ هذه الاستجابة شكلاً سلوكياً سواء على الصعيد الفردي أو الجمعي، إذ تدفع العاهات في أصحابها الى التفوق في مجال عجزهم، فالأعمى العاجز عن القتال مثلاً يكون شاعراً، والأعرج يعبر عن الاستجابة بصنع الدروع في الحرب، ولكن لا يظل هذا التحدي الى ما لا نهاية بحيث كلما اشتد التحدي عظمت الاستجابة، وإنّما تتخذ الاستجابة احدى صور ثلاثة: الأولى قصور التحدي بجعل الطرف الآخر عاجزاً تماماً عن رقيّه الى استجابة ناجحة.

الثانية: أن يحطم التحدي البالغ لشدة روح الطرف الآخر .

الثالثة: أن يصل التحدي الى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة وهذه

وحدها هي الاستجابة الناجحة.

ثم إن هذه الاستجابة الناجحة تمثل بدورها تحدياً للطرف الأول ممّا تحمله على الدخول في مرحلة جديدة من الصراع أي من حالة الركود الى حالة القوة الدافعة مرة أُخرى حتى تصبح الحركة والصراع فعل ورد فعل ايقاعي منتظم يحمل كل طرف على محاولة ترجيح كفة الميزان لا الوقوف بها عند حالة التوازن، وعليه فإن حركة التاريخ ماهي إلّا سلسلة من التحدي والاستجابة.

وينتقد توينبي تفسير انهيار الحضارة بغزو خارجي، لأن الغزو في منظوره يشكل عامل تحدٍّ يولد استجابة ويذهب في تعليله للانهيار الحضاري من أنه يتم بعوامل داخلية، وقد لخّص لها بالشكل التالي:

أولاً: صياغة أنظمة جديدة في قوالب قديمة، بمعنى لجوء النظام الى هذه الصياغة يدعو الى تفكك النظام وفقدان وجه الابداع والأصالة فيه مثال لذلك التصنيع نظام جديد إلّا أنه صيغ بقالب قديم ذلك هو نظام الرق الاقطاعي، فأصبح العمال كالرقيق في ظل النظام الرأسمالي.

والثورة الصناعية حالة جديدة متقدمة إلّا أنها صيغةبقالب قديم حيث ارتبطت بالتوسع وهي نزعة بربرية رجعية، والتعليم الديمقراطي كما يدعون نظام جديد إلّا أنه صيغ بقالب قديم، حيث استحال الى عنصرية وأدى الى أن تبعته أنظمة دكتاتورية كالنازية، وعليه فإنّ اللجوء الى صياغة النظام الجديد بقالب قديم يشكل عاملاً من عوامل الانهيار الحضاري.

وثانياً: من العوامل الداخلية لانهيار الحضارة هو الجمود وقتل الابداع والتجديد تكمن في افتتان الجماهير الى حد عبادة الذات، لأن الابداع مقوم لنمو

الحضارة وتطورها وبقائها الأمر الذي يقتضي أن تظل الطاقات الكامنة في حالة عطاء وتفجر مستمر للقوى الخلاقة، ولما كانت الجماهير قد رفعت بالمبدع الى موقع أسمى من طاقاته وقابلياته مما جعله عاجزاً عن مواصلة الابداع مما يكون هذا المبدع مضطراً لأن يستعيد لهم مواقعه السابقة، بينما نجد الحاجيات التي تطمح اليها الجماهير لازالت مستمرة وفي تصاعد لأنها ألهته. وهو عاجز عن الرقي الى مستواها ولم يقوى على أن يقدم لهم ابداعاً جديداً، لذا نجده يلجأ مرة أُخرى الى مقاومة ظهور أي ابداع جديد يقدمه الجيل الثاني، وتلك آفة الابداع التي تتلخص من المبدع جمود ومن الجماهير افتتان وبالتالي مقاومة المبدعين من الجيل الثاني.

الثالث: اللجوء للحرب والحرب نزعة انتحارية وتمثل مظهر من مظاهر التدهور والانحلال، وقيام الامبراطوريات لا يمثل سوى تغطية على حالات الاضطراب ومن أجل تسكين سخط الجماهير، فلا تشكل مظهراً حضارياً تقدمياً.

الرابع: التقدم المادي ماهو إلّا طريق خادع جاء من أجل سيطرة الإنسان على الطبيعة والبيئة التي تعيشها الحضارة وليست دليلاً على رقي ذلك المجتمع، لأن الأُسلوب التكنولوجي يمثل أُسلوب تطبيقي، ولذا ليس من الضروري أن يصاحبه الابداع الروحي والفكري وجوداً وعدماً.

فالارتقاء الحقيقي للحضارة ليس هو إذاً الارتقاء التكنولوجي، وإنّما الارتقاء الحقيقي هو ارتقاء الروح، كل هذه الأسباب تشكل في نظر توينبي عوامل داخلية لانهيار الحضارة بينما لا يرى التحدي الخارجي عاملاً لانهيارها، بعد أن عالله ضمن نظريته التحدي والاستجابة، وأنهى الى القول بأنّ العامل

الديني هو السبب لنشوء الحضارات حيث قسمها تقسيماً دينياً(١).

ولم تقف المسألة عند هذا الحد فقد دخل التفكير المستبقلي بعد أن تناولته أقلام الفلاسفة الحضارين الى مرحلة العلم فأطلق على التفكير المستقبلي الذي كان قبل ذلك قابعاً في رحم الفلسفة فجاءت كتابات فوكويا حول نهاية التاريخ وبعده صاموئيل هانتجتون في كتابه صِدام الحضارات إلا أن دراستهما للأسف لم تكن ذات معنى فلسفي للحضارة، وإنّما دراسة ثقافية سياسية أو منسجمة مع علم المستقبليات الذي تعددت فروعه هذه الأيام. حيث يطغى في دراستهما النزعة الأوربية والشعور بتفوق الانسان الاوربي على غيره مما جاءت كتاباتهما تلبية لأغراض السياسة وتحقيقاً للهيمنة الغربية لا أكثر.

د ـ علم المستقبليات في المجال الحضاري نهاية التاريخ وصِدام الحضارات

وأخيراً نشأت الحاجة الى علم المستقبليات ليحل محل الفلسفة الحضارية التي عظمت ولم تكن قادرة على اعطاء الرؤية الواقعية لمستقبل البشرية، ثم لم تقو على مماشات العلم حتى انتهى البعض الى القول على أن بامكان كل علم أن ينمو وحده بمعزل عن الفلسفة وبهذا يكون بمستطاع علم المستقبليات أن يستقل عن الفلسفة، ليوظف بالتالي لأغراض الهيمنة واستعمار الشعوب، ولكن المتتبع يرى رغم

---

(١) راجع الموسوعة الفلسفة عبدالرحمن بدوي توبيني وراجع في فلسفة التاريخ: ٢٩٥ ـ ٢٩٩، يذكر مراجع عامة عن توينبي، ترجمة د. فؤاد محمد شبل:
A study of history

هذا الادعاء أن الكتابات في هذا الحقل ظلت متأثرة بالكتابات الحضارية السابقة.

وأخيراً وبالتحديد في التسعينات من القرن العشرين نطل على ما كتبه حول المستقبل الغربي كل من فوكوياما وصاموئيل هانتجتون حيث تعتبر كتابتهما تزاوجاً بين العلم والسياسة وان كانت أقرب الى العمل السياسي منه الى فلسفة الحضارة كما يصرح هو بذلك.

فـ (فرنسيس فوكوياما) يرى أن خيار البشرية سينتهي الى الطريق الذي رسمته الحضارة الغربية، ويحاول أن يعطي لنظريته قانوناً ليبرهن على أن الديمقراطية الليبرالية أُطروحة علمية وقانونية بسبب ثباتها التاريخي وقدرتها على البقاء بعد أن فشلت الملكية، والشيوعية، واعتقد فوكوياما بأن التطور الأخير على الصعيد الايديولوجي والسياسي والاقتصادي هو المحطة الأخيرة والشكل النهائي للحكم الذي تجسد في الديمقراطية، وأن السبب في عدم تقدم الأنظمة الأخرى هو نقصها وعدم شموليتها، الأمر الذي أدى الى سقوطها. دليل تكامل الديمقراطية هو بقاؤها سالمة دون غيرها من الأنظمة، بل نجدها ـ كأُطروحة ـ تمثل طموحات الشعوب في كل العالم. وهذا يكشف أيضاً أنها خالية من العيوب، لأنها وضعت على المحك، وأثبتت صلاحيتها في واقع التطبيق.

ثم إن النظام الديمقراطي ـ حسب فوكوياما ـ جاء حصيلة تجربة طويلة خاضتها كل الشعوب، وعلى مختلف الأزمنة، إذاً، فهي حصيلة الجهد البشري، والثمرة الناضجة الأصلح في عالم اليوم، والمستقبل.

ثم يضاف الى ذلك أن الحركة النقدية النامية، والتعديلات المؤسساتية، وثبات الشكل الديمقراطي لها، والذي حصل بمرور الزمن، أدت بمجموعها الى

استحكام التجربة، ووصولها الى أرقى صورها، فلا يبقى مجال لحذفها، أو الاضافة عليها، وبهذا يتبين أنه النظام الأخير الذي لا يوجد أفضل منه.

كما أن النظام الديمقراطي لم يثبت قدرته وجدارته وبقاءه على الصعيد السياسي والاجتماعي فحسب، بل أصبح طموحاً ثقافياً قد تبنته الثقافات الأُخرى المختلفة في العالم، إذ تروج له الأنظمة السياسية في العالم الثالث، وغيره، وتطالب بتطبيقه ، وتتناوله على أنه حقيقة مسلمة. من هنا يمكن القول بأن النظام الديمقراطي، حسب زعم فوكوياما، هو الحاكم على الفكر الإنساني، بالاضافة الى ذلك يدعي هؤلاء أن الديمقراطية قامت بتطوير الفكر والانتقال به الى مستويات أفضل(١).

«ربما كنا نشهد نهاية التاريخ بما هو: نقطة النهاية للتطور الايديولوجي للبشرية وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية على مستوى العالم كشكل نهائي للحكومة الإنسانية»، ثم يقول: وللتأكيد فقد تحدث بعض الصراعات فيأماكن من العالم الثالث، ولكن الصراع الكبير قد انتهى وليس في اوروبا فقط، «وبالتحديد في العالم غير الاوربي» حيث حدثت التغيرات الكبرى خاصة في الصين والاتحاد السوفيتي. لقد انتهت حرب الأفكار. وقد يظل المؤمنون بالماركسية اللينينية موجودين «في أماكن مثل مانجوا، بيونجيانج، كمبودج، ماساشوستس»، ولكن الديمقراطية الليبرالية الشاملة قد انتصرت. وسوف يكون المستقبل مكرساً ليس من أجل الصراعات الكبرى الحامية حول الأفكار، بل

---

(١) راجع مجلة المستقبلية «العدد الأوّل»: ١٧ ـ ٣٥، بعنوان «النزعة المستقبلية من الخرافة الى العلم»، عبدالرحيم الموسوي، أو الباب الأوّل من هذا الكتاب.

بالأحرى من أجل حل المشكلات الاقتصادية والفنية المعاشة، ثم يُنهي كلامه بأسف قائلاً: إن ذلك سيكون معجزاً، وقد عمم فوكوياما المعادلات التي ذكرها في دراسته وأضفى عليها صفة الاطلاق دون أن يدعمها بدليل علمي أو فلسفي واكتفى بمساحة من التأملات السياسية التي حولت دراسته الى دراسة سياسية أكثر من كونها نظرية لنهاية التاريخ، من هنا فلا يمكن التعامل معه كأُطروحة لمستقبل البشرية.

أما صاموئيل هنتنجتون فيذهب الى أن: الصراع في العالم الجديد لن يكون ايديولوجياً أو اقتصادياً، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر والمصدر له في الغالب ثقافياً.

كان الصراع والانقسام قديماً يحدث بين الملوك والأباطرة ثم بين الشعوب، وبعدها حدث بين الايديولوجيات، ولكن هذه المرة سينشب الصراع بين الحضارات خصوصاً مع حلول النظام العالمي الجديد، وسيكون الاهتمام عند الناس ليس هو الايديولوجية أو المعالم الاقتصادية، بل سيكون الصراع على أساس الايمان والدم والاسرة والعقيدة، لأن هذه الأُمور هي التي تجمع الناس، وهي التي تحفزهم للتضحية من أجلها، ولذا يعلن هنتنجتون بأن الدين سيكون محورياً في الصراع القادم، وتمثل الحضارة في نظر هنتنجتون هي الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعات الثقافية.

والفروق الثقافية هى التى تحتل الأساس والمركز فى تصنيف البشر فى هذا العصر، وتحدد الهوية الحضارية عند هنتنجتون أو الثقافية بالتضاد مع الآخرين وتترسخ في الحروب، وعند ذلك يتحقق التماسك الاجتماعي.

وتبدو نزعته الغربية في هذا التقسيم صريحة حيث يقسم العالم، عالم غربي واحد وعوالم غير غربية أو هو الغرب والباقي ـ كما يقول: هنتنجتون أو يقدمه ـ هو خريطة جديدة لادارة الأزمات التي تنتج عن عوامل الصراع الحقيقية. ويضع جدول أعمال يعبر فيه من مواقع الأولويات للأوضاع الاقتصادية والسياسية الفعلية، وهو ما من شأنه أن يساهم مساهمة نشطة في تزييف وعي المواطنين في مختلف بلدان العالم. ويفضي ذلك جميعاً الى صرف الانتباه عما يجري في الواقع العالمي بحيث يتم تحريك الأطراف المختلفة بكفاءة واقتدار، لخدمة مصالح بعينها، بعيدة عن مصالح أوسع فئات الجماهير سواء في الشرق أو الغرب.

فالكتاب كله تذكير ملحّ على واجب المواطنين في التشبث بالخصومة بين البشر، حتى يفرغ أصحاب المصالح لشؤونهم وإدارة العالم الممزق. ونظرته في الصِدام الحضاري ليست أكثر من ثوب قشيب لفكرة أو ممارسة عتيقة جداً هي « **فَرِّق تسد** ».

وهي ثوب قشيب لأنه يزدان برقع زاهية الألوان، يطالعها القارئ في أدلته وأمثلته التي يقتطعها من هنا وهناك دون منطق متجانس موحد. فإلى جانب الدين مفسراً للصِدام الحضاري، يدهشنا بتفسيره، في مواضع أُخرى كثيرة من الكتاب، للفتوح والغزوات بتزايد السكان. فقد أدى التزايد السكاني في أُوروبا في القرن الحادي عشر الى اشتعال الحروب الصليبية. ومن ثم يحذرنا الكتاب من «النتوء السكاني» للمسلمين الذين يزداد عددهم بالنسبة للمسيحيين. ولقد تمنيت أن يكون تفسيره صحيحاً، فلم يكن لإسرائيل أن تظل على قيد الوجود يوماً واحداً مع الزيادة الفادحة لمن جاورها من العرب أو المسلمين!

غير أن ما نخشاه حقيقة من تسلط أو إغراء نظرية صِدام الحضارات، هو ما

ذكره «إرنست ناجل» عن «التنبؤ المحقق لنفسه». وهو الذي يتألف من تنبؤات لا تصدق على الوقائع الفعلية، في الوقت الذي تصاغ فيه هذه التنبؤات. غير أنها تغدو صادقة بسبب الأفعال التي تتخذ كنتيجة مترتبة على الاعتقاد بصحة تلك التنبؤات. ويضرب لذلك مثلاً: فمع أن «بنك الولايات المتحدة»، وهو بنك خاص رغم اسمه، لم يكن في ضائقة مالية جديدة عام ١٩٢٨م، إلّا أن الكثير من أصحاب الودائع ظنّوا أنه يعاني ضائقة لا مخرج منها، وقد يفلس سريعاً، وقد أدى ذلك الاعتقاد الى سحبهم لودائعهم، مما دفع البنك الى الإفلاس في الواقع.

ولكن لحسن الطالع، لم يكن «هنتنجتون» يفيق من نشوته لانتصار أمريكا في الحرب العالمية الباردة، بانهيار الاتحاد السوفيتي، ويفرغ من تصميم الموضة الجديدة لصِدام الحضارات، ويقدم نبوءاته بالنسبة للغرب، ويبذل له نصائحه بالوحدة بين بلدانه تحت قيادة أمريكا في كتابه ـ صِدام الحضارات ـ لم يكد يستكمل ذلك، حتى استدار الى داخل الولايات المتحدة، فأُصيب باحباط شديد. وسبب هذا الاحباط هو «تآكل المصالح الامريكية» وهو عنوان مقاله الأخير في عدد أكتوبر ١٩٩٧ لفصلية الشؤون الخارجية، وأغلب الظن أن الصدمة كانت قوية مباغتة ممّا حمله على التخبط والتناقض في عرض قضيته، والتخلي عن آرائه السابقة، التي حظيت دون استحقاق علمي، بشهرة نجوم السينما والاستعراض ولاعبي كرة القدم.

ومشكلته في هذا المقال، كما يقول، هي أن التعددية الثقافية في أمريكا لن تقاومها أو تقضي على آثارها السيئة إلّا الوحدة القائمة على الأيديولوجية السياسية، ولن تنجو أمريكا بعد زوال أيديولوجيتها، وستنضم الى الاتحاد

السوفيتي على كومة نفايات التاريخ! إذاً فنظريته عن مراحل الصراع لا تصدق على أمريكا، لأن هوية أمريكا هي أيديولوجيتها التي بشرنا في كتابه بنهاية عصرها. فأمريكا اليوم، كما يقول، تفتقد بشدة وجود أي بلد واحد، أو أي تهديد ضدها يمكن أن يقنعها بالوقوف خصماً أمامها، فلسوء الحظ، الأُصولية الإسلامية بعيدة مشتتة، كما أن الصين حالة معقدة على الوجه الذي يجعل أخطارها بعيدة في المستقبل. والحل الوحيد إذاً هو سياسة القمع والتقييد (Restraint) للمصالح الجزئية، وتزايد المعارضة للحكومة، فلسنا على حد تعبيره، في حاجة الى قوة لخدمة الأهداف الأمريكية، بل نحن بالأحرى فيحاجة الى العثور على أهداف (أي مبررات)، لاستخدام القوة الأمريكية للقيام بدورها في قيادة العالم. والخطر هو فقد الهيمنة الفعلية، والمصلحة القومية هي القمع القومي، وهذه فيما يبدو هي المصلحة القومية الوحيدة، التي يرغب الشعب الامريكي في دعمها، في هذا الوقت من تاريخهم.

ومهما يكن من أمر، فرؤية «هنتنجتون» وخططه ينتسبان الى مرجعية فكرية لما قبل الحرب العالمية الثانية، وهي ليست المرجعية الليبرالية، بل الشمولية التي تسعى الى التوحيد والاحتشاد عن طريق القمع والتقييد في الداخل، لغرض سيطرة مصالح بعينها على الخارج، الذي يعاد صياغته وتشكيله، وفقاً لوصفات جرّبها رجال الحكم والسياسة بنجاح منذ العصور القديمة، وهي «وصفة»، أو نظرية الصِدام بين الحضارات.

ولو دققنا النظر في أُطروحة «هنتنجتون» لوجدناها لا تصلح أن تكون نظرية علمية قابلة للتطبيق، ويستمد منها منهج للتحليل التاريخي، كما هي النظريات التي صيغت قبلها في فلسفة الحضارة، ثم لم تكن قادرة من الوجهة العلمية أن تعطي تصوراً مستقبلياً للبشرية، فقد صرح في مقدمة كتابه «صِدام الحضارات»

على أن دراسته ليست أكثر من احتمالات مستقبلية فقال:

ولا يهدف هذا الكتاب لأن يكون عملاً في علم الاجتماع، وإنّما لأن يكون تفسيراً لتطور السياسة الكونية بعد الحرب الباردة، كما يطمح الى أن يقدم إطار عمل، أو نموذجاً لرؤية السياسة العالمية، يكون ذا قيمة بالنسبة للدارسين ومفيداً لصانعي السياسة، والحكم عليه بأنه ذو قيمة، أو هدف، أو فائدة لن يكون باعتباره يفسر، أو يحلل كل ما يحدث في السياسة الكونية، فمن الواضح أنه لا يفعل شيئاً من ذلك.

أما الحكم عليه فهو إذا ما كان يقدم عدسة أكثر قيمة وأكثر فائدة ـ من أي نموذج آخر ـ نرى من خلالها التصورات الدولية، هذا بالإضافة الى أن أي نموذج لا يمكن أن يكون صالحاً الى الأبد. إذ بينما قد يكون التناول الحضاري مفيداً في فهم السياسة الكونية في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين، فإن ذلك لا يعني أنه كان مفيداً بنفس الدرجة في منتصف القرن العشرين، أو أنه سيكون مفيداً في منتصف القرن الواحد والعشرين. والأفكار التي أصبحت في النهاية مقالاً، ثم أصبحت هذا الكتاب، كان قد تم التعبير عنها علناً في محاضرة لي في «برادلي» في Americam Enterprise Institute في واشنطن في شهر أكتوبر ١٩٩٢، ثم قدمتها في ورقة أعددتها لمشروع Olin Institute عن «البيئة الأمنية المتغيرة والمصالح الوطنية الأمريكية» والذي تم بفضل: Smith Richardson Foundation . وبعد نشر المقال كنت طرفاً في حلقات دراسية ولقاءات ركزت على «الصِدام» مع جماعات ضمت أكاديميين ورسميين ورجال أعمال وغيرهم في الولايات المتحدة[1].

---

(١) أُنظر مقدمة صِدام الحضارات لهنتنجتون.

نقد التفسير الفلسفي والحضاري للتاريخ في الاطار المستقبلي

حين نلاحظ تلك النظريات من وجهة النظر المستقبلية فيما اذا كانت قادرة على منح الإنسان قدرة على التحكم في خلق المستقبل أم لا؟ فمن خلال العرض السابق يمكن أن نسجل عليها ما يلي:

١ ـ تبني المنطق الحتمي للتاريخ الذي تنعدم فيه حرية الإرادة، لأن الإنسان في منطوق البعض من تلك النظريات جزء من حركة التاريخ التقدمية.

وهذه الرؤية للتاريخ لا تمنح المفكر المستقبلي أو أي مفكر يريد أن يتحكم أو ينظر في المستقبل ويستشرفه أو يريد القول بضرورة تجاوز منعطفاته، لأن المستقبل وفق تلك النظريات مخطط منذ البداية، والتاريخ نفسه كفيل بتحقيق غاياته وان الفترة التمهيدية قبل تحقق الهدف المستقبلي حافلة بالصراع الحتمي المدعى.

فهنا يكون التفكير المستقبلي لغواً لا طائل وراءه ولا معنى للعمل والترقب والتخطيط للمستقبل، وعليه فلا نظرية للمستقبل البشري كالتي يؤسس لها الإسلام على ما سنبيّنه في السطور اللاحقة من هذه الدراسة.

٢ ـ التبشير بمجيء المجتع اللاطبقي كالذي تنبأت به المادية التاريخية لا يتصف بما هو واقع، وإنما يتنبئ بأفضلية المجتمع اللاطبقي، وهذا التفسير لا يخلو عن كونه حكم قيمي يتعارض مع النزعة العلمية المدعاة لتفسير التاريخ وقد أُستعير من التفكير الآخر لا من نفس النظرية التي تتبنى الحتمية.

٣ ـ أما النظريات التي فسرت التاريخ وحركته حضارياً من الناحية المستقبلية كنظرية توبيني مثلاً قد جعلت العقل الإنساني ومصير البشرية مستقبلاً محجوز في تاريخ الحضارات ولم ينطلق الى خارجه.

ثم نجده حين يتنبئ بمصير الحضارات الغربية يلجأ الى الخطاب الأخلاقي القيمي أو ما يشبه بالدعاء والتوسل بدل الصياغة العلمية وبه يقع بنفس الاشكالية التي وقع بها التفسير المادي للتاريخ.

٤ ـ وحين يتنبئ توبيني بظهور دين جديد فنحن لا نوافقه على هذه النتيجة، فصحيح أن البشرية لا ينقذها إلّا الدين، ولكن ليس بظهور دين جدد، وإنّما يتم ببعث وتجديد ماهو قائم اليوم من الدين المتمثل برسالة خاتم الأديان محمدﷺ المنقذ من التيه وتمدّ التفكير بالمستقبل عبر الاعتقاد بمجيء المنقذ آخر التاريخ الإمام المهدي المنتظرعليه السلام .

٥ ـ وأن الأنبياء دينهم واحد لا أديان موزعة ضمن حضارات كما يعتبرها توبيني.

٦ ـ إنّ التفسير الوضعي للتاريخ بكل صوره يتضمن اللجوء الكلي الى القوانين ذات الخط المستقيم أو الحلزوني لحركة التاريخ، وهذه المفاهيم في منظور تلك النظريات اكتسب الاطلاق، حتى تألهت وتقدست واصبحت وحدها هي المبادئ والأدوات لتفسير التاريخ، وبهذا سيتحول التاريخ الى منطق خارج الزمان، وبناءً على ذلك يصبح التاريخ خاضعاً لحتمية مطلقة وقاهرة تنتهي الى اعتبار الانسان مجرد عنصر ثانوي من عناصر التاريخ واعتبار المجتمعات البشرية مواضيع للدراسة كسائر المواضيع الأُخرى الطبيعية.

٧ ـ أما الأُطروحات التي تناولت فكرة الخلاص أو المستقبل باطارها الحضاري أو الفلسفي، فهي أفكار وإن تنبأت بتحرر البشرية من كل أنواع الاستلاب، لكن هذا التنبئ لم يكن مصدره التعالي على التاريخ.

٨ ـ واخيراً بقي علم المستقبليات الحديث في مجاله الحضاري فقد تمّت مناقشته ضمن الفقرة الخاصة بعرضه في هذا الباب.

الفصل الثاني

المستقبل البشري في المنظور الديني غير الإسلامي

في هذه الفقرة سنتعرض الى المنظور المستقبلي في التفكير الديني غير الإسلامي، لنرى مدى صلاحيته في ما إذا كان قادراً ومستعداً للدخول في الحديث عن المستقبل البشري، وهل باستطاعته استيعاب الزمن اللاحق من وجهة نظر إلهية غيبية تتعالى فوق الزمان أم اعتمدت النبوءة فقط، والتي تتقاطع مع اخلاقيته الحاضرة أو أن قيم الحياة في تشريعاتهم لا تتناسق مع النبوءة، التي مصدرها الغيب، وهل باستطاعة هذا الخط أن يقدم نظرية متكاملة تربط الحاضر بالمستقبل لتؤهلها بالتالي لاستيعاب حركة الحياة، وعلاقة ذلك بالمجتمع الإنساني ككل.

في السطور التالية نعرض للنموذج اليهودي وحديثه عن المستقبل، ثم البوذي بغية أن تقاس نظائرهما من الديانات الأرضية أو السماوية المنحرفة عن خطها الأصيل، على غرار هذين النموذجين:

أولاً: التفكير اليهودي للمستقبل

تركز التفكير المستقبلي عند اليهود في التلمود الذي يعتبر شرحاً للكتاب المقدس، وبعده بروتوكولات حكماء صهيون يقرر التلمود بأن الله هو مصدر الشرّ كما أنه مصدر الخير وأرواح اليهود تتميز عن باقي الأرواح لأنها جزء من الله.

والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود.

ويرى اليهود أن العالم لم يُخلق إلّا لهم، ومن حقهم وحدهم استعباده وتسخيره، وليس لغيرهم إلّا السمع والطاعة والرضا والقناعة بما يجود به اليهود عليهم.

أما تفكيرهم المستقبلي قبل قيام الحكومة اليهودية العالمية فيروا ضرورة تمزيق الأوطان والقضاء على القوميات والأديان وافساد نظم الحكم في كل أقطار العالم باغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب.

ولابد من الاهتمام في هذه المرحلة بنشر المذاهب المختلفة ثم ضرورة نشر الاباحية والفوضوية والعمل على تقويض الأسر وصلات الود ودفع الناس نحو الشهوات والانحلال واستخدام المال والنهم والنساء كوسائل بيد اليهود، وخلق التنافس والحروب، فاذا نشبت الحروب بين الدول قدم اليهود لهؤلاء ولأولئك القروض والسلاح بشروط سهلة حيناً ومعقدة أخرى.

أما ما يتعلق بالمنهج اليهودي أثناء قيام الحكومة اليهودية فحينما يكونوا سادة الأرض لم يسمحوا بقيام أي دين غير دينهم ويحطمون كل الأديان الأخرى ويتم تغيير المناهج الثقافية والاجتماعية وباقي الحقول الأخرى وفق تعاليمهم.

بالوقت نفسه يعتقدون بأن هناك يوماً موعوداً سيصفوا لصالح شعبهم المختار .

من جهة بشروا بالمنقذ آخر الزمان اعتماداً على كتبهم المقدسة التي يدعون أن مصدرها الغيب أو بعض الكلام فيها قد أُعتمد على نقل الأنبياء هذه نظرة مختصرة للفكر اليهودي المستقبلي.

ثانياً: التفكير البوذي للمستقبل

أما التفكير البوذي فيتشبث بفكرة الخلاص وسبيل الفضيلة، حيث انطلقت البوذية للمستقبل من ثلاثة نواحٍ: الهدف، والأسلوب، والمنقذ، وحصرت الأهداف ضمن حقائق أربعة، والأسلوب يتلخص بثمانية أساليب تشكل

مجتمعة أُسس الطريق المكمل للمنهج الخلاصي والمنقذ في التفكير البوذي فهم يتطلعون الى (Namasantiti) فهو إلهاً يمثل صورة (السيد المنتظر) أو بوذا القادم صاحب الرحمة اللامتناهية، رموزه: زهرة اللونس والسيف والعصا وجرة الماء، لأن البوذية تعتقد أن الحاضر البوذي تردى ولابد من العودة، فلو أن جوتاما بعث من قبره حياً وذهب من أقصى التبت الى أقصاها باحثاً عن تعاليمه لما وجدها، وسيحدث هناك ذلك الطراز العتيق من أحكام البشر وهو الملك الرب متوجهاً وممثلاً في شخص الدالاي لاما (Dalai Lama) الذي هو بوذا الحي، وسيجد في لهاسا (Lhasa) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة والرهبان واللامات، وهو الذي لم تكن مبانيه إلّا الخصاص، ولم تكن له أي كهنة[1].

نقد التفكير الديني للمستقبل

الغالب على التفكير المستقبلى فى اطاره الدينى غير الإسلامى، والنقاط التى يتفرّد بها عن الفكر الإسلامي الذي يعتمد الارتباط بالوحي جملة من الأمور:

١ ـ التقاطع وعدم الانسجام بين الحاضر الذي تسعى تلك الأفكار لتطبيقه، وتلزم أتباعها الى العمل بموجبه، والنبوءة المستقبلية التي يتطلع إليها الدين سواء النبوءة المستفيدة من المصادر الغيبية أو النبوءة التي مصدرها العقل، والملاحظة.

فمثلاً نجد الاخلاقية اليهودية وقيمها اللا إنسانية لا تتلائم مع النبوءة التي استفيدت من الكتاب المقدس المبشرة بظهور المهدي.

٢ ـ وهكذا البوذية حين تطرح المنهج الخلاصي الفردي، الذي يتكرس نحو تجرد الذات من خلال تعذيب البدن، وبهذا التفكيك بين المنهج الخلاصي

---

(١) معجم الديانات الكبرى أحمد شلبي.

والهدف يجعل المستقبل مظلماً، لا يدفع بالإنسان نحو الحركة أو قل هو مستقبل فردي لا حضاري، منشأه الذات وينحصر بهدفه نحو الذات.

٣ ـ القيم والتصورات التي تتبناها الأديان عاجزة عن تفسير مظاهر الحياة ضمن منظومة فكرية متكاملة بمعنى عدم شموليتها واستيعابها لحركة التاريخ ومظاهر الحياة، فنجد الفكر اليهودي يسعى لتعميم الرذيلة والقيم اللاإنسانية بعد أن يضفي عليها اللباس العقائدي ويعمد الى الخلط بين منطلقين الإنساني واللاإنساني، الأرضي والإلهي فهو تفكير ليس بتوحيدي، بل شركي وكأن الصهيونية قدر ربطت بين الحاضر والمستقبل عن طريق العمل، من أجل إفساد الحاضر وتعميم الفوضى في كل العالم، لتكون سبيلاً لتحقيق المستقبل الذي تبشر به عبر النبوءة الذي يتأكد بها هذا الحكم المستقبلي المفتعل، فهو إذاً مستقبل تشاؤمي لا إنساني، وأرضي لا غيبي، أو قل هو خلط مقصود وتوظيف متعمد فلا يصلح لأن يكون معياراً لتفسير مظاهر الحياة، ولا ينهض لاستيعاب الحاضر وتحريكه نحو المستقبل بسبب كون المستقبل غير مرسوم، ولا يمثل سوى مفردة مستعارة من التفكير الغيبي ومحشورة مع الأُطروحة، فلا يصلح كهدف له علاقة مع حركة الحاضر الإنساني.

٤ ـ لم ينطلق التفكير المستقبلي من الأُفق الغيبي المستمر مع الحاضر ليستوعب التاريخ، وإنما ينطلق من التفكير الإنساني الحاضر المنقطع عن المستقبل دوماً، بمعنى أنه لا يمكن إخضاعه للحاضر فالقطيعة بينهما سمة لازمة للتفكير الديني المنحرف عن خط الوحي، أو التفكير الديني الذي بشرت به السياسة واخترعته لأجل حماية مصالحها.

الفصل الثالث

التفسير الناقص للمستقبل البشري (النبوءتي)

ينتقل بنا الحديث حول المستقبل البشري ومفهوم نهاية التاريخ، الى الفكر الإسلامي لنرى ماهي الأُطروحة المستقبلية التي قدمها للإنسانية بهذا المجال.

هنا يمكن الحصول على الإجابة لهذا السؤال من خلال تصنيف الآراء والاتجاهات حول المستقبل البشري عند الإسلاميين والذي يتوزع على نحو مسارين:

الأول: الذي تبنى التفسير الناقص للتاريخ، حيث يمثله كل من مدرسة الخلفاء والمذاهب الكلامية المنضوية تحتها، كالاعتزال والاشاعرة وكذا المذاهب المحسوبة على خط مدرسة أهل البيت كالزيدية والاسماعيلية وغيرهما.

أما المسار **الثاني** فهو التفسير الإسلامي المتكامل للتاريخ الذي قدمته وتبنته مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

وسوف نعرض لهما ـ أي المدرستين ـ المدرسة التي تبنت التفسير الناقص والمدرسة التي تبنت التفسير المتكامل، لنرى مدى قدرة الفكر الإسلامى فى مساره الثاني واستيعابه للتاريخ وما يتخلله من وقائع وأحداث، ابتداءً من بعثة الرسول صلى الله عليه وآله ، حتى نهاية البشرية، التي هي موضع الاهتمام، وقدرته من جهة على حل الأزمة الحضارية التي تعانيها البشرية اليوم، ثم ندرك بالإضافة الى ذلك

مدى إنسجام المخطط الإلهي المستوحى من القرآن الكريم، من جهة الغاية من الخلق والمفاهيم التي أسستها الشريعة المحمدية مع هذا التفسير، بعد أن ثبت عجز وإفلاس كامل الأُطروحات التي قدمها العقل الإنساني بمختلف صنوفه ومدارسه واتجاهاته عن اعطاء صورة متكاملة عن المستقبل البشري، لتمكنه من احتواء المستقبل وتفسير التاريخ ونهايته. ولما كانت الاطلالة على المستقبل البشري واستشرافه في الفكر الإسلامي تتمركز في الخط المتعالي الغيبي على البيئة والواقع الأرضي الذي يتأتى بطبيعة الحال عن طريق الارتباط بالوحي، حيث يمثله النبيﷺ في حياته.

من هنا سيكون الموقف من الفترة الزمنية بعد الرسول وما تخللها من وقائع وأحداث، مرتبطاً مع مسألة الامتداد لخط الوحي بعد الرسول، ليحتفظ بخطه المتعال على التاريخ والزمن، وهذا السبب يدعونا في أن نتناول موضوع الإمامة بعد الرسول لأنها المعترك الذي تدور حوله رحى التفكير المستقبلي، فيما إذا كان خط العصمة ممتداً بعد الرسول حتى نهاية التاريخ، أم أنه منقطع عن ذلك الخط ومتروك لإرادة الإنسان وأهوائه، بلا دخل ليد الغيب فيه.

أولاً: المدرسة الإسلامية غير الإمامية والمستقبل الإنساني

يرى أتباع المدارس الأُخرى غير الإمامية من أن الفترة الواقعة بعد الرسول منقطعة عن خط الوحي والعصمة، وقد تبنت أُسساً وأفكاراً تبلورت نظرياً في زمان لاحق على الواقع التاريخي لنظام الخلافة.

وأهم أساس اعتمتده هذه المدارس كدليل لانقطاع خط العصمة بعد الرسولﷺ هو نفي النصب والتعين والاقتصار على الكتاب والسنّة.

ومناقشة هذه المسألة متروك للكتب المختصة في هذا المجال ككتاب

الغدير للأميني والمراجعات لشرف الدين وغيرهما.

فالمدارس غير الإمامية تتعامل مع الواقع التاريخي بعد الرسول ومسؤولية الإنسان فيه باعتبارها ظاهرة فراغ وعدم حضور لخط العصمة ويكفي بها الرجوع للمكتوب على الورق كالقرآن والسنّة النبوية، وبهذا لخصت مدرسة الخلفاء اعتقادها بانقطاع هذه العصمة فلا تعالي على المستقبل ولا عنصر غيبي فوقه وممتداً معه في الواقع الحياتي سوىٰ القرآن والسنة النبوية بلا قيم حي بعد الرسولﷺ.

وهذا ما يلزمها أن تتعامل مع الأخبار والعلامات التي تتخللت فترة ما قبل الظهور وقيام دولة الحق على يد المعصوم، كأخبار نبوءتية مقطوعة الصلة عن الغيب و تتلاعب في مسار هذه الفترة من حياة الإنسان إرادة الإنسان غير المعصوم المتأثر بظرفه الطارئ.

وكانت حركة البشرية والجهد الإنساني لا يتمتع بالقيمومة والاشراف الإلهي عبر مفهوم الوسطية، فهي إذاً مدرسة تعمد الى تفكيك المخطط الإلهي المستقبلي والمترابط منذ تأسيس الوحي حتى نهاية البشرية.

ثانياً: الزيدية والمستقبل

فالزيدية لا تعتقد بنظرية النص، وإنما تتبنى نظرية قبالها، وقد اشترطت لها شروطاً استوحتها من الواقع وملابساته فهي شروط تطبيقية تفسر الموقف السياسي الذي سلكته الزيدية فيما بعد ونظرت إليه، ولهذا ترى موقفها من الإمام عليؑ كان موقفاً سياسياً لا دينياً، تنتصر إليه لا كشخص يمثل العصمة بعد الرسول ومنصوص عليه من الوحي، بل كشخص توفرت فيه صفات تؤهله للخلافة والإمامة دون غيره.

وبهذا لا نخشى أن نقول بأن الزيدية المحسوبة على خط أهل البيت متطابقة من ناحية تفكيرها المستقبلي مع تفكير المدارس الإسلامية غير الإمامية التي تؤمن بانقطاع خط العصمة.

وهذا يعني في نظرهم أن الأُطروحة الإلهية التي ستؤدي تماميتها بالمهدي المنتظر من جهة تطبيق ما جاء به الوحي مقطوعة الصلة، وبهذا تعجز الزيدية وفق هذا التفكير أن تعطي حلاً عقائدياً يفسّر للمسلم وقائع الحياة ويؤطر حركته وسلوكه ضمن الفترة الواقعة بعد وفاة الرسول حتى قيام المهدي والأحداث التي تنشب قبل ظهوره ويؤاخذ عليها ما سجلناه على المدارس الإسلامية غير الإمامية.

ثالثاً: نقد التفسير الناقص للمستقبل البشري

قبل أن نلخص لنقد التفسير الناقص للمستقبل البشري أي التفكير الذي يعتمد النبوءة لابد من إيضاح مسألة طالما أكدنا عليها في ثنايا بحثنا وأنها سوف تعيننا على بيان الحلقة المفقودة في التفكير الذي قدمه أصحاب التفسير الناقص للمستقبل البشري، وأنها تتلخص بالبيان التالي:

إن احتواء المستقبل واستيعابه ثم كيفية التعامل مع الأحداث المترقبة الحدوث في المستقبل يتم عن طريق ايجاد مسألتين:

١ ـ امتدادية العنصر الذي يمثل الغيب وله قدرة اشرافية وقيمومة على حركة الحاضر الإنساني ومستقبله، حتى تتويج حركة الإنسانية بانتصاره، ذلك هو الإمام المهدي المنتظر ويومه الموعود.

٢ ـ وضوح الهدف الذي يتحرك نحوه الإنسان، ثم وضوح العقبات التي تعترضه تشكل عاملاً توعوياً وتربوياً يؤهل الأُمة لأداء دورها، فضلاً عن كون

الهدف والوعي فيه يمثل النقطة التي تنصب فيها كل الجهود التي جاءت بها الأنبياء، وأن الفترة الواقعة بعد وفاة النبي وبين انتصار رسالته على يد المهدي فترة أُريد للإنسان غير المعصوم أن يتأهل لأداء حمل الرسالة وتحقيق كماله باشراف وحضور المعصوم.

وهذا العنصر ـ أي المعصوم ـ ومن باب مسؤولياته عمل بنشاط دؤوب من أجل تأهيل الإنسان غير المعصوم و تزويده بمفردات وقائية ترشده نحو الهدف المبتغى وتسلحه بالوعي والبصيرة من أجل تجاوز المحن والعقبات والتفاعل مع الأحداث التي تعجّل في تحقيق العدالة وتؤدي الى كماله . والتي منها الإخبار عن بعض الأحداث المثيرة في هذا المقطع التاريخي من حياة البشرية، ثم التصريح ببعض أسماء الشخصيات المنتمية لخط العصمة، أو المعارضة لهذا الخط ، وقد أطلق التراث الإسلامي على تلك الثقافة والأفكار بعلامات الظهور.

إذاً، الفترة الواقعة بعد الرسول حتى نهاية التاريخ تمثل حركة متنامية تتجه نحو مستقبل واضح وتلتقي مع عنصر الغيب، فلا تجزئة بين تلك المفردات ـ كعلامات الظهور مثلاً، أو ظهور المصلح، أو الحديث عن الفتن والمعارك ـ وبين حركة المعصوم الذي يتولى قيادة البشرية ويتجه بها نحو تحقيق أهدافها.

فانطلاقاً من هذا التأسيس نرى أن التفسير الناقص للتاريخ لا يقدم للبشرية ومستقبلها سوى فكرة اصلاحية تتقاطع مع أصل النظرية الإلهية التي جاء بها الوحي، ولذا حاول التفسير الناقص للتاريخ أن يرمم الفكرة المستقبلية بآراء سياسية تخالف المنقول والمعتقد في الفكر الإسلامي، مما جعلها تتجلى في فكرة الوقف أي وقف خط العصمة، وهذا على أقوى الاحتمالات سيؤدي في نهاية الأمر وعلى المدى البعيد أن يتداخل فكر الوحي المنقول عن الرسول ﷺ مع فكر الإنسان واجتهاداته.

ومع تنامي واستفحال هذا المد الفكري داخل فكر الوحي سيؤدي الى الاعتراف بموت الأُمة الإسلامية، وبقاء الأمل معقود على الله سبحانه لعله يبعث مهدياً لهذه الأُمة ولكن متى؟ طبيعي إذا اشتدت المحن وفرضت البيئة حاجتها الى المجدد وهذا يضطرنا الى القول مرة أُخرى بأنّ المستقبل والعمل والاصلاح فيه وفق هذا التصوير سيكون موكولاً الى أماني الإنسان المنقطع عن خط الغيب المتمثل بوجود المعصوم ومواكبته للتاريخ!!

الفصل الرابع

التفسير الإسلامي لمسيرة الحضارة

الموقف الإسلامي من نهاية التاريخ والارهاصات التي تسبقه، أو قل ماهي الرؤية الإسلامية للمقطع التاريخي للأُمة الإسلامية بعد حياة نبيهاﷺ والأحداث التي تخللته، وبتعبير ثالث ماهي فلسفة الثقافة المعبر عنها بعلامات الظهور أو منظومة الأفكار الإسلامية التي احتواها مفهوم الانتظار؟

قبل الخوض بتفاصيل تلك الأحداث، لابد من الدخول في مبحث مفهوم خلود الأُمة الإسلامية والعناصر التي تشكل سراً لبقائها وعدم ذوبانها وانحطاطها في التاريخ، كما هي الحضارات الأُخرى وعدم انطباق التفاسير الحضارية التي تذهب الى تدهور الحضارات وإنهيارها على الأُمة الإسلامية.

الأمر الذي يجعل التعامل مع التركة التراثية كروايات علامات الظهور وفترة الغيبة الكبرى كمفردات متناقسة ومترابطة مع المنظومة الثقافية التي قدمتها الرسالة الإسلامية لمفهوم فلسفة التاريخ ومفهوم بقاء الأُمة وخلودها.

وبيان ذلك يتم بالشكل التالي:

أوّلاً: المعنى العقائدي للتاريخ

يرى الفكر الإسلامي بأن للتاريخ بداية، والبداية انطلقت على يد أول نبي وامتدت حلقاتها عبر سلسلة الأنبياء ورسالاتهم، حتى مجيء الرسالة الخاتمية، ولما كان

للتاريخ بداية نبوية فله نهاية، وستتم على يد خاتم الأوصياء المهدي المنتظرﷺ .

وإذا كانت نهاية التاريخ أثرى وأكمل من بدايته فهذا يستدعي أن تكون الحركة تصاعدية ولها غاية وهدف تتحرك نحوه .

من هنا يلقي القرآن الكريم ضوءه على مسيرة الإنسانية وتاريخها من كونه تاريخاً مملوءاً بصراع شديد ومتواصل بين تحرير الإنسان من سلطان الجماعة التي يولد وينشأ فيها، وبين حرص الملأ (أصحاب السلطة في الجماعة) على المحافظة على تراث تلك الجماعة وعلى سلطانها على الناس فيها.

فهو تاريخ صراع شديد ومتواصل بين إطلاق طاقات الإنسان الفطرية في معرفته لنفسه وللحقيقة في كل شيء في الكون في سبيل معرفة الله تعالى، وبين حرص الجماعة والملأ فيها على بقاء هذا الإنسان في سجن تراثها وأساطيرها الخاصة بها.

نزلت رسالة السماء، على كل جيل من الأجيال البشرية، على الإنسان الأوّل وعلى كل قوم من بعده، وكانت الغاية من هذه الرسالة وعي الإنسان بما فيه من قوى فطرية، ومطالبته بتشغيلها في معرفة الحقيقة في الإنسان وفي كل شيء في الكون في سبيل الله تعالى. حتى تحقيق الكمال اللائق بالإنسانية جمعاء .

وعليه، فان لحركة التاريخ معنى عقائدياً يتعالى به على الواقع ولم يتأثر بالظروف والمتغيرات لتكون ولادته ظرفية تتحكم فيها مراحل التاريخ ليؤدي بالإنسان وطاقاته أن يكون تبعاً للتاريخ وحركته، كما تصوره النظريات ذات التعالي الكاذب المتأثر بالواقع وحركته اللامستقرة.

فالعقيدة الاسلامية تفسر التاريخ على أساس التوحيد ،الذي لا ينفصل عن التاريخ، لان للتوحيد بعداً تربوياً يستوعب بآفاقه حركة الانسان، فلم يكن منهجاً عقلياً لا صلة له بالواقع، وانما يؤسس لعلاقة الإنسان مع التاريخ ليستهدف

تفجير طاقاته الكامنة فيه، من خلال هذا الإيمان بغية الوصول لكماله المنشود.

إذاً، فالعلاقه مع التاريخ بمعناها العقائدي تمنح الإنسان قوة من أجل تغيير التاريخ وصناعته، لأنها ليست علاقة إيحاء وتفسير للواقع الفاسد وتبريره، وبالتالي محاولة تكيّف الإنسان وخضوعه للأمر الواقع.

وهذا المعنى تترتب عليه نتيجة أُخرى، وهي عدم تغير مواقف الأمة وقبولها لمواقف بديلة ومعاكسة ولدتها الظروف ـ كما هي المتغيرات التي طرأت على حياة الشعوب غير الإسلامية وعدم تغير المواقف ـ يرجع الى فضل حاكمية القيم على الأمة.

ومن هنا يمكن القول بأن تاريخ الأمة الإسلامية لم يكن حيادياً، أو مادة خام قابل للتشكل والتغيير، أو الإلغاء عن طريق خلق بعض المنعطفات والاحداث، لتؤدي بالأمة أن تتنكر لماضيها، أو مستقبلها، كما فعلته الشعوب الأخرى مع تاريخها .

وهذه العلاقة التي أطّرتها العقيدة بين الأمة والتاريخ، يجعل الأمة قادرة على إعادة تشكيل تاريخها مرة أُخرى، في هذا البلد أو ذاك مازالت تحتفظ بمحور التوحيد والعناصر الأُخرى المرتبطة فيه.

ونتيجة أُخرى تترتب على ذلك فالتأسيس العقائدي لمعنى التاريخ يؤدي الى تقسيم الموقف البشري الى مسارين:

الأوّل: مسار الشعوب التي تسير مع خط العصمة، وتتفاعل مع التاريخ من خلاله، وهذه الشعوب هي التي سيكتب لها الخلود والانتصار، لأنها تبنت المعنى الحقيقي للتاريخ، وهذا الموقف لم ينشأ من التاريخ نفسه ولا من العقل أو الاجتهاد أو النبوءة المستفادة من تحليل الواقع، وانما ناشئ من المعنى العقائدي الذي يؤكد حتمية الانتصار ويوعد المؤمنين فيه، ولكن ضمن خطاب يدعوهم للمنازلة وخوض المعركة من أجل إعادة بناء الامة وفق قيم الإسلام العليا .

الثاني: مسار الشعوب غير الإسلامية التي تتبنى الخط الآخر المعاكس لخط العصمة، وهذا المسار يستمد تعاليه من الواقع، أو الانطلاقة من الذات كأساس، وقد أنتج لنا هذا المسار طغيان الإنسان على أخيه الإنسان، الذي تجسد في إيجاد امبراطوريات قد سحقها التاريخ فيما بعد، وسيسحق الأخرى ذات التعالي الزائف.

ثانياً: السنن الإلهية وعلاقتها بالمستقبل

والسنّة تعني في القرآن الكريم الطريقة والشريعة ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَاتَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾.

وقد فسرت السنة في الآية: بـ«سنة الله في الأنبياء الماضين وطريقته وشريعته»، وجاء في تفسير الآية ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَاتَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾.

والساحة التأريخية تحكمها مجموعة من الظواهر والنواميس والسنن كأي ساحة أُخرى (كالساحة الفيزيائية، الفلكية) زاخرة بمجموعة من الظواهر والقوانين.

وعملية التغيير التي يريدها الإسلام لها جانبان من جهة ارتباطها وصلتها بالشريعة والوحي.

الأوّل: الجانب الرباني: الذي يتمثل بالشريعة التي هبطت على النبي محمدﷺ.

الثاني:الجانب البشري: وهو دور الإنسان في عملية التغيير حين تأخذ وصفاً بشرياً واقعاً على الساحة التاريخية مترابطاً مع الجماعات والتيارات الأُخرى الذي يندرج تحت مفهوم ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ فيدخل الإنسان المسلم كبشر تجري عليه السنن التي تحكم التاريخ أي أن لكل ظاهرة تاريخية عوامل قد أوجدتها فهي التي تشكل مقدمات وعلل لها ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَابِأَنفُسِهِمْ**﴾.

ويوجد مجال تاريخي للسنّة الإلهية بمعنى أن السنّة الإلهية تتحرك بمساحة تاريخية، والساحة تلك تحوي الحوادث والقضايا التي يهتم بها المؤخرون وتحكمها السنّة التاريخية لا الحوادث التي تنطبق عليها القوانين الفيزياوية أو الفسلجية الخارجة عن ميدان السنّة التاريخية.

الحوادث التاريخية الداخلة تحت السنن تمتاز اضافة الى أنها ترتبط بسبب عن غيرها من تلك الظواهر بكونها ترتبط بهدف وغاية أي أنها ترتبط بعلاقة مع المستقبل لا مع الماضي بالنسبة الى هذا العمل، لأن الغاية دائماً محلها المستقبل بالنسبة الى العمل بينما السبب يمثل دائماً الماضي بالنسبة الى هذا العمل وهذا المميز النوعي للسنّة التاريخية ينظم إليه مميز آخر وهو أن يكون هذا العلم أرضية (اجتماعية) لا فردية تتجاوز ذات العمل حسبما تتميز به السنن الإلهية.

وبهذا تكون السنة الإلهية متميزة عن غيرها من السنن الكونية.

وعليه يمكن القول: أنّ موضوع السنن التاريخية ومجالها هو العمل الهادف الذي يشكل أرضية، ويتخذ من المجتمع أو الأمة أرضاً له.

وبهذا الوعي المرتبط بالعقيدة يتميز عمل الباحث المستقبلي الإسلامي عن غيره من الباحثين في شؤون المستقبل ومجرياته[1].

ثالثاً: الإمامة

تمثل الإمامة عنصراً مقوماً لبقاء الأمة وخلودها وعدم إنهيارها، وذلك لتمتع هذا الخط بقابليات وصلاحيات تجعله أن يتعالى على الواقع الفاسد، ولا يتأثر به، أو يستجيب لضغوطاته، بل يسعى للانتقال به نحو الله سبحانه، ولذا نشط

---

(١) راجع المدرسة القرآنية الدرس العاشر.

أئمة الهدى في بيان مسألة أنّ التاريخ مرتبط بالغيب، وهذا المعنى يجعل الأُمة أن لا تذوب مع البيئة ومتطلبات السياسة أو غيرها، وقد تولّى الأئمةﷺ هـذا الفهم عملياً، فالمتتبع لمواقفهم مع خط الانحراف يجد البـطولات والمـقاومة التي لا تفتر ابتداءً من يوم السقيفة حتى ظهور خاتمهم المهديﷺ كل ذلك من أجل تحرير الأُمة وانتشالها من ثقافة القبلية والنظرة الأرضية الضيّقة، وربـطها بمفاهيم التوحيد التي تؤهلها لأداء مهمتها الربانية، وانفتاحها على الفهم الكوني، وقيمومة الأُمة المسلمة ووسطيتها على باقي الأُمم.

وخط الشهادة المتمثل بالنبي أو الامام أو الفقيه ـ كما يقول الشهيد محمد باقر الصدرﷺ ـ محرك للتاريخ نحو المطلق، ومحافظ على خط الخلافة من الانحراف، ومعاكس لفلسفات التاريخ التي تعبر عن نبوءات مزيفة لأنبياء مزيفين.

وبناءً على ذلك فقد زود خط الإمامة بعد الرسول بعناصر استثنائية، تؤهله لأداء مهمته كالعناصر التي يتمتع بها النبي ﷺ بـاستثناء الوحـي والتـي مـنها: العصمة والعلم بالغيب الموهوب.

رابعاً: امتداد خط العصمة حتى نهاية التاريخ

تعتقد الإمامية أن العصمة مطلقة في النبي والإمام، وتعني أنّه معصوم عن الذنب ومنزّه عن الخطأ والنسيان والسهو، ولا يتلبس بالجهل والغفلة، سواء كان ذلك قبل البعثة أو الإمامة أو بعدها، فهو إنسان كامل لا يعتريه النقص البشري ولا يغلب عليه الميل النفساني من ولادته الى مماته، فهو معصوم في معتقده وفي أفـعاله الدينية وفي تكاليفه الشرعية وفي تبليغه للأحكام الشرعية الإلهية ومستقيم في طباعه.

وتأتي العصمة وضرورتها في الإمامة تبعاً لضرورة الإمامة بعد النبوة، ولهذا استدلّ الإمامية على وجوب الإمامة بقاعدة اللطف ، أي أن الإمامة لطف من الله

عزّ وجل كما هي النبوة.

واللطف فيض إلهي ، لأن المولىٰ حينما خلق الإنسان أراد له أن يصل الى منتهى كماله الإنساني ، ولما كان الإنسان ملهماً بنوازع الخير والشر : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[1] فهو ميّال الى الداني ويترك ما جُعل سببا لكماله فمن لطفه سبحانه ورحمته الواسعة أن يهيّئ له سُبل الهداية، ولهذا فقد أرسل الأنبياء ليتكفّلوا بهداية الإنسانية.

وبنفس هذا التأسيس تأتي الحاجة للإمام المعصوم بعد غياب النبي باستثناء الوحي، فاللطف ـ الذي هو فيض من المولىٰ ـ وأدىٰ الى مجيء النبوة لا ينقطع حين غياب النبي ، لأن الداعي باقٍ.

ومن ضرورات العصمة للإمام : أن وجود الإمام في وسط الأُمة يمثل خطاً طبيعياً للرسالة وامتداداً لنبيّها، فعلى هذا الأساس يكون عاملاً لبناء الرسالة ومرجعاً لهداية الناس، ذلك لأن الهدف من حركة الإنسان ووجوده هو الوصول الى أرقىٰ المراتب في الكمال الإنساني، وإذا كان هذا هو الهدف فهو إذاً بحاجة الى إمام معصوم، يربط بين عالم الغيب المتعالي، والنوع الإنساني المحتاج.

ومن هذا المنطلق تأتي مسألة قبول الأُمة لإرشاداته ، لأنه الممثل للنبوة ، وتتأكد الطاعة والقبول لشخصه، فيما إذا كان معصوماً ، أما إذا كان غير معصوم فسوف يبرر للأُمة عدم طاعته وقبول أوامره ، وإذا لم تصدقه الأُمة سيؤدي هذا الأمر بطبيعة الحال الى ظلال الأُمة وعدم تحقق الغرض الإلهي.

ولا يوجد أي مانع من أن يكون الإمام معصوماً ، مادام المولى قادراً على تحقيق ذلك، ولا يوجد محذور عقلي في نفس القابل ، وقد اثبتنا ذلك في بحث

---

(١) الشمس : ٧ ـ ٨.

العصمة فراجع [١].

وتأتي مسألة أُخرى وهي أن الشريعة التي جاء بها النبي خالدة وعامة لكل البشر وعلى مختلف الأزمنة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٢] ، إذاً فهو مشروع لكل الأُمم ، وإذا كان بهذه السعة وهذا الامتداد فلابد من وجود عمر يمتد بامتدادها، من أجل أن يساير النبي مشروعه، حتى اكتماله واقتطاف ثماره، ولما كان عمر النبي قصيراً ومحدوداً في مدته ، فلابد أن يلحق عمر النبي عمر آخر أطول منه يمتاز بنفس الطاقات والصفات والمؤهلات، حتى تحقيق الغرض الإلهي.

وحيث لا يمكن أن يكون هذا القائد نبيّاً، لأنه لا نبي بعد رسول الله، فيبقى الأمر محدوداً بالإمام المعصوم، وهذا الأمر تؤكّده كثير من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية[٣].

قال السيد المرتضى:

فأما الطريق الذي به يعلم أن الأئمةعليهم السلام لا يجوز عليهم الكبائر في حال الإمامة، فهو أن الإمام إنّما احتيج إليه لجهة معلومة، وهي أن يكون المكلفون عند وجوده أبعد من فعل القبيح وأقرب من فعل الواجب، فلو جازت عليه الكبائر لكانت علّة الحاجة إليه ثابتة فيه، وموجبة وجود إمام يكون إماماً له، والكلام في إمامته كالكلام فيه، وهذا يؤدي الى وجود ما لانهاية له من الأئمة، وهو باطل، أو الانتهاء الى إمام معصوم، وهو المطلوب.

وممّا يدل أيضاً على أن الكبائر لا تجوز عليهم، أن قولهم قد ثبت أنّه حجة في الشرع كقول الأنبياءعليهم السلام ، بل يجوز أن ينتهي الحال الى أن الحق لا يعرف إلّا

---

(١) العصمة، سلسلة في رحاب أهل البيت، عبدالرحيم الحصيني.

(٢) الأنبياء: ١٠٧ .

(٣) مسند أحمد: ١ / ٧٩، ٨٧ و ٣٢/٣ و ٣٦٩/٦ .

من جهتهم، ولا يكون الطريق إليه إلّا من أقوالهم، وإذا ثبت هذا جملة جروا مجرى الأنبياءعليهم السلام ، فيما يجوز عليهم وما لا يجوز، فإذا كنا قد بيّنا أن الكبائر والصغائر لا يجوزان على الأنبياءعليهم السلام ، قبل النبوة ولا بعدها، لما في ذلك من التنفير عن قبول أقوالهم، ولما في تنزيههم عن ذلك من السكون إليهم، فكذلك يجب أن يكون الأئمة عليهم السلام منزّهين عن الكبائر والصغائر، قبل الإمامة وبعدها، لأن الحال واحدة(١).

وهناك من يذهب الى أن البديل للإمام المعصوم هو الأُمة ، فعقل الأُمة ووعيها ورشدها الإسلامي ووجود المصلحين والأخيار فيها، يؤهلانها للقيام بدور الإمامة بدل الشخص المعصوم، والأُمة كنائبة لتولّي رعاية الشريعة وحفظها لا تختار الباطل ولا تنحدر نحو الهاوية، بفعل وجود عوامل شرعية مرة وعقلائية أخرى.

ويعترض هذا التوجيه سؤال هو : هل يجوز على الأُمة الخطأ والنسيان والتضليل والانحراف أم لا؟

بالتأكيد سيكون الجواب إيجابياً، فلا يتصور أحد عدم نسيان الأُمة وعدم خطئها واختلافها، فلو نظرنا الى الحقائق القرآنية التي تحدثت عن اختلاف الأُمم في الماضي، قال تعالى: ﴿**وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾ (٢).

وقال أيضاً: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِن بَعْدِمَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ**﴾ (٣). لانتهينا الى عدم عصمة الأُمم وعدم عصمة الأُمة الإسلامية بشكل خاص، لوجود الاختلافات والانقسامات التي أصابتها بعد غياب صاحب الرسالة، فضلاً عن كونها أُمة لا تختلف في طبائعها وميولها من حيث الاختلاف عن الأُمم الأُخرى، وأن الاختلاف الذي يكون سبباً لتمزقها لابد له من مرجع

---

(١) تنزيه الأنبياء ، الشريف المرتضى: ٢٢ .

(٢) البقرة: ٢١٣ .

(٣) آل عمران: ١٠٥ .

ورئيس يحسم ذلك النزاع والاختلاف بقرار معصوم، ويثبت عدم صلاحية فئة من الأمة لرفع الظلم والفساد عن الأخرى، لادعاء الثانية بأنها تريد رفعه عن أختها أيضاً وهذه الحقيقة تؤكد عدم عصمة الأمة وبالتالي حاجتها الى عنصر المعصوم المنصوص عليه من الشريعة والمراجع لحديث الثقلين الذي يؤيد عدم افتراق القرآن على العترة الطاهرة «**لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**».

خامساً: واقعية علم الغيب عند المعصوم

بعد أن اتضح على أن خط العصمة ممتد مع التاريخ حتى نهايته لابد من بيان مسألة أُخرى يتصف فيها المعصوم من أجل أن يؤدي مهمته الإلهية على أكمل وجه ويوظفها لصالح الرسالة، تلك هي مسألة علم الغيب التي يترتب عليها موضوع بحثنا «المستقبل»، حيث تشكل واحدة من أنشطة الغيب عندهم، وهذه المسألة تحتاج الى مزيد من البيان وإليك خلاصته:

المخلوقات في هذا الوجود لم تخلق عبثاً على وجه الاستقلال، وإنما لوحظ فيها المخلوقات الأُخرى التي تحيط بها، فالكون كل مترابط ويتحرك بطريقة منظمة وهدي إلهي مقدر ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ* وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ* لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[(٢)].

بناءً على ذلك فالموجودات في المجموعة الكونية يؤثر بعضها في البعض الآخر، والإنسان لا يستثنى من هذا القانون فهو مخلوق ضمن هذا القانون

---

(١) طه: ٥.

(٢) يس: ٣٨ و ٤٠.

وبالتالي خاضع لقانونيته.

فمن جهة أنه يتأثر في هذا الكون فواضح، لأن الشمس إذا ارتفعت أو اقتربت سوف تؤثر على الحياة بما فيها الإنسان.

ومن جهة أُخرى: أن الإنسان يؤثر على من حوله من الموجودات فيمكن معرفته من خلال سؤال الملائكة لله سبحانه الذي ينقله القرآن، حيث تسأل الملائكة عن هذا المخلوق الجديد آدم من خلال ربطها بين الفسق وفعل سفك الدماء الناتج عن الإرادة وعن مصيره وحياته وحركته في الأرض وكيفية تعامله مع المجموعة الكونية، لأنهم ضمن معلوماتهم أن الكون خاضع لنظام كوني واحد حسبما يعمل به الجميع، ولا بد لهذا المخلوق الطارئ على الكون أن يكون منسجماً مع نظامه، ولما كان قد صمم بطريقة تجعله يخالف النظام الكوني، لذا سوف ينتج سفك الدماء والخراب والدمار في هذا الكون، لأن الفوضى تحدث بوجود الإرادة.

ولذا تضمن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1] لكن الله سبحانه تلافى الاشكال والتساؤل الذي صرحت به الملائكة لاعتراضها على تولي هذا المخلوق مقاليد الخلافة، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[2].

صنع هذا المخلوق وأودع فيه من العلم بما يتلائم مع مهامه الإلهية والتي تعينه على تحقيق الغايات، فعلم الإنسان الأسماء كلها هبةً منه سبحانه، لقد أطلعه على حقائق الأشياء وأطلعه على الكون كله وعلى الأنظمة الحاكمة فيه، ثم ما هو موقعه من هذا الوجود وكيف يؤثر فيه لغرض استخدامه لصالح أهدافه

---

(١) البقرة: ٣٠

(٢) البقرة: ٣١.

وغاياته، (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ) وايداع هذا العلم ممن بعده الى سلسلة الأنبياء حتى خاتمهم محمد ﷺ وبعده السلسلة الطاهرة من آله وتمتد حتى ظهور خاتم الأوصياء المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه . وهذا العلم هو الذي يدرك بواسطته المعصوم حقائق الأشياء، كما هي برؤية واضحة وبشكل لا يقبل الشك، فالعلم الذي يتصف بهذه الميزة يؤدي الى العصمة حتماً.

والعلم الذي يمتلكه الإمام المعصوم ويتسلّط بواسطته على معرفة الأشياء، وبه تتم أغراض الرسالة، موهوب منه سبحانه بدون كسب من الإمام، بهدف أن تكون للإمام قدرة تامة لتحقيق الغرض الإلهي الذي ينبغي إنجازه على أكمل وجه ويظهره على الدين كله. ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1].

والعلم المفاض للإمام بأي سبب كان، سواء بإلهام أو نقر في الأسماع، أو بتعليم من الرسول، ويمتد الى معرفة الغيب، فهو غير العلم الذي يختص به سبحانه، فذاك مكفوف عن من سوى الله وحتى الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وهو الغيب المطلق.

ونجد القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى في أكثر من آية قال تعالى:(ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا)، ثم أخبر تعالى عما جرى بعد ذلك فقال: (فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)[2] وقال في موقع آخر: (فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا)[3] وقال: (وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا

---

(١) الجنّ: ٢٦، ٢٧.

(٢) يوسف: ٩٣ و ٩٦.

(٣) البقرة: ٦٠.

بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ)[١].

وقد أفاض الله سبحانه وتعالى علم الغيب لخاتم الانبياء، فقال : (**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**)[٢] وقال: (**ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**)[٣].

وقد انتقل هذا العلم من خاتم الانبياء الى عترته ومنهم المهدي عليه السلام ، قال الإمام علي عليه السلام (**ألا إن العلم الذي هبط به آدم من السماء الى الأرض وجميع ما فاضت به النبيون الى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين**)[٤] .

ولذا فالعلم المفاض يتم إما بشكل تعليمي غير طبيعي، كما هو في الكتب الإلهية المنزلة على رسله بواسطة أمين الوحي، وهي تتضمن الأحكام والإخبار بالأحداث السالفة والحاضرة وحتىٰ المستقبلية، لكل نبي بحسب نوع رسالته، قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّـهُ وَرَفَـعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ** ﴾[٥].

وإما أن يتم بشكل عملي، مثل المعجزات فتجري على يديه ولا ينال الرسول إلا قيمتها العملية، أما حقيقتها العلمية فقد لا يملكها ولا يقف عليها، وقد يحصل عليها كحقيقة إحياء الموتىٰ فإنها من الغيب الخاص به سبحانه. ولكن لا مانع من تعليمه لغيره وإفاضته على بعض رسله كما ورد في حق إبراهيم الخليل عليه السلام[٦]، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...** ﴾[٧].

---

(١) الأنبياء: ٨١.

(٢) النجم: ٦.

(٣) آل عمران: ٤٤.

(٤) تفسير القمّي: ١ / ٣٦٧ ونور الثقلين: ٢ / ٥٢٣.

(٥) البقرة: ٢٥٣.

(٦) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٧) البقرة : ٢٦٠ .

ويفترق علم الإمام عن علم الله سبحانه، بأنّ علمه سبحانه قديم وسابق على المعلومات، وهو عين ذاته.

أما العلم الحضوري للإمام فلا يشارك علم الله في شيء من هذه الأُمور، لأن علم الإمام حادث ومسبوق بالمعلومات، وهو غير الذات فيه، وإنّما حضوره عند الإمام بمعنىٰ انكشاف المعلومات فعلاً لديه فلا يشارك الله في علمه. والقول بالاشتراك والاتحاد بين العلمين، هو من القول بالشرك والغلو الذي لا يقول به الأئمةعليهم السلام أنفسهم فضلاً عن أتباعهم.

ويمتاز علم الغيب الذي يمتلكه المعصوم من كونه حتمي الوقوع، ولكن يتمتع بالواقعية والانسجام مع الظروف، فعلامات الظهور ـ مثلاً ـ التي تتكلم عن أحداث مستقبلية ووقائع لا تأت كأحداث عائمة لا ربط لها في الواقع، أو تتحقق عن طريق المعجزة، وإنما لها واقعيتها لتكون بمثابة ترشيد واقعي صادر عن المعصوم(١).

والميزة الأُخرى التي يتمتع بها العلم عند المعصوم من كون القرارات والحديث عن الوقائع والمنعطفات التاريخية وأخبارهم عن موت حضارات

---

(١) قال الشهيد محمد باقر الصدرقدس سره: كان الإمام الحسين يعترض عليه، ويقال: لِم تخرج؟ يعترض عليه عبدالله بن الزبير وغيره، فيقول له: بأني أنا أُقتل على كل حال سواء خرجت أو لم أخرج، إن بني أُمية لا يتركونني، ولو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لأخرجوني وقتلوني، إن بني أُمية يتعقبوني أينما كنت، فأنا ميت على أي حال سواء بقيت في مكة أو خرجت منها، ومن الأفضل أن لا أُقتل في مكة لكي لاتنتهك بذلك حرمة هذا الحرم الشريف.

فتراه طرح هذا الشعار، وهذا الشعار بالرغم من واقعيته منسجم مع أخلاقية الأُمة المعاشة أيضاً، فأخلاقية الهزيمة التي تعيشها الأُمة الإسلامية لاتجد منطقاً تنفذ منه للتعبير عن نقد مثل هذا التحرك من الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، فهو عليه السلام يقول: «أنا مقتول على كل حال» والظواهر كلها تشهد بذلك، الدلائل والأمارات والملابسات تشهد بأن بني أُمية قد صمموا على قتل الإمام الحسينعليه السلام، ولو عن طريق الاغتيال ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، إذاً فطرح مثل هذا الشعار لأجل تفسير هذا الموقف كان مناسباً جداً مع إقناع أخلاقية الهزيمة، مع كونه شعاراً واقعياً في نفس الوقت.

وهزيمة أفكار، كالتي تحدثت عنها علامات الظهور كونها صادرة عن قرار غيبي فوق الزمان، وبهذا تكون الثقافة المستقبلية عند أتباع مدرسة أهل البيت لا تتأثر بالبيئة ولا تتحكم فيها الظروف والمعادلات(١)(٢).

سادساً: مفهوم الانتظار

أما مفهوم الانتظار، فهو موقف عقائدي وميداني، مرتبط مع التوحيد والرسالة، لا موقف سياسي أو عاطفي أو مرحلي مرتبط بقوانين التاريخ.

فمفهوم الانتظار ينطلق من قيم الوحي ومتطلبات القرآن، وهي قيم تخاطب المسلم وتحمله مسؤولية التغيير والاستعداد للتضحية .

وعليه فان الانتظار يعطي بعداً مستقبلياً حيث ينشأ علاقة تأثير متبادل بين نشاط الإنسان ومستقبله، فالمستقبل يؤثر في الإنسان من خلال الانتظار والإنسان يؤثر في المستقبل من أجل أن يكون المستقبل نتيجة عمل الإنسان ونشاطه ووعيه .

---

(١) قال الشهيد الإمام الصدر﵀: يأتي أشخاص آخرون إليه ـ للإمام الحسين ﵇ ـ يعترضون عليه، يقولون: لم تتحرك، يأتي محمد بن الحنفية ينصحه في أول الليل بنصائح عديدة فيقوله له: أُنظر، أفكر فيما تقول فيذهب محمد بن الحنفية وفي آخر الليل يسمع بأن الإمام الحسين قد تحرك، فيسرع إليه ويأتي ويأخذ براحلته ويقوله له: ياأخي قد وعدتني أن تفكر، قال: «نعم، ولكني بت في هذه الليلة فرأيت رسول الله ﷺ ، ـ في المنام ـ فقال: إنك مقتول» (الملهوف على قتلى الطفوف لابن طاووس: ١٢٨)، فتراه﵇ يجيب هذا الجواب، يجيب بقرار غيبي [صادر] من أعلى، وهذا القرار الغيبي من أعلى لايمكن لأخلاقية الهزيمة أن تنكره مادام صاحب هذه الأخلاقية مؤمناً بالحسين، ومؤمناً برؤيا الحسين، طبعاً هو لم يحدث بهذه الرؤيا عبد الله بن الزبير الذي لم يكن مؤمناً برؤيا الحسين، بل حدث بذلك محمد بن الحنفية وأمثال محمد بن الحنفية، فهذا شعار آخر كان يطرحه وهو شعار حتمية الموت [الصادرة] من أعلى، وأن هناك قراراً من أعلى يفرض عليه من أن يموت، أن يضحي ،أن يغامر، أن يقدم على هذه السفرة التي قد تؤدي الى القتل، وهذا الشعار أيضاً كان بالرغم من واقعيته ينسجم مع أخلاقية الهزيمة، وهو في نفس الوقت شعار واقعي.

(٢) أُنظر الأئمة والعلم بالغيب، عبدالرحيم الحصيني ضمن سلسلة في رحاب أهل البيت.

فمفهوم الانتظار مفهوم عمل وثورة ونفير وجهاد واستعداد لمعالجة المشاكل القادمة، ولذا يشكل عنصراً يحمي الأُمة من الانحطاط والزوال.

ثم إن الزمان يسير نحو غاية فهنا يصبح زمانا تاريخيا، لأن الإنسان يعرف بأنه يتجه الى هدف والى غاية والغاية التي يتطلع إليها الإنسان، ويتجه التاريخ نحوها قد تكون مجرد حلم، أو مجرد ظاهرة نفسية، ليست لها أُسس لا من الواقع ولامن التاريخ. واليوم الموعود الذي سيتحقق فيه مجتمع العدل كائن واقعي وُجد في التأريخ، ومازال موجوداً في التأريخ، وهذا من أسرار قوّته، لأن وجوده من التأريخ يجعله يعيش الحركة التأريخية ويستوعب عن قرب وعن عمق، نشوء الحضارات ونهضتها وسقوطها.

إن موقف الحضارات من المستقبل يتأرجح بين الخوف والأمل والوهم والانتظار. لكن الانتظار في الحضارة الإسلامية ليس قابلاً لأي تأويل. والانتظار معناه أن المسلمين لايتحركون نحو المجهول على غرار الحضارات الأُخرى، بل يعرفون اين يتجهون، ونحو أية غاية يتحرك التأريخ[1].

إذاً اتّضح بأن للتاريخ معنى عقائدياً، يصاحبه الجهاد والتربية والثورة والتغيير فعقائديته تنشأ للإنسان علاقة عضوية مع التاريخ قوامها خط العصمة، الذي سيتحقق غرضه حين ظهور المهدي وتحقيق الدولة العالمية، الأمر الذي يجعل المسلم يتحرك نحو نهاية واضحة، ولكن مفهوم الدولة لم يكن هدفاً قائماً برأسه، بقدر ما تكون الدولة أداة تفعيل لتحقيق العدالة.

---

(١) محمد باقر الصدر، دراسات في حياته وفكره، نخبة من الباحثين: ٢٥٩ ـ ٢٦١.

خلاصة البحث في هذا الباب

من خلال سير البحث تبين ما يلي:

إنّ التفسير الفلسفي والحضاري للتاريخ في الاطار المستقبلي قد تبنّى المنطق الحتمي للتاريخ الذي تنعدم فيه حرية الارادة، لأن الإنسان جزءٌ من حركة التاريخ التقدمية في منطوق البعض من تلك النظريات، والأُخرى جعلت العقل الانساني ومصير البشرية مستقبلاً محجوزاً في تاريخ الحضارات ولم تنطلق الى خارجه وهذا لا يؤهل اتباع تلك النظريات في الحديث عن المستقبل.

أما التفكير الديني للمستقبل فقد وقع في تقاطع بين الحاضر الذي تسعى الأفكار لتطبيقه والنبوءة المستقبلية التي يتطلع اليها الدين سواءً النبوءة المستفيدة من المصادر الغيبية أو النبوءة التي مصدرها العقل.

بقي التفسير الناقص للمستقبل البشري فقد عجز هذا الاتجاه في أن يقدم للبشرية ومستقبلها حلاً متكاملاً، نعم أنه قدم فكرة اصلاحية تتقاطع مع أصل النظرية الالهية التي جاء بها الوحي تتلخص في فكرة الوقف وقف خط العصمة الذي يؤدي الى انهيار الأُمة وعدم خلودها نهاية المطاف وهذا يعني أن المستقبل غير مأمون.

وأخيراً نجد الموقف الإسلامي من نهاية التاريخ والارهاصات التي تسبقه قدمة على شكل مفردات متناسقة تجعل منها بالتالي نظرية متكاملة حول التاريخ ونهايته ابتداءً من مفهوم خلود الأُمة وعدم انهيارها وسقوطها كما هي الحضارات الأُخرى التي أقرت بعدم البقاء والخلود الأمر الذي يجعل التعامل

مع التركة الروائية كروايات علامات الظهور وغيرها وهكذا الآيات التي يمكن تطبيقها على مفهوم الانتظار والدولة كمفردات مترابطة في ما بينها.

ثم ان النظرة للتاريخ لم تكن نظرة فكرية طارئة وإنما هناك معنى عقائدي للتاريخ باعتباره صراع شديد ومتواصل بين قوى الشيطان وقوى الرحمن.

والتاريخ يتحرك وفق سنن إلهية لم يطرأ عليها التغيير ولها مجال اجتماعي وللانسان دور في صناعة تاريخه.

تمثل الامامة عنصراً مقوماً لبقاء الأمة وخلودها انطلاقاً من الاعتقاد باستمرارية هذا الخط حتى نهاية التاريخ.

الباب الرابع

حتميّة التقدّم المستقبلي
وهيكليّة الإنتظار

المقدمة

الأُمة الإسلامية منحت القيمومة على الأُمم الأُخرى وقد اتسم خطابها بالخلود حيث لا يستنفذ غرضه بزمان دون آخر.

والغرض الإلهي من خلق الإنسان لا يتخلف، وقد اتصف بالحتمية وضرورة التحقق الذي يتوّج بانتصار أُمة الإسلام وبرسالته آخر الزمان.

ولما كان من الثابت أن الإمامة بعد النبوة لا تتعرض للانقطاع أو للفترة فينبغي أن يكون ثمة إمام حيّ، وهو لدينا الإمام المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام.

في مرحلة الغيبة الكبرى سترتقي الأُمة الى أعلى مسؤوليات الانتظار، لأن الغرض من الغيبة، أو قل أحد أغراضها قبول البشرية عدالة الإسلام التي يأتي بها الإمام، وقد حُملت الأُمة قبل حين مسؤوليات هذا الانتظار بغية أن تمارس فيه مبادئها ومسؤولياتها بصبغة عبادية وبوعي صبور، لأن الانتظار لا يمثل حالة اجتماعية شأنها شأن الظواهر الاجتماعية التي ينتجها عمل الإنسان الذي يتحرك بحدود المباح أو المستحب، وانّما الانتظار جزء من التخطيط الإلهي، مرتبط بعملية العبادة التي خلق الإنسان من أجلها فالأُمة وفق هذا التصوير تعيش مرحلة من أعقد مراحل الوعي الإنساني، وبذا سوف تتعرض الى أشد ألوان

الابتلاءات، كل ذلك لأجل الارتقاء بها الى مستوى التطبيق الذي نادت به الرسالة على المستوى النظري الذي تتولاه الأُمة وتعمل بموجبه برعاية قائدها المعصوم المهدي المنتظر عليه السلام.

وتبعاً للتعدد المذهبي والفكري الذي تعرضت له الأُمة بعد الرسول واستمر حتى بلغ هذه الفترة من حياتها، تعددت المواقف إزاء مسألة تحكيم الإسلام وإمكانية إدارة الدولة والتفاعل مع الانتظار الذي ندبت اليه الشريعة.

وفي بحثنا هذا سيتم تقسيم تلك المواقف الى ثلاث اتجاهات، لننتهي بالاتجاه السليم الذي تبنى المفاهيم التي تنسجم مع الرسالة ومع المنظومة العقائدية الداعية للانتظار الواعي الذي يؤمّن للأُمة الارتباط بالمخطط الإلهي ويضعها وفق مفردات اسلامية وبرنامج متكامل.

ولأجل إيضاح الموقف الصحيح بتفصيلاته والملابسات التي أحاطت به على أمل الوصول الى معناه الواعي، تضمّن البحث الذي بين أيدينا ـ الانتظار ـ عدداً من الفقرات، كان أولها استمراية الانتظار تلازم استمراية الرسالة، وثانيها: المراحل التاريخية التي مرّ بها الانتظار حيث تمثل الغيبة الكبرى أعلى مراتبه، وثالثها القاعدة العبادية لمفهوم الانتظار، ورابعها انتظار الأُمة ومسؤولياتها في فترة الغيبة الكبرى، الذي تضمن الاتجاه المراد إثباته وإليك التفصيل.

الفصل الأول

استمرارية الانتظار تلازم استمرارية الرسالة

مما لا شك فيه أن الرسالة الإسلامية عالمية في خطابها، ولا تختص بزمان محدد ليستنفذ غرضها بحدوده، كما لا تختص بأُمة دون أُخرى، لذا جاء خطاب القرآن للناس كافة مرة وللذين آمنوا أُخرى، ولم يقصد بالناس فئة معينة منهم كما لا يقصد بالذين آمنوا حين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ المؤمنين من أُمة العرب أو غيرهم، وإنّما المؤمن من كل أُمة وفي كل زمان، وهكذا الناس.

والدين الإسلامي حسب المنطق القرآني له القيمومة على الأديان كلها: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وكذلك أُمته خير الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وجاءت القيمومة لها دون غيرها لأنها لا تستمد طاقتها وحيويتها ودوامها وتماسكها من الظروف أو التاريخ أو المال أو السلطة، وإنما من صلتها بالجانب الغيبي ـ الوحي ـ المتجسد منطقه في القرآن، بالاضافة الى عنصر العصمة المتمثل في النبوة والإمامة الممتدة بعد النبوة، ولذا فالأُمة الإسلامية أُمة باقية باعتبار هذه العلقة، التي تمدها بالقدرة على العودة والتشكل وعدم الانهيار أو السقوط الذي تتعرض له الحضارات والأُمم الأُخرى كالتي طالها الفناء والدمار،

فهذا الارتباط والصلة هو السرّ الذي يمنح الأُمة هذه القدرة والقيمومة.

وعنصر الخلافة الامتدادي المدعوم من الوحي المتمثل بالأئمة المعصومين بعد النبيﷺ وان كان في أحد مراحله يستوجب الاستتار وممارسة دور المسؤولية وتوجيه الأُمة وتفادي انحرافها وترشيدها الى حيث الاستقامة إلّا أن المسؤولية فيها من الظاهر الاجتماعي تقع على عاتق الفقهاء الملتزمين بخط العصمة.

إذن فالأُمة الإسلامية فيها ما يساعدها على البقاء والقدرة على النمو.

وجاءت الرسالة الإسلامية لهداية الناس كافة ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ**﴾ وهذا الغرض الإلهي يتضمن اللابدية في التحقق وعدم تخلف ارادة الله سبحانه عن هذا الغرض، من هنا فقد أرسل الله الرسل بأعداد كافية كل ذلك من أجل أن تهتدي البشرية الى حيث سعادتها حتى تكللت جهودهمعليهم السلام أخيراً بارسال خاتمهم النبي محمدﷺ لينتصر لرسالاتهم ويوضح في رسالته الأهداف التي بعثوا من أجلها ويزيح الغبار والتشويش الذي أصاب دعواتهم التوحيدية ثم يبين عمق المخطط الإلهي المستقبلي الذي يمهد للبشرية ويسهل لها عملية الارتباط به من أجل أداء دورها الربّاني حتى خاتم الأوصياء المهدي بن الحسن العسكري حيث تقترب نحو كمالها في ظل ربوع دولته المباركة.

ولما قلنا في مطلع البحث أن الرسالة الإسلامية عالمية فيأتي الخطاب القرآني الذينزل به الوحي على صدر النبيﷺ الحامل في طياته تجارب الماضين ومعاناة النبيينعليهم السلام مع أقوامهم ليجعلها بين يدي أُمة الإسلام لتكون زاداً في التبليغ، فخطابه قد تمتع بالعمومية والشمول ليكون حاكماً على مسيرة

الأُمة ومصححاً لها الى يوم القيامة.

من هنا تناول الفقهاء الإسلاميون مسألة الحجية في الخطاب القرآني أو السنّة بالأُمة التي عاصرت النبيﷺ، أم تمتد الى الأجيال اللاحقة؟ فقالوا تحت عنوان الاشتراك في الحكم: إذا ثبت حكم لواحد من المكلفين أو لطائفة منهم زمن الرسالة، ولم يكن هناك ما يدل على مدخلية خصوصية لا تنطبق إلّا على شخص خاص أو طائفة خاصة أو زمان حضور الإمام، فالحكم مشترك بين جميع المكلفين رجالاً ونساءً الى يوم القيامة، سواء كان ثبوته بخطاب لفظي أو دليل لبّي من إجماع أو غيره(١).

إذن فالخطاب شامل وبه يتم استيعاب حركة الإنسان مهما اختلف زمانها.

ولم يقتصر المخطط الإلهي في حفظه للأُمة وخلودها حتى تحقيق الغرض الذي خلقت من أجله، على هذا المقدار وهذا النوع من الخطاب وإنّما رافق هذا العنصر المكتوب عنصر آخر تمثّل بالمعصوم الذي يلاحظ ويرشد مسار الأُمة .

وقد وردت أحاديث تؤكد استمرارية خط الإمامة بمقدار استمرار حياة الإنسان في هذا الكوكب من قبيل: «إن الأرض لا تخلو من حجة» بلا فرق فيما إذا كانت الحجة ظاهرة للعيان وتمارس دورها المكشوف، أو تمارس دورها في حالة الاستتار عن الأنظار والغيبة عن الأبصار .

ويمكن استفادة وجود الامام المنصوص عليه وحضوره في كل عصر من ماورد عن النبيﷺ في كتب الفريقين:

---

(١) القواعد الفقهية، محمد جواد اللنكراني: ٢٩٥ .

« من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية »(١).

وفي رواية: **« من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية »**(٢). وفي أُخرى: **« من مات بغير امام مات ميتة جاهلية »**(٣).

ولا نريد أن ندخل في معنى الإمامة ليكون المقصود منها هو الحاكم السياسي حتى لو كان منحرفاً فهذا ما لا يعقل أن تريده هذه الأحاديث، حيث عبّرت بـ «الإمام» الذي يراد منه القدوة ولم تعبّر بالحاكم، والسلطان أوالخليفة. كما ترفض الأحاديث أيضاً تعدد الإمام إذ الخطاب للأُمة الإسلامية المتوحدة فلا معنى لتعدد أئمتها.

وبضم طائفة أُخرى من الروايات الصادرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يتأكد أن المقصود بالإمام في هذا العصر هو محمد المهدي عليه السلام(٤).

فقد جاء عن الإمام الرضا عليه السلام حين سئل : أتكون الأرض ولا إمام فيها ؟ فقال عليه السلام : **« إذن لساخت بأهلها »**.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: **ونحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك السماء أنت تقع على الأرض إلّا باذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض، ولولا ما فى الأرض منا لساخت بأهلها».**(٥)

---

(١) كنز العمال: ٢٠٧/١ وصحيح بن حبان: ٤٣٤/١، وبحار الأنوار: ٣٣١/٢٩، ووسائل الشيعة: ٢٨٧/٢٠.

(٢) مجمع الزوائد: ٢٢٥/٥ .

(٣) مسند أحمد: ٩٦/٤ .

(٤) ينابيع المودة: ٣٦٠، وبحار الأنوار: ٦/٢٣، والكافي: ١٧٩/١ .

(٥) بصائر الدرجات: ٤٨٨ و ٤٨٩ والأمالي للشيخ الصدوق: ٢٥٣ .

وعن الإمام: **ما ترك الله عزّ جل الأرض بغير امام قط منذ ـ قبض آدم عليه السلام ـ يُهتدى به الى الله عزّ وجل، وهو الحجة على العباد، من تركه ضلّ، ومن لزمه نجا، حقاً على الله عزّ وجل**[1].

ومن خلال الطائفتين من الروايات يمكن القول بأن الإمامة مستمرة والخطاب يشمل الأُمة وهي تعيش مرحلة الغيبة الكبرى، فلابد أن يكون فيها امام لكي يلزم منه وجوب معرفته باعتباره اماماً للعصر.

والأوضح دلالة من ذلك ما جاء في حديث الثقلين قال صلى الله عليه وآله: «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوابعدي أبداً وانّهما لن يفترقا حتى يردّا عليّ الحوض**» الذي يلزم منه استمرار العترة مع الكتاب حتى يوم القيامة.

وبهذا يتعين أن يكون الإمام المقصود في زمن الغيبة الكبرى هو الإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري طبقا للنصوص المتظافرة حول عدد وأسماء الأئمة من أهل البيت عليهم السلام .

---

(١) اكمال الدين: ١/ ٢٢٠ .

الفصل الثاني

المراحل التاريخية
لمفهوم الانتظار وأثرها في صنع المستقبل

مرّ مفهوم الانتظار عبر التاريخ بأطوار متعددة، وكان السبب فيها يعود الى طبيعة قابليات الإنسانية وقدراتها في مدى استيعاب المفاهيم الإلهية والتخطيط الذي أراده الله سبحانه للبشرية، واحتياج الرفيع من المفاهيم الى نضج عال من الإيمان والاستعداد للتضحية يؤهلها لهضمه والتفاعل معه بقوة، وهذا ما لا تقدر عليه الإنسانية آنذاك، ولذا فلو تابعنا المسار التربوي البارز الذي مارسه الأنبياء مع الإنسانية وكيفية تبليغهم لِفكرة أن هناك يوماً موعوداً يأتي في المستقبل يسود فيه العدل الإلهي المطلق وتنعم الإنسانية جميعاً بخيراته ويرتفع فيه الظلم والجور لوجدنا لهذا الجهد والنشاط الذي بذله الأنبياء في نسق واحد أصداء مختلفة لازالت بقاياه في التركة الثقافية للحضارات، بل وفي مختلف الأديان السماوية حيث أشارت بأن هناك مصلحاً يخرج آخر الزمان. لكن الملفت للنظر أن جهدهم إتسم بالإشارات الاجمالية بسبب كون هذا اليوم ليس بقريب في علمهمعليهم السلام كما أنه لم يتحقق شيء من مقدماته القريبة، لذا فلم تكن هناك ضرورة ملحة لاعطاء التفصيلات حول هذه الفكرة أكثر من المقدار المجمل،

الأمر الذي جعل هذه الفكرة محطة للاختلاف فيما بين المذاهب.

وأما من الناحية العملية فقد كان الانتظار في مرحلة ما قبل الإسلام يلاحظ فيه غياب النشاط العملي لتطبيق فكرة المهدي في حياة الأنبياء انطلاقاً من عدم توفر الأرضية الواقعية المتمثلة بالاستعداد الكامل للتضحية في سبيل العدالة التي تقام على يدي هذا المصلح.

وقد نقل لنا القرآن الكريم مواقف الأمم أزاء رسالات الأنبياء، والذي يكشف لنا المستوى الفكري والإيماني الواطىء الذي يملي هذا اللون من التفاعل مع رسالة التوحيد، الأمر الذي شكّل عائقاً أمام تنفيذ كامل أبعاد الأطروحة الإلهية العادلة في مرحلة ما قبل الإسلام، فالمجتمع الذي عاصره النبي نوح مثلاً اتخذ موقفاً سلبياً أمام رسالته وهذا ما عبر عنه النبي نوح عليه السلام نفسه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِ إِلَّا فِرَارًا﴾.

أما المجتمع الذي بعث إليه النبي إبراهيم عليه السلام فقد رفض رسالته وشارك مختلف شرائحه في جمع الحطب لغرض حرق إبراهيم عليه السلام ولم يذكر لنا التاريخ بأن أحد الأفراد قد اعترض هذه العملية ووقف لصالح النبي إبراهيم عليه السلام، وهذا دليل على تخاذل الأمة وعدم استيعابها لرسالة التوحيد.

وهكذا أمة النبي موسى عليه السلام فقد واجهته بالخذلان وغلب عليها موقف ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

أما أمة النبي عيسى عليه السلام وخصوصاً من آمن به وهم الحواريّون فقد شككوا برسالته فقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الى أن قال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإذا كان الانتظار في عصر ما قبل الإسلام يستمد قوته وأبعاده من خلال مفهوم المصلح، في الوقت نفسه أن المنقذ لم يكن هو النبي هذا أو ذاك، فلابد إذن أن يكون الانتظار مفاهيمي أكثرمنه كونه واقعاً عملياً أي يتركز في حقل الاخبارات المستقبلية، أو له واقع تربوي، من كون المؤمن المنتظِر الذي يعمل في هذا الظرف ومع هذا النبي ويدرك بأن نهاية المعركة بين الحق والباطل ستنتهي لصالحه وهو عضو فيها، فهو اذن يتحرك بأمل وهمة عاليين ويتعالى على الواقع وتتضائل أمامه كل العقبات مهما صعبت، خصوصاً في واقع يريد أن يؤسس لمنهج التوحيد الذي يتكامل بتشريعاته وأحكامه على يدي خاتمهمﷺ.

وفي فترة بزوغ الحق ومجيء خاتم الأنبياء محمدﷺ اكتسب الانتظار قيمة أُخرى.

منها: أن المسلمين المنتظرين في هذا العصر يعلمون حق اليقين بأن المصلح في آخر الزمان يأتي طبق عقيدتهم فاذا كان نبيّهم آخر الأنبياء وخاتمهم فالمصلح هو آخر الأوصياء وخاتمهم، ولذا كان نشاط النبيﷺ منصبّاً حول مفردات متعددة كلها تتجه نحو هدف واحد على أن المهدي هو من عترة النبيﷺ ومن ذرية فاطمةعليها السلام، كما أنه من ولد الحسينعليه السلام، ومنها يُفهم أن القائد المدّخر هو ليس شخص النبيﷺ وإنّما يأتي بعد مرحلته إلّا أنه من ذريته.

وعليه فان الانتظار في عصر النبيﷺ كان يقترن باليقين بعدم حدوث يوم الظهور في ذلك الحين، وإنما سيحدث في المستقبل البعيد.

والانتظار هنا يأخذ بعداً كبيراً، إذ يلقي في نفس المسلم بأن عملية التغيير

والاصلاح مستمرة ولا تقتصر على الواقع العربي أو ما يحيطه، وإنما هي رسالة تستهدف كل العالم، ثم إن رسالته لم تكن محدودة بعمر النبيﷺ لتنتهي بوفاته وإنّما ستستمر الى آخر الزمان وسيشارك فيها أجيال مختلفة كل حسب دوره ومهمته، ولها أهداف كبرى.

وهذا التصوير لعمليه التغيير الشاملة التي ضخها النبي للأُمة المسلمة ينقل مفهوم الانتظار الى آفاق بعيدة، حيث ينطلق المسلم بروح عالية وهو رافع لواء الاصلاح والتغييرمن كون المعركة الحالية ليست معركة مؤقتة وطارئة وتتحرك بحدود أهداف معروفة عند العربي مثلاً، وإنّما هي معركة تستهدف الاطاحة بكل أبنية الشرك والضلال وإزالة كل الظلم من على وجه الأرض.

ومبادئ الإسلام السامية التي يعتنقها المسلم هي الكفيلة بازاحة ذلك، فلا دين ولا مفاهيم ولا قيم غيرها .

وبهذا يلقي الانتظار ضمن مرحلته المذكورة زخما عاليا في نفس المسلم، وتكون انطلاقته وخطواته بل وكل حركته منسجمة مع هذا التخطيط، لأن كل خطوة أو انتصار يكون له مساس وعلاقة مع الخطوات اللاحقة، فلا عبث ولا فوضى في العملية التغييرية الكبرى المستمرة مع الإنسانية التي يقودها المسلمون حتى آخر الزمان.

وبعد وفاةالنبيﷺ وانتقال القيادة الإلهية الىوصيّه وخليفته الإمام عليعليه السلام حسبما هو ثابت من كون الخلافة لا تتم إلّا بالوصية من صاحب الرسالة وبأمر من الله سبحانه، يرتقي الانتظار الى بُعد آخر هو أن المهدي الموعود من عترة النبيﷺ ومن ذرية فاطمة، ثم هناك اخبار أُخرى تؤكد بأن الظهور لا يتم إلّا بعد

مرور الأُمة بظروف ظالمة وتمحيص عصيب، وهذا ما يترك في نفس المسلم في مرحلة ما بعد النبيﷺ أن المنقذ هو هذا الإمام المعصوم أو الإمام الذي سيليه، لأنه قد حصل يقين بأن شخص المهدي هو من هذه السلسلة لا خارجها.

وطبيعي ان الانتظار في هذه المرحلة يكون كفيلاً بتفسير المظالم الطارئة، ومن ثم العلاقة مع الإمام المعصوم ستكون أكثر انشداداً، وكذا تفسير المظالم التي تصب عليه حين يتعرض للظلم والتضعيف، كل ذلك يدفع بالمسلم أن لا يعتقد بأن رسالته تتحدد بهذا النشاط الذي يبدو من الإمام لتنحصر بالتالي نشاطاته بهذه الدوائر الضيّقة التي تحبس أنشطة الأئمة وتضيق على رسالتهم.

فالانتظار ببعده الإلهي يمد المسلم في عصر الأئمة بالهمة العالية ومواصلة الطريق والتحمل والتضحية من أجل المبادئ، وان رسالته ستنتصر في المستقبل القريب، وبالتحديد يوم ظهور القائمﷺ. فعليه تتضاءل الصعاب لأن الزمن يجري لصالحه.

وبعد أن دخلت الأُمة في عصر الغيبة الصغرى ومن ثم الكبرى انتقل الانتظار الى آخر مراحله الذي يكون الإنسان فيه مستعداً لأن يكون هو بالذات أحد الأفراد المشاركين في تطبيق العدالة حين الظهور، وتتلاشى أمامه كل الاحتمالات، مثل أن الظهور سيكون بعيداً بسبب القطع بأن المصداق الحقيقي للقائد الموعود هو المهدي محمد بن الحسن العسكري، وبهذا يأخذ الانتظار أبعاداً متعددة ليحمل الإنسان غير المعصوم مهمة التغيير مباشرةً، ويكون من الناحية النفسية والعقائدية والتعبوية على أهبّة الاستعداد ويتوقع المفاجأة بظهور إمامه، وفي هذه المرحلة من الانتظار قد زوّدت الأُمة بمنظومة ثقافية ووصايا

وإرشادات صدرت مرة عن النبي ومرة عن الأئمة المعصومين، تؤكد نوع العمل الذي يدخل كشرط للظهور، وهي مفردة من مفردات الانتظار الملقاة على عاتق المنتظر، وتحذّر أُخرى من الانزلاق والانحراف وراء التيارات التي تبرز في تلك المرحلة وتشكل علامة للظهور.

ومن التكاليف التي تحملتها الأمة حال غيبته هوأن تتعبد بالانتظار والاستعداد ليوم ظهورهعليه السلام .

في الفقرات اللاحقة من البحث سنبين الموقف الانتظاري المطلوب ببعده العبادي.

الفصل الثالث

القاعدة العبادية
لمفهوم الانتظار منهج تحريك نحو المستقبل

يتكئ الانتظار على قاعدة مبدئية تمدّه بالقوة والاستمرار، فحين يعلم الإنسان المسلم بأن الله سبحانه لم يخلق الإنسان عبثاً وإنّما خلقه لغرض وهدف يتجسد بالعبادة ويتّسم بالتكامل، وأن هذا البعد العبادي الذي خلق الإنسان لأجله لم يتحقق حتى الآن، إذن فلابد من تحققه فيما بعد.

كما توجد آيات أُخرى تتحدث عن حتمية الظهور وقيام العدل الإلهي في ظل قيادة الإمام المهدي عليه السلام.

فهذان محوران يجعلان حركة المسلم تتجه نحو هدف واضح غير متأثرة بالظروف، وتعطي للانتظار مفهوماً أعمق.

واذا كانت المبادئ الإسلامية تترابط فيما بينها، وكلها تدخل في اطار التوحيد، فمبدأ الاستخلاف لا ينفصل عن هذه القاعدة، باعتبار أن الاستخلاف يستلزم الانقياد والتبعية لله سبحانه الذي يعتمد العبادة بالدرجة الأُولى ويجعله طريقاً لاحباً للانسان يربطه بخالقه ومنتهى آماله، ولهذا نجد الأنبياء عليهم السلام قد أكدوا مبدأ الاستخلاف من خلال الدعوة الى العبادة، إذ كثيراً ماقالوا :

﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾.

فالأنبياء الذين مارسوا مهمة الخلافة في الأرض كانوا أعبد الناس، وكانت حركتهم تتركز على ربط حركة المجتمع السياسية والاجتماعية بمحور العبادة التي طالما رددها الأنبياء، من هنا كانت العبادة تستفز الطغاة لأنها في نظرهم تخالف مبادئهم الوضيعة، وقد تعرض الأنبياء في سبيل الدعوة الى هذا المبدأ الإلهي لشتى أنواع التعذيب والاضطهاد من قبل الطغاة.

ولو كانت العبادة تعنيمجرد شعار لا تستهدف الحياة ولا مصالح الحكام لما واجهوها.

وعلى هذا الأساس فالعبادة تقوم بصهر حركة المجتمع وفق اتجاه واحد، وتتحقق عن طريقها طموحات المجتمع وتتجه به نحو غايته الكبرى التي صرحت بها الآية الشريفة ﴿وَمَآ خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فإذا كان الانقياد لله هو الأساس بحيث يكون عمل الفرد والجماعة على كافة الصُعد خاضعاً لموازين الأوامر والنواهي والقواعد والأحكام الإسلامية فهذا يؤدي بحركة الإنسان المنتظِر الى استمداد قوته من عنصر العبادة.

من هنا فقد اكتسب الانتظار قيمةً عباديةً لأنه سَعيٌ جاد لتحقيق العبادة بمعناها الأعم، فقد ورد في الحديث: «**أفضل العبادة انتظار الفرج**» «**وأفضل الأعمال انتظار الفرج**» والعبادة بحد ذاتها عمل، فالانتظار يرتقي الى مستوى القمة من هذه الناحية ليكون على رأس الأنشطة والأعمال، وله الأولوية في ذلك حيث ينبغي الاهتمام به في مرحلة الغيبة الكبرى التي هي من مراحل التاريخ

الإسلامي التي يبرز بها عمل المكلف، عن النبي: «**أن العبادة انتظار الفرج**»(١). وعنه ﷺ : « **أفضل العبادة انتظار الفرج** » (٢).

وورد في الحديث: **انتظروا الفرج ولا تيأسوا من روح الله، فان أحبّ الأعمال الى الله عزّ وجل انتظار الفرج ما دام عليه العبد المؤمن، والمنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه في سبيل الله** (٣).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**أفضل العبادة انتظار الفرج**»(٤)

فإذا اتضح أن العبادة في عقيدتنا تكتسب هذه القيمة ولها هذا البعد، إذن من اللازم علينا أن نتوخى المنهج الذي يضمن لنا أداء أدوارنا ومسؤولياتنا كمنتظرين وفق ما يؤسسه المنهج نفسه، كما يدعونا الأمر مرة أُخرى الى أن تتضح مواقفنا ومتبنياتنا فيما إذا كانت منسجمة مع الغرض والحكمة الإلهية التي تريد أن ينتصر الدين الإسلامي على أساسها، أم تتقاطع معها، مما يكتشف المسلم وهو في ظروف التحدي أنه في حركة مضادة تسعى بقوة لعرقلة المسيرة الإلهية، وأن قيمه التي اخترعها وتبناها جعلت منه يدور في حلقة مفرغة أومعاكسة للمسار الصحيح هذا ما سوف نبيّنه في السطور اللاحقة من هذه المقالة.

---

(١) كنز العمال: ٧٩/٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي: ١٩٢/١ .

(٣) معجم أحاديث المهدي: ١٧٠/١ .

(٤) اكمال الدين للصدوق: ٢٨٧.

الفصل الرابع

انتظار الأُمة ومسؤوليتها في مرحلة الانتظار
مشروع لمستقبل الأُمة لالصالح النخب

يصل بنا الحديث عن دور الأُمة ومسؤوليتها حال غيبة الإمام عليه السلام بشكل عام ومسؤولية الأُمة في مرحلة الغيبة الكبرىٰ بشكل خاص حيث يختلف بطبيعة الحال عن مرحلة حضور الإمام، أي زمن الأئمة الأحد عشر.

من هنا سنقوم ببيان دور الأُمة ومسؤولياتها حال غيبة الإمام الذي يعني بتعبير آخر «الانتظار».

الأُمة حين تبحث عن مصدر أصيل يرشدها للعمل الصحيح والمنسجم مع ما تتطلبه مرحلة ما بعد النبي صلى الله عليه وآله لابد للأُمة من مراجعة الرصيد الثقافي الذي يبيّن لها معالم الطريق، والمشكلة التي تقف أمام هذه الخطوة هي طبيعة الاختلاف في المرجع.

فلو أردنا معرفة من هو المنتظِر الصحيح، سواء من يتبنى منهج أهل البيت أو من يعتقد بمرجع اسلامي غيرهم، لابد لنا أن نرى مدى انسجام حاضر الفرقة مع مستقبل رسالتها، والرسالة نعني بها المبادئ المشتركة بين الجميع، وعدم تقاطعها مع أهداف الرسالة الإسلامية، فإذا وفّر لنا المنهج الذي تتبناه الفرقة، أي

فرقة، أن الحاضر القيمي الذي يميزها عن باق الفرق يكفل لنا تحقيق المستقبل ويحرك الأُمة نحو قيمها، ويكون مستقبلها بما لا يقبل الشك أفضل من حاضرها بل يجعلها تترصد ماهو ضعيف في الحاضر لتتخلص منه في المستقبل وهذا بالتأكيد تريده الرسالة الإسلامية ويبلور مفهوم الانتظار الذي ستتضح صورته في المنظور الإسلامي.

أما إذا اخفقت الفرقة هذه أو تلك ولم ترتق الى مستوى هذا التصوير فهذا يعني أن منهجيتها وطريقها لا ينسجم مع قيم الرسالة التي هي موضع اعتقاد الجميع، وبالتالي لا يقال عنها أنها أُمة منتظرة تتحرك نحو نهاية تحسم لصالح رسالتها، ونقصد بها الإسلامية، بل يمكن لنا أن نقول انّها أُمة تريد أن تكرر سلوكات وتجارب ضعيفة أو منحرفة أو فاشلة تتقاطع مع الرسالة وتعوق مسيرتها.

من هنا نجد انفسنا أمام عدة اتجاهات إسلامية تتقاطع فيما بينها من الناحية العملية بعد فرض الاختلاف من الناحية النظرية لمفهوم الانتظار، كما تتأرجح الأخرى بين موقف الاهمال والميل للعمل التكراري والقطيعة مع مفهوم الانتظار المهم والحيوي في حياة الإنسان، وتوجد متبنيات فكرية أُخرى دفعت بأصحابها لأن يكون عملها الانتظاري عملاً مقيتاً جامداً لا يساهم في التطوير والتجديد.

وأخيراً دفع البعض من الاتجاهات الفكرية التي نشأت ما بعد النبي أصحابها الى الموقف السلبي أو قل المعادي ازاء الانتظار.

والنتيجة المشتركة التي يقع فيها الجميع هو الموقف اللامسؤول أمام قضية انتصار الدين وحتمية ظهوره على الأديان، الأمر الذي صرحت به الآيات والروايات بالاضافة الى ايجاد أزمة مزمنة أدت في تخلف العالم الإسلامي

وارباك مناهجه الاصلاحية وعدم القدرة على النهوض والعجز عن استخلاص منهج تغييري يوحد طاقات الأُمة ويعيد بناءها.

وفيما يلي نحاول أن نستعرض ثلاثة اتجاهات رئيسية لنرى من خلالها ماهو الاتجاه المنسجم من الناحية النظرية والتطبيقة مع أصل الرسالة ليكون هو الخط السليم الذي لا يشوبه الضعف، ويثبت من كونه هو الطريق الذي يؤدي الى الانتظار الإسلامي المطلوب.

الاتجاه الأوّل: مدرسة أهل الحديث

ترى مدرسة أهل الحديث أن الرجوع للسلف الصالح والاقتداء بسلوكياتهم وأفعالهم أمر يضمن لنا الحاضر، ثم يجعل الأُمة على جادة الحق، وهذا ما يؤدي الى ضمان المستقبل أيضاً، وقد استدلوا لصحة هذا المنهج من كون النبي قد قال: «**خير القرون قرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه**» وبهذا تكون الحقبة الزمنية ضمن قرونها الثلاثة هي الفترة التي ينبغي للأُمة الإسلامية التي تأتي وتولد في هذه القرون أو بعدها أن تحذو حذوا السلف الذي عاصر تلك الفترة الزمنية من حياة الأُمة.

وتبنّى الخط الحنبلي هذه المسألة وخاض من أجلها معارك طاحنة وفتن مدمرة.

قال ابن الأثير: لقد حدثت فتن كثيرة سنة (٣١٧ هـ) منها وقعت فتنة عظيمة في بغداد بين أصحاب أبي بكر الرازي والمزودي الحنبلي وبين غيرهم من العامة ودخل كثير من الجند فيها.

وكان الحنابلة يقفون في الطرقات ويترصدون الشوافع وينكلون بهم ضرباً وتهجماً حتى صارت الكراهية التقليدية انّه إذا كتب فيما بعد أو تحدث الشافعية

عن واحد من الحنابلة غمزه ونال منه. ان لم يستطع بصريح العبارة فلا أقل من الكتابة والتحريض، وكذلك لو كتب واحد من الحنابلة على الشافعية وكتب التراجم مليئة بالأمثلة والشواهد(١).

وأنتج لنا فكر أهل الحديث، أوقل الحنابلة ومن تبعهم، أبناء العامة وتمسك بها دعاة السلفية كأحمد بن تيمية ومقلده محمد بن عبدالوهاب فيما بعد، عدد من المتبنيات المخالفة للأُصول الإسلامية والتي منها عقيدة وجوب اطاعة السلطان الجائر .

قال أحمد بن حنبل في احدى رسائله: (السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فأجمع الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف وسمي أمير المؤمنين، والعزّ ماض مع الأُمراء الى يوم القيامة البر والفاجر، واقامة الحدود الى الأئمة وليس لأحد أن يطعن عليهم وينازعهم، ودفع الصدقات اليهم جائز، فمن دفعها اليهم أجزأت عنهم، براً كان أو فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولي، جائزة اقامته، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالفة للسنة.

ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وكان الناس قد اجتعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه من الوجوه، أكان بالرضا أو بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله، فإن مات الخارج عليه، مات ميتة جاهلية (٢).

فهذا المنهج المدعى بالاصلاحي الذي شمل هذه المفردة وغيرها الذي تبناه دعاة التجديد من السلفية يؤاخذ عليه عدد من المؤاخذات ونذكُر وفقاً لصلاحيته في قيادة الأُمة ومدى انسجامه مع مفهوم الانتظار فالمناقشة ستكون

---

(١) الكامل لابن الأثير: ٨٣/٨ .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة: ٣٢٢/٢ .

بهذه الحدود منها ـ أي المؤاخذات ـ :

أولاً: أن الرجوع لأخذ المعلومة طبيعي المعلومة التي تحتاجها الفـرقة أو المذهب لغرض تدارك المستحدثات من المسائل التي تواجهها بالوقت الذي ترى الفرقة أن سيرة السلف هي المقياس الذي يصحح الحاضر فهذا الرجوع يؤدي الى أخذ المتناقض والمتعارض أحياناً مع أصل الشريعة لأننا نعلم أن المتبنيات الفكرية قد اختلفت وكل منها يدعي على انّه الفرقة الناجية في ظرف لا يعرف من هو الموقف الصحيح الذي ينبغي الاقتداء به.

وبناء على ماهو واقع تأريخياً من أن الصحابة وغيرهم من التابعين قد وقعت فيما بينهم اختلافات كثيرة كالحروب التي خاضها الإمام علي مع الناكثين والقاسطين والمارقين وقتل الإمام الحسين واباحة المدينة المنورة وجرائم الحجاج وبني مروان ثم ما فعله بنو العباس.

ثم إنّ الاختلاف في فهم الأحكام الذي يؤدي الى الاختلاف في ملاكات الشريعة والاساءة الى مقاصدها حيث تتعقد المسألة أكثر فأكثر.

ثانياً: الرجوع هنا يعني الرجوع للتاريخ الذي مورس في السابق لا الرجوع للقيم الثابتة بما يحمل هذا التطبيق الذي ينشده هذا الاتجاه من تناقضات تكون الشريعة في كثيراً من الأحيان تخالفه.

ثالثاً: تبني وتقليد سلوكيات السلف أو الأمة التي جاءت بعد النبي يؤدي الى اعادت تلك الحقبة الزمنيه وبتعبير آخر تكرار الفتن والاضطرابات التي حدثت بعد النبيﷺ .

رابعاً: التعبد بالخط المتشنج الذي يرى له الفوقية على المذاهب الأخرى.

لا يمتلك التطلع للمستقبل وفق القيم الإلهية التي بشرت بها الرسالة الإسلامية لتكون هي الحاكمة على السلوك والتاريخ لأنه تبني تاريخي لا قيمي وهذا يعني آنهامحاوله لادارة ظهر الأُمة نحو المستقبل وجعل افقها نحو الماضي.

خامساً: إن وجوب اطاعة الإمام الجائر والسكوت عنه وعدم الخروج عليه يؤدي الى إبقاء الفساد وتكراره في المستقبل وتقديمه للأجيال المقبلة بحاوية مقدسة ومغلفة باطار الشريعة وهذه الفكرة تجعل الأُمة بلا انتظار وإيما انتظار فاسد تصنعه الأُمة بنفسها؟!

وهذا ما ينتج لنا أُمة بلا انتظار لأن الانتظار يعني الاستعداد لخلق وصناعة المستقبل وفق القيم التي جاءت بها الرسالة.

سادساً: تكفير زعماء الصحوة الإسلامية فإذا كان الإسلام والقرآن يدعوان الى الوحدة وتجنب أسباب الاختلاف وتحجيمها إن وجدت، فان هذا الاتجاه الذي اكتسح الساحة هذه الأيام يدعو الى التفرقة ونبذ الوحدة وتمزق جسد الإسلام الاجتماعي.

وقصة محمد الغزالي ليست ببعيدة عنّا فقد ألّف هذا الرجل كتاباً بعنوان: (السنّة بين أهل الفقه والحديث) وقد تعرض فيه لعلاج أُمّهات المسائل الفكرية التي تعصف بساحة الصحوة الإسلامية ومن بينها أُسلوب دعوة السلفي فما شعر الرجل إلّا ودعاة السلفية ينهالون عليه بالنقد والتجريح والتسفيه ودعاه البعض الى التسوية وتأليف كتاب جديد من الأفكار والآراء التي أوردها في هذا الكتاب فهو بنظر السلفية مارق عن الدين مخالف لرب العالمين.

كما كفّر دعاة هذا الاتجاه زعيم حركة العدل والاحسان الإسلامية الشيخ عبدالسلام ياسين. لأنه قد تبنى آراء صوفية.

أما الحديث عن عدائهم لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام والحقد عليهم فلا يسعنا الخوض في تفاصيله ونكتفي بأنهم ينعتونهم بالزنادقة والمشركين والجهمية وغيرها من النعوت التي لم ينزل الله بها من سلطان ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً**﴾(١).

الاتجاه الثاني

وهو الاتجاه الذي استجاب للظروف القاهرة التي مرت بها الأمة ولم يقوىٰ على التمسك بخطاب الشريعة الداعي الى مواجهة الظلم والانخراط مع خط التضحية والجهاد ممّا دعاه الى انتقاء النصوص التي تبرر له موقفه وتجعله في مأمن من خطاب الشريعة وخطر السلطان، وقد أدّى به موقفه التوفيقي هذا الى نحو موقفين:

الموقف الأوّل: الذي تمسك بعدد من الطوائف الروائية كدليل لصحة موقفه السياسي أو النفسي وبهذا الصدد سوف نعرض لنماذج من تلك الروايات لتقوم بعد ذلك بمناقشتها لنثبت فيما إذا كانت تصلح كدليل شرعي يبرر لهؤلاء موقفهم السلبي من الانتظار الذي أرداته الشريعة أم لا؟

الطائفة الأُولى: تحدثت روايات كثيرة تشير الى وجوب العزلة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. من تشرف لما ستشرفه. ومن وجد فيها ملجأ فليعُذ به.**

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من**

---

(١) الكهف: ٥ .

الماشي فيها والماشي فيها خير من الساعي إليها. ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له ابل فليلحق بابله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه... الحديث وذكر له سندين.

وكذلك وردت أخبار أُخرى تؤكد الابتعاد عن الانـدكاك والانـخراط فـي ظواهر الحروب وضرورة عدم المشاركة فيها.

عن رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أفلا آخذ بسفي فأضرب به من فعل ذلك؟ قال: **شاركت القوم إذن! ولكن ادخل بيتك.** قلت يا رسول الله، فإن دخل بيتي؟ قـال: **إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق طـرف ردائك عـلى وجهك، فيبوء بإثمه وإثمك، فيكون من أصحاب النار.**

عن رسول الله ﷺ : **فكسّروا قسيكم وقطعوا أوتاركم واضربوا بسيوفكم الحجارة. فان دخل على أحدكم، فليكن كخير ابني آدم.**

عن رسول الله ﷺ : قالوا : **فما تأمرنا؟** قال: **كونوا أحلاس بيوتكم.**

وأخرج إبن ماجة [1] عنه ﷺ أنه قال: «**إنها ستكون فتنة وفرقة وإختلاف، فإذا كان كذلك، فات بسيفك أحداً فأضربه حتى ينقطع.** ثم إجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أومنية قاضية.

عن الإمام الباقر ﷺ حين يسأله الراوي: فما أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان ـ يعني زمان الغيبة ـ قال: حفظ اللسان ولزوم البيت.

عن الإمام الباقر ﷺ ـ في حديث ـ قال:

وإذا كان ذلك، فكونوا أحلاس بيوتكم.

---

(١) سنن ابن ماجة: ١٣١٠/٢ .

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **فإذا كان ذلك فالزموا أحلاس بيوتكم، حتى يظهر الطاهر بن الطاهر المطهر ذو الغيبة.**

نعم يكون الموقف الشرعي ازاء الجهاد في بعض الأحيان سلبياً وذلك حين يكون ترك العمل الإسلامي واجباً والمبادرة اليه حراماً من قبيل إذا كان الجهاد بدون اذن الإمام أو القائد الإسلامي أو رئيس الدولة الإسلامية.

وهكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون الموقف ازاءه سلبياً فيما إذا لم يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتمل التأثير وكان مستلزماً مع الضرر البليغ أو إلقاء النفس في التهلكة فان هذا الأمر والنهي يكون محرماً وحرمته مطابقة مع القواعد العامة فان معنى الاشتراط بعدم الضرر هو سقوط الوجوب معه فلا تكون هذه الفريضة الإسلامية لازمة والحال تلك، فإن الضرر بليغاً به كان المورد مندرجاً في حرمة القاء النفس في التهلكة أو حرمة التنكيل فيكون محرماً. وإذا حرم الأمر بالمعروف كانت العزلة والسلبية المقابلة له واجبة.

وهذا ما نريد الكلام فيه وإنّما الذي زيد بيانه هو توفر شروط الجهاد مع توفر شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا أن موقف المسلم ازائهما هو السلبية.

فيكون المراد بالإنعزال والإبتعاد عن المجتمع الذي تسوده الفتنة، فيشمل ما إذا اتصل الفرد به لأجل إصلاحه وتقويمه. ويكون ذلك منهياً عنه في هذه الروايات، خلافاً للحكم الشرعي الإسلامي وقواعده العامة،

الطائفة الثانية: الروايات التي توصي بالفرار من الفتن

عن النبي صلى الله عليه وآله يقول: **يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم**

يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن.

عن رسول الله ﷺ: **تكون فتن، على أبوابها دعاة الى النار، فأن تموت وأنت عاض على جذع شجرة خير لك من أن تتبع واحداً منهم.**

وشعف الجبال رؤوسها، وجذع الشجرة أصلها. والمراد من العض عليه زيادة ملازمته والإلتصاق به.. وفيه دلالة على الخروج الى الأرياف والأطراف... يسكن الفرد البساتين ويجاور الأشجار أو قمم الجبال، لينجو من مجاورة الفتن واتباع دعاة الباطل.

وهذه الروايات، وإن كانت بسعة مدلولها، مخالفة للقواعد العامة التي عرفناها، إلا أنه بالإمكان تقييدها ، فتبقى خاصة بصورة وجوب العزلة والسلبية شرعاً... وأما مع حرمتها، يكون الواجب هو العمل الإسلامي الإجتماعي المنتج. وفي هذا القسم من الأخبار ما يؤيد هذا التقييد، حيث نجدها تحث على الجهاد الى جنب النصح بالفرار من الفتن.

بل تخص وجوب الفرار بالعاجز عن الجهاد، ويكون للجهاد الرتبة المقدمة على غيره، كما هو الصحيح في قواعد الإسلام العامة.

عن رسول الله ﷺ انه قال:: **خير معايش الناس لهم، رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، ويطير على متنه، كلما سمع هيعة أو قزعة طار عليه إليها، يبتغي الموت أو القتل، مظانّه. ورجل في غنمية في رأس شعفة من هذه الشعاف؛ أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربّه، حتى يأتيه اليقين. ليس من الناس إلّا في خير.**

عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: **رجل مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.** قال: ثم مَن؟ قال: **ثم امرأ في شِعبٍ من يعبد الله عزّ وجل، ويدع الناس من شره.**

إذن فالتكليف الإسلامي في عهد الفتن والانحراف، منقسم الى قسمين، لاثالث لهما. فإن المسلم الشاعر بالمسؤولية تجاه دينه إما أن يكون قادراً على الجهاد أو العمل المنتج لتقويم المعوج والكفكفة من التيارات الكافرة. وإما أن لا يكون قادراً على ذلك. فإن كان قادراً على العمل وجب عليه ذلك لا محالة. وإن كان عاجزاً عنه فخير له أن يعتزل الفتنة وأهلها. وأما معايشة المنحرفين مع الضعف في الإيمان والإرادة، فتؤدي الى ما لا تحمد عقباه في الدين والدنيا.. كما هو واضح ومُعاش للناس يومياً.

الطائفة الثالثة: الروايات التي توصي بلزوم الصبر على الظلم

عن ابن عباس عن النبيﷺ قال: **من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فأنه من فارق الجماعة شهراً، فمات إلا مات ميتة جاهلية .**

عن رسول اللهﷺ: **إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني** ـ وزاد مسلم: ـ على الحوض.

عن حذيفة بن اليمان في حديث له مع رسول اللهﷺ قالﷺ: «**يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنتي. وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس.** قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: **تسمع وتطيع للأمير، وأن ضرب ظهرك وأخذ مالك. فاسمع وأطع.**

أن الأمر بالصبر مع الحاكم المنحرف وتحمل ظلمه وتعسفه بالسكوت، غير مطابق للقاعدة الإسلامية، والأخبار الدالة عليه لا يمكن قبولها بحال. وذلك لأنها تعاني من الطعن في صدورها عن النبيﷺ وفي دلالتها على المطلوب أيضاً.

أما الطعن في الصدور، فهو وضوح أن هذه الأحاديث تتم في مصلحة

الحكام الذين تزعموا على الأُمة الإسلامية بإسم الإسلام واستبزوا منها دماءها و خيراتها... فقد أرادوا بوضع هذه الأحاديث أن يأمروا المسلمين بالرضوخ لهم والصبر على جورهم، وينسبوا ذلك الى رسول اللهﷺ وهذه الطائفة سنناقشها تحت مقولة وجوب اطاعة أئمة الجور التي قال بها البعض.

الطائفة الرابعة: الروايات التي توصي بكف اللسان في الفتنة

عن الإمام الباقرؑ حين سئل عن أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان ـ يعني زمان الغيبة ـ قال: **حفظ اللسان ولزوم البيت.**

عن رسول اللهﷺ قال: **ستكون فتنة صماء بكماءعمياء**(١). **من أشرف لها استشرفت له. وأشراف اللسان فيها كوقوع السيف.**

وعنهﷺ: **تكون فتنة... اللسان فيها أشد من السيف**(٢)

عنهﷺ: **اياكم والفتن. فان اللسان فيها مثل وقع السيف.**

الموقف الثاني: أدلجة الأحاديث وصياغة النظرية

وهو الموقف الذي اتّجه نحو أدلجة الأحاديث وصياغة نظرية عملية وسلوك على أساسها فنشأ الفقه الصوفي، وبهذا الصدد يحدثنا كتاب جامع الأُصول في الأولياء، بعد أن يبيّن شرعية العزلة وضرورة الابتعاد عن الناس، قائلاً:

(أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخلها نور الشمس ولا ضوء النهار، فيسد على

---

(١) وصف الفتنة بهذه الأوصاف بأوصاف أصحابها، أي لا يسمع فيها الحق ولا ينطق به ولا يتضح الباطل عن الحق. هامش السنن.

(٢) الترمذي: ٣/٣٢٠.

نفسه طرق الحواس الظاهرة، وسد طرقها شرط لفتح خواص القلب عند الأخيار.)

ويشير الى الشرط الثاني للعزلة قائلاً: (أن تعتقد في نفسك أنك تدخل الخلوة لكلي يستريح الناس من شرّك بأن لا يتكلم مع أحد في الخلوة أو خارجها، إلّا مع شيخه، وفي الضرورة، وأن لا ينام إلّا عن غلبة. وإذا كان في خلوته لا يقتحمها لمجيء لسنا للتبرك أو الزيارة اليه فلينظر الى حال رسول الله في ابتداء أمره وارادة تكيمل جمعيته على الله تعالى: كيف كان يتحنّث في غار حراء بمكة ولا يستصحب أحدا.)

ويشير الى مدة الخلوة كم هي فيقول: أن لا يعين مدة للخلوة حين وقت دخوله.

ودليلهم للعزلة قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ الى قوله وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

وقوله النبيﷺ: **أحب الناس الى الله تعالى الفرّارون بدينهم، يبعثهم الله تعالى مع عيسى بن مريم يوم القيامة.**

وقولهﷺ: «**الدنيا ملعونة وما فيها ملعون، إلّا كلمة لا إله إلّا الله وما إليها**».

وقولهﷺ: «**انّ الله لم يخلق خلقاً أبغض من الدنيا، وأنه لم ينظر إليها منذ خلقها**».

وغيرها من الأحاديث التي ذكرناها في الطرف الأول.

وطرحوا للعزلة فوائد منها:

السلامة من الغيبة والرياء والنفاق والاشتغال بزينة الدنيا، والأمان من ملل الأصدقاء وشر الفاقة عن العدو الشامت والصديق المتوجع.

وأدى هذا التفكير بأصحابه أن ينتج أدباً صوفياً يعتز به الأتباع فقد نقلوا عن أبو الزيد

الصوفي قوله: رأيت ربّي في المنام فقلت كيف أصل إليك. قال: فارق نفسك وتعال.

وهكذا نقلوا عن يحيى بن معاذ قوله: من كان أنسه بالخلق ذهب أنسه إذا فارقها، ومن كان أنسه بالله في الخلق استوت عنده الأماكن كلها.

وقوله: وجدت خير الدنيا والآخرة في العزلة والخلوة، وشرها في الخلطة.

وقوله: علامة الإفلاس الاستئناس بالناس.

وقوله: **الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك** (١).

وجاء في اعتقادهم أن من يذل نفسه ويظهر دناءته، فهو الأعلى أخلاقاً والأكثر تسامياً، ولا غرابة في هذا.

وقالوا: كي نُذل النفس أشدّ اذلال، يجب علينا أن نكسر أنفسنا ونذلها أمامها بكل استطاعتنا.

فهؤلاء كانوا يعتقدون ويعملون كي لا تكون للنفس اهمية عندهم، يقول «سعدي» الشاعر الايراني المعروف:

أنا افتخر بأني نملة تداس تحت أقدام الناس، ولست نحلة يبكون من لسعتي.

ومقصود «سعدي» هو أن ايذاء الناس امرٌ سيء في نظر الإسلام. ولكن: هل الأمر دائر فقط بين كون «المرء» نملة أو نحلة حتى أقول اشكرك يا الهي، فانا لا امتلك القوة والقدرة وبالتالي فأنا لا أظلم الناس؟ إن كون الإنسان فاقداً للقدرة وغير ظالم للناس ليس امراً ذا شأن، بل الشأن كله هو ان يكون مقتدراً مستطيعاً لكنّه لا يؤذي أحداً ولا يظلم.

---

(١) جامع الأولياء: ٢١٩.

نقلوا عن إبراهيم بن أدهم وكان من «مشايخ الصوفية» أنه قال: سررت في أوقات ثلاثة سروراً أعظم من أي وقت آخر:

الأوّل: حين كنت في «مسجد بيت المقدس» وكنت آنذاك مريضاً جداً، ولم يكن برفقتي أحدً، فنمت في زاوية المسجد. بعد قليل جاء خادم المسجد وأيقظ النائمين، ثم التفت اليّ وقال: هيّا استيقظ.. ولكني لم تكن لديّ القدرة على النهوض، فأمسك برجلي وجرّني الى الخارج. وقد فرحت بهذا كثيراً لأني صرت أمامه ذليلاً.

الثاني: كنت أنفش فروتي يوماً وأنظفها فوجدت قملاً كثيراً جداً بحيث اني لم أستطع أن أعرف هل أن صوف الفروة أكثر أم هذا القمل! وقد سرتني هذه الحالة أيضاً لأنها أشعرتني بدناءة نفسي وحقارتها.

الثالث: كنت يوماً راكباً زورقاً مع جماعه، وكان معنا رجل سيء، كان يلهو ويمزح فتحلّق حوله الجماعة، وكان مما قاله: خرجت لحرب الكفّار ففعلت كذا وكذا، ثم أسرت أسيراً وجررته من لحيته، ثم تطلع حوله فلم يجد أحداً أضعف جابناً مني، فجاء إليّ وأخذ بشعر لحيتي ثم شرع يعيد تلك القصة ويقول: هكذا أخذت ذلك الأسير. أما أنا فقد سعدت جداً بهذا كعادتي لما أصابني من الذلة والانكسار...!

مناقشة الاتجاه الثاني

ويؤاخذ على هذ الاتجاه بطرفيه، سواء الطرف الذي يتبنى توجيه الأحاديث لصالح موقفه، أو الطرف العملي الذي استجاب للظروف الطارئة واسس بموجبها موقفا عمليا تجسد في التيارات المتصوفة، بما يلي:

١ ـ إذا عرفنا أن مفهوم الانتظار هو الترقب المصحوب بالعمل الشرعي

الذي يتخذ من العبادة قاعدة له فهذا لا ينسجم مع الفكر الصوفي، لأن الصوفي لا ترقب له سوىٰ سعيٌ ذاتي، وغايته أن يكون الصوفي، ولياً من أولياء الله، وبالطريقة التي خطها لنفسه والتي تتصف بالحركة التجزيئية المنقطعة عن بعدها الاجتماعي الخارجي لأنها لا تستهدف تحريك الواقع الخارجي، فإذا كان مثلاً هذا الصوفي يريد أن يحصل على الولاية بمفهوها الصوفي ولا شأن له بالمسؤوليات العامة التي ندبت اليها الشريعة لازالة الظلم والاضطهاد الذي تتعرض له الإنسانية والسعي لاقامة حكم الله في الأرض. فالصوفي الآخر يفكر ويريد أن يكون بمستوى الولي المختار من قبل الله بالطريقة التي تحلو له أيضاً.

فبالنتيجة سنحصل على أُمة بلا انتظار، لأنه لو فرضنا أن الأُمة كلها قد التزمت طريقة التصوف ديناً، فماذا سنترقب وماذا سيحدث؟ من الطبيعي سيحدث لنا شعب لا يشعر بالمسؤولية، وعاجز عن اتخاذ أي قرار جماهيري ازاء التحديات الخارجية. لأن الصوفي غير مسؤول عن إقامة العدل في البلاد، ولا مسؤول عن رد المخاطر التي تعصف فيه، وبهذا يكون السلوك والموقف الصوفي الاجتماعي موقفاً تمهيدياً لايجاد الفساد من جهة الانتظار اللاواعي، أي يساهم في إيجاد الواقع الفاسد لأن منهجه أنتج لنا أُمة بلا مسؤولية، لا بل أُمة تدعو الأُمم الأُخرى الى الطمع في خيراتها واستغلالها.

٢ ـ ولم يكن عند الصوفية سلوك موحد تتجسد بموجه النظرية، لأن الظاهر في الفكر الصوفي تعدد السلوكيات لغياب الاقتداء في السلوك الذي ندبت اليه السنة الشريفة الذي يكفل لنا توحيد مظاهر الأُمة كما أرادها الله سبحانه ضمن السنن الثابتة عن كل المذاهب، وهي من المشتركات، وبهذا يكون الترقب والانتظار من الناحية

الجماهيرية مضطرب الهدف، أو قل مضطرب الصورة المستقبلية، فلا انتظار!

٣ـ الإفراط في الأخلاق المقابل للتفريط فيها. وفي قبال هذا الفريق فريق لا يعرضون حاجاتهم على أحد مهما مسّت واشتدت، لكن الرسولﷺ يقول: «**اطلبوا الحوائج بعزّة الأنفس**».

فلا مانع في أن يعرض الإنسان حوائجه على أصدقائه وأصحابه ما دامت كرامته مصونة وشخصيته محترمة. ومن خطبة لأمير المؤمنينؑ بصفين قال:

«**فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**»(١). فالحياة هي النصر والعزّة ولو تحت الثرى، والموت هو الذل والهوان، يقول الحق تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال الحسينؑ: «**ألا وإن الدعي ابن الدعي، قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت، وأُنوف حمية ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**». ومن أقواله أيضاً:

«**والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد**»(٢).

عن الصادقؑ: «**ولا تكن فظّاً غليظاً يكره الناس قُربك، ولا تكن واهناً يحقرك من عرفك**»(٣) أي: كن دمث الأخلاق لين الجانب طيب الوجه، لا متكبراً مصعراً خدّك للناس، لئلا يزهد الناس في قربك، ولكن في ذات الوقت عزيز النفس مرهوب الجانب.

---

(١) النهج، خطبة رقم ٥١.

(٢) انساب الأشراف: ١٨٨/٣.

(٣) تحف العقول: ٣١٦.

الاتجاه الثالث

والكلام في هذا الاتجاه يتوزع على موقفين :

الموقف الأول: تثار شبهة تتخلص في كون اعتبار زمن الغيبة الكبرى للإمام المهدي فترة طارئة في حياة الأمة الإسلامية، والتصدي فيها للعمل السياسي غير صحيح، لأن الحكم والادارة للأمة لا يتم إلّا بقيادة المعصوم، وحيث أن المعصوم غائباً، إذن فلا مبرر للقيام بالأعمال السياسية التي تستهدف قيام حكومة إسلامية في تلك الفترة، لأن الدولة فاقدة لشروطها ولا يمكن لنا إدامة أي عمل أو مشروع اجتماعي يسعى لاقامة الحكومة الإسلامية في حالة فقدانه المبررات الشرعية.

والذي يريد أن يثبت صحة ذلك، أي مشروعية تطبيق العدالة واقامة الحكومة والادارة الإسلامية، عليه توفير المستند الشرعي لذلك، وحيث لا مستند إذاً فلا مشروعية لتلك الأعمال.

والجواب نعم إذا استطعنا أن نثبت بأن عصرنا الحاضر الذي هو حلقة من حلقات زمن الغيبة الكبرى للإمام المهدي عليه السلام ليس بدعاً من الأزمان، وحاله كحال أي زمان يكون فيه الإنسان مسؤولاً عن تطبيق الحدود وإقامة العدالة.

فلا يبقى مجال للشبهة الواردة على القيمة الشرعية لمشاريع التطبيق الاجتماعي الإسلامي زمن الغيبة، وأن المواقف السلبية أزاء المسؤولية الاجتماعية المطروحة في الفقه الإسلامي في هذه الفترة لا تمتلك فهماً مدروساً ومتبلوراً يمكننا رصده وتسجيله لمناقشة مبناه في كافة مواضع استدلالاته، وإنّما هي مجرد نزوع متحور قد نشأ في أفق الشبهة الواردة على رفع راية الجهاد والحاكمية

الشرعية قبل الظهور كما مرّ في مناقشة الروايات التي تدعو للصبر أو الجلوس أوغيرها.

وقد تجلى تحور هذا النزوع بصورة موقف فكري لدى العقلية الفقهية المتأثرة عندهم بعدم الولاية العامة، أو عدم القول فيها لغير الإمام المعصومعليه السلام، والموقف الثاني من الاتجاه الثالث قد تمسك بالمنظومة العبادية والعملية والسياسية التي خطتها الرسالة الإسلامية على يدي صاحبها الرسولصلى الله عليه وآله وأهل بيته والتفاعل معها واعتبارها كمنهاج عمل وتغيير حيث نجدها ـ أي الارشادات والتوصيات ـ تندرج ضمن الأدوار العملية المشتركة التي سجلها أئمة الهدى في حياة الأُمة والتي تكفل لنا مسبب لايجاد يوم الظهور فيما لو كانت موضع اهتمام وتبني من قبل الأُمة وقادتها وإليك مفردات منها:

١ ـ الإيمان بحتمية خروج المهدي

ويأتي في مقدمة التكاليف الإسلامية التي تقع في عاتق الأُمة في عصر الغيبة الإيمان بحتمية خروج المهدي وهذه المسألة موضع اتفاق الفريقين وكونه محمد بن الحسن العسكري من أولاد الحسين وعلي وفاطمة حيث يؤكد هذا التكليف قولهصلى الله عليه وآله: **«من كذب بالمهدي فقد كفر»** أو **«من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أُنزل على محمد»**(١).

وعلى هذا الأساس فقد أفتى علماء المذاهب الإسلامية بوجوب الإيمان بالإمام المهديعليه السلام وخروجه.

صرح الفقيه الشافعي ابن حجر بتواتر أحاديث خروج المهدي فقال: إن

---

(١) الروض الأنف: ٤٣١/٢، ومقدمة بن خلدون ٢٣٤٧ و المختص بلان حجر: ٢، والحاوي للفتاوي للسيوطي: ٨٣/٢ .

إنكار ذلك يعتبر من إنكار السنّة.

والمنكرون (للمهدي) كفار ويجب قتلهم، وإن كان محل عناد لأئمة الإسلام لا للسنّة فهو يقتضي تعزيرهم البليغ وإهانتهم بما يراه الحكام لائقاً بعظيم جزعتهم.(١)

وهكذا قال الفقيه الحنفي أحمد بن أبي السرور الصبا، إذ أفتى بكفر المنكرين.

كما صرح البيهقي بوجوب الإيمان بظهور المهدي، ومثله التفتازاني في شرح المقاصد.

٢ ـ التمسك بالدين والدفاع عنه

وردت أخبار من قبل الفرقين تؤكد هذه المسؤولية في عصر الغيبة منها عن النبي أنّه قال: **أحب شيء الى الله تعالى الغرباء الذين يقرون بدينهم يجتمعون الى عيسى بن مريم**(٢).

وعنه ﷺ: «**طوبى للغرباء** فقيل: من الغرباء يارسول الله؟

قال: **أناس صالحون في أناسٍ سواء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**(٣).

وعنه انه قال ﷺ: «**طوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي**»(٤).

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**يأتي على الناس زمانٌ يغيب عنهم إمامهم،**

---

(١) فرائد السمطين للحافظ الجويني الشافعي: ٣٣٤/٢.

(٢) تاريخ البخاري: ١٣٠/٤، والزمخشري في ربيع الأبرار: ٧٦٨/١، وجمع الجوامع للسيوطي: ٢٣/١.

(٣) مسند أحمد.

(٤) مسند أحمد.

فياطوبىٰ للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان، إن أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم الباري جل جلاله فيقول: عبادي وإمائي آمنتم بسري وصدقتم بغيبي، فأبشروا بحسن الثواب مني، فأنتم عبادي وإمائي حقاً، منكم أتقبل وعنكم أعفو، ولكم أغفر وبكم أسقي عبادي الغيث وأدفع عنهم البلاء ولولاكم لأنزلت عليهم عذابي قال جابر فقلت: يابن رسول الله فما أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان؟ قال: **حفظ اللسان ولزوم البيت**»[١].

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال ضمن حديث طويل عن مؤمني عصر الغيبة: «**طوبى لهم على صبرهم على دينهم في حال هدنتهم...**»[٢].

عن النبي صلى الله عليه وآله: «**فوالذي بعثني بالحق بشيراً ليغيبن القائم من ولدي بعهدٍ معهودٍ اليه مني، حتى يقول أكثر الناس ما لله في آل محمد حاجة، ويشك آخرون في ولادته، فمن أدرك زمانه فليتمسك بدينه ولا يجعل للشيطان فيه إليه سبيلاً بشكه، فيزيله عن ملتي ويخرجه من ديني فقد أخرج أبويكم من الجنة من قبل، وإن الله عزّ وجل ما جعل الشياطين أولياء للذين آمنوا**»[٣].

٣ ـ التفقه في الدين

كما ورت أخبار من طرق الفريقين تشير الى ضرورة التفقه في الدين في عصر ما بعد الرسول أو الغيبة أيضاً.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «**ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً إلّا من**

---

(١) كمال الدين: ٣٣٠/٢، بحار الأنوار: ١٤٥/٥٢، منتخب الأثر للشيخ لطف الله صافي: ٥١٣.

(٢) الكافي: ٣٣٥/١، ووصف «الهدنة» يُطلق في الأحاديث الشريفة في عصر الغيبة.

(٣) كمال الدين: ٥١/١، إثبات الهداة: ٤٥٩/٣، بحار الأنوار: ٦٨/٥١، منتخب الأثر: ٢٦٢.

أحياه الله بالعلم»[١].

٤ ـ الرجوع للقرآن والعترة

ومن الأمور التي ينبغي الالتزام بها في عصر الغيبة الكبرى من قبل المنتظرين هو الرجوع الى الثقلين.

عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال ضمن حديث: «**خذوا العطاء مادام عطاءً، فإذا صار رشوةً على الدين فلا تأخذوه... ألا إن رحا الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إنّ الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب...**»[٢]، وروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال ضمن حديث: «**وانظروا أمرنا وما جاءكم عنا، فإن وجدتموه في القرآن موافقاً فخذوا به وإن لم تجدوه موافقاً فردوه، وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه إليها حتى نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا، فإذا كنتم كا أوصيناكم ولم تعدوا الى غيره، فمات منكم ميت قبل أن يخرج قائمنا كان شهيداً...**»[٣].

وواضح من نظائر هذه الأحاديث الشريفة المصرّحة بأن الحكم سينحرف عن القرآن ويفترق عنه وهذا الأمر جارٍ في عصر الغيبة أو عصر ما قبل ظهور الإمام ـ عجل الله تعالى فرجه ـ ؛ أنها تؤكد أن المرجعية الأولى هي للقرآن الكريم وتأمر بالرجوع إليه لمعرفة الدين الحق وتمييز حتى المروي من

---

(١) سنن ابن ماجه: ١٣٠٥/٢، والمعجم الكبير للطبراني: ٢٧٨/٨، مسند الحافظ أبي بكر الروياني: ٢١٨، فردوس الديلمي: ٣١٨/٢، جمع الجوامع: ٥٤٥/١، كنز العمال: ١٢٥/١١، فيض القدير: ١٠١/٤.

(٢) المعجم الصغير للطبراني: ٢٦٤/١، حلية الأولياء لأبي نعيم: ١٦٥/٥ ـ ١٦٦، تاريخ بغداد: ٣٩٨/٣، أمالي الشجري: ٢٧٥/٢، فردوس الديلمي: ٢١٧/٢، مجمع الزوائد للهيثمي: ٢٢٧/٥، كنز العمال: ٢١٦/١.

(٣) أمالي الطوسي: ٢٣٦/١ ـ ٢٣٧، الكافي: ٢٢٢/٢.

الأحاديث الشريفة، أما المرجعية الثانية فهي العترة القادرة على توضيح الأُمور المشتبهة مما ورثته من علوم النبي الأكرمﷺ التي يفتح لها من كل باب ألف باب، وعليه يكون محصل هذا الواجب هو التمسك بولاية القرآن الكريم وولاية الإمام المتأهل لعدم الافتراق عن القرآن الكريم من أئمة العترة الطاهرة، ولا مصداق له في عصر ما قبل الظهور وبعد وفاة الإمام العسكريعليه السلام سوى المهدي المنتظر ـ عجل الله فرجه ـ ولذلك لاحظنا الرسول الأعظمﷺ يأمر بالاجتهاد بنفي الشكوك بوجود الإمام المهدي في عصر غيبته ويعتبر هذه الشكوك سبيل الشيطان للاستحواذ على الناس، على أن وجود الإمام المهدي وغيبته ـ عجل الله تعالى فرجه ـ من الحقائق الشرعية والعقائدية التي بيّنتها الكثير من الأدلة القرآنية والحديثية والبراهين الكلامية والعقلية .

٥ ـ التمسّك بولاية الإمام المهديعليه السلام

ومن الأُمور التي ندبت الشريعة على التمسك بها في عصر الغيبة الكبرى الارتباط بولاية المهدي الغائب عجل الله تعالى فرجه ولذا نجد وصايا الأئمة بمجملها تشير الى منظومة متكاملة من العبادات والسلوكيات تؤمن الارتباط بالامام الغائب منها.

أ ـ العمل بالآداب الواردة عن المهديعليه السلام وعن آبائه الطاهرينعليهم السلام وهي الآداب النبوية النقية، سواء المدوّنة في الكتب التي صنفها الثقات من رواة أحاديثهمعليهم السلام نظير ما جاء عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «... **إن من غاب عن الناس شخصه في حال هدنة لم يغب عنهم مبثوث علمه، فآدابه في قلوب**

المؤمنين مثبتة فهم بها عاملون»[١]، ونظير ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة عدم خلو الأرض من الإمام المعروفة، وضمن حديثه عن صفات أتباع الحجة في غيبته: «.. المتّبعون لقادة الدين الأئمة الهادين الذين يتأدبون بآدابهم وينجون نهجهم، فعند ذلك يهجم بهم العلم على حقيقة الإيمان فتستجيب أرواحهم لقادة العلم ويستلينون من حديثهم ما استوعر على غيرهم، ويأنسون بما استوحش منه المكذوبون وأباه المسرفون، أولئك أتباع العلماء صحبوا الدنيا بطاعة الله تبارك وتعالى وأوليائهِ...».[٢]

والحقيقة المتقدّمة تتجلىٰ بوضوح في الأمر الذي صدر عن الإمام المهدي عليه السلام في توقيعه المشهور الصادر الى إسحاق بن يعقوب بشأن الإرجاع الى «رواة حديثنا» وهذا الوصف ينفي بوضوح حالة «الاستقلالية عن النهج المهدوي» في الأشخاص الذين يجب الرجوع إليهم: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا، فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم»[٣]، فطاعتهم فيما استنبطوه من الأحاديث الشريفة طاعة له - عجل الله فرجه-.

أما أعداء الإمام المهدي عليه السلام، فهم أعداء نهجه المحمدي الأصيل .

٦ ـ تجديد البيعة والثبات على الطاعة

ومن مظاهر التمسك بإمامته عليه السلام تجديد البيعة له باستمرار كتعبير عن الثبات

---

(١) إثبات الوصية: ٢٢٥.

(٢) الكافي: ١/٣٣٥، ٣٣٩.

(٣) كمال الدين ٢: ٤٨٣، غيبة الطوسي: ١٧٦، إعلام الورى: ٤٢٣، خرائج الراوندي ٣: ١١١٣، الاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٦٩، وغيرها.

على طاعته للنجاة من الميتة الجاهلية، إذ إنّ الأحاديث الشريفة المروية في المصادر المعتبرة عند الفريقين حدّدت معرفة إمام الزمان وسيلة لهذه النجاة، وتحقق هذه الثمرة يستلزم أن تؤدي معرفته الى مبايعته كإمام مفترض الطاعة، فقد صرّحت جملة من الروايات مثل قولهﷺ: «**من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية**»، وقولهﷺ: «**مَن مات بغير إمام مات ميتة جاهلية ومَن نزع يداً من طاعة جاء يوم القيامة لا حجة له**» وقولهﷺ: «**من مات ولا طاعة عليه مات ميتة جاهلية، ومَن خلعها بعد عقده إياها فلا حجة له**» وقوله:ﷺ: «**مَن مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية**».

عن الإمام الصادقؑ قال: «**قال رسولﷺ: من مات وهو لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية**، ثم قال الإمام الصادقؑ: **فعليكم بالطاعة، قد رأيتم أصحاب علي، وأنتم تأتمون بما لا يعذر الناس بجهالته، لنا كرائم القرآن، ونحن أقوامٌ افترض الله طاعتنا...**»[1]

وهذا الحكم بالطاعة التي يُعبّر عنها بتجديد البيعة؛ يشمل جميع الأئمة الاثني عشر سواءٌ الذين تسلموا الخلافة الظاهرية أو الذين أُقصوا عنها، أي يشمل الإمام المهدي – عجل الله فرجه – فتجب مبايعته وطاعته كما يشير لذلك ما جاء عن رسول اللهﷺ قال: «**مَن أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته فمات فقد مات ميتة جاهلية**»[2].

---

(١) المصدر السابق: ١٥٣، ولاحظ تفسير العياشي ١: ٢٥٢، الكافي ١: ٣٧٦، و ٢: ٢١، غيبة النعماني: ١٢٩، رجال الكشي: ٤٢٤، كمال الدين ٢: ٤١٣، الاختصاص للشيخ المفيد: ٢٦٨، وغيرها كثير.

(٢) كمال الدين ٢: ١٢، إثبات الهداة ٣: ٤٨٣، بحار الأنوار ٥١: ٧٣، منتخب الأثر: ٤٩٢ وغيرها.

٧ـ تجديد البيعة في دعاء العهد

وقد روى المحدثون أحاديث شريفة اشتملت على مجموعة من الأعمال العبادية المتضمنة لمضمون البيعة، مثل الأدعية المأمور بتلاوتها في عصر الغيبة، وكذلك نصوص الزيارات التي أمرت الأحاديث الشريفة بأن يُزار الإمام بها في غيبتهعليه السلام، ومنها هو الدعاء المعروف بدعاء العهد عن الإمام الصادقعليه السلام[1]، ووردت صيغة المبايعة صريحة فيه: «**اللهمّ إني أُجدد له [المهدي - عجل الله فرجه -] في صبيحة يومي هذا وما عشت من أيامي عهداً وعقداً وبيعة له في عنقي لا أحول عنها ولا أول أبداً، اللهم اجعلني من أنصاره وأعوانه والذابين عنه...**» والدعاء يشتمل على ترسيخ الاستعداد للقيام بجميع مسؤوليات البيعة من النصرة له والطاعة لأوامره والدفاع عن الرسالة المحمدية والأهداف الإلهية التي يحملها.

٨ـ الثبات على ما عُرف من الحق

وقد أمرت بهذا الواجب الأحاديث الشريفة المروية من طرق أهل البيتعليهم السلام، لمعالجة الصعوبات الناشئة من فقدان العلم بالإمامعليه السلام أو فقدان القدرة على الاتصال به أو بأوليائه أو عدم قدرة هؤلاء على توضيح الأمور المشتبهة التي يعج بها عصر الغيبة أو عصر الفتنة أو عدم القدرة على الاتصال بهم لتوضيحها، وعندها يكون التكليف هو أن يتمسّك المؤمنون بما عرفوا يقيناً من الحق ويثبتوا عليه حتى يتبين لهم الأمر.

عن زرارة عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم**، قلت له: ما يصنع الناس في ذلك الزمان؟ قال: **يتمسكون بالأمر الذي**

---

(١) مصباح الزائر: ٢٣٥، بحار الأنوار ١٠٢: ١١١.

عليه حتى يتبين لهم»(١).

عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**يأتي على الناس زمانٌ يصيبهم فيه شيطة يأزر العلم فيها كما تأزر الحية في حجرها، فبينما هم كذلك إذا طلع لهم نجمهم.قلت:** فما الشيطة؟ قال: **الفترة**؛ قلت: كيف نصنع فيما بين ذلك؟ قال: **كونوا على ما أنتم عليه حتى يُطلع الله لكم نجمكم»**(٢).

٩ ـ التعرف على علامات الظهور

ويمكن الاستناد الى هذه الأحاديث الشريفة للقول بأن من تكاليف عصر الغيبة أو عصر ما قبل ظهور المهدي الموعود - عجل الله فرجه - معرفة علامات خروجه باعتبارها هي أيضاً مقدمة لكشف أدعياء المهدوية والنجاة من شباكهم، ومقدمة لمعرفته والقيام بواجب نصرته، وقد صرّح بذلك علماء الفريقين منهم ابن حجر الهيثمي الشافعي في مقدمة كتابه «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» الذي لخص فيه ما ورد في الأحاديث الشريفة المروية عند أهل السنة من صفات المهديعليه السلام وعلامات ظهوره، كما صرّح بذلك من علماء الإمامية، آية الله السيد محمد تقي الإصفهاني في كتابه مكيال المكارم وعقد فصلاً لذلك.

١٠ ـ اختبار أدعياء المهدوية

وإضافة الى ذلك أمرت بعض الأحاديث الشريفة بالاختبار المباشر لكل مدعٍ للمهدوية وعدم الاستعجال في التصديق، معتبرة ذلك أحد واجبات عصر الغيبة، فمثلاً عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**لصاحب هذا الأمر غيبتان: احداهما**

(١) كمال الدين ٢: ٣٥٠، إثبات الهداة ٣: ٤٧٤، بحار الأنوار ٥٢: ١٤٩.

(٢) غيبة النعماني: ١٥٩ - ١٦٠، كمال الدين ٢: ٣٤٩، إثبات الهداة ٣: ٥٣٤، بحار الأنوار ٥٢: ١٣٤.

يرجع منها الى أهله، والأُخرى يُقال هلك في أي وادٍ سلك، قلت [الراوي]: كيف نصنع إذا كان كذلك؟ قال: اذا ادعاها مدع فاسألوه عن أشياء يجيب مثله»، أي اختباره بالأسئلة التي لا يمكن أن يجيب عنها إلاّ الإمام المعصوم والتحقق بذلك من إمامته.

١١ ـ الإكثار من الدعاء بتعجيل الفرج

أمرت الأحاديث الشريفة بالإكثار من الدعاء بتعجيل الفرج وظهور الإمام المنتظر – عجل الله فرجه – كأحد التكاليف المهمة لعصر غيبته أو عصر ما قبل ظهوره، فمثلاً روي أن الله عز وجل يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج»[١]، وروى الصدوق والطبرسي عن الإمام المهدي – عجل الله فرجه – قال في توقيعه الصادر في أجوبة اسحاق بن يعقوب الذي أمر فيه بالرجوع الى «رواة أحاديثنا» كما تقدّم: «.. وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج فإنّ في ذلك فرجكم».

وروى الشيخ العياشي في تفسيره المعروف بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ضمن حديث في الحثِ على التوجه الى الله لتعجيل الفرج: «.. فلما طال على بني اسرائيل العذابُ ضجوا وبكوا الى الله أربعين صباحاً، فأوحى الله الى موسىٰ وهارون يُخلصهم من فرعون... هكذا أنتم لو فعلتم لفرج الله عنا، فأما إذ لم تكونوا فإن الأمر ينتهي الى منتهاه»[٢].

وكما هو واضحٌ فإنّ الأحاديث المتقدمة تصرحُ بأن في القيام بهذا التكليف

---

(١) سنن الترمذي ٥: ٥٦٥، المعجم الكبير للطبراني ١٠: ١٢٤، الكامل لابن عدي ٢: ٦٣٧، مسند الشهاب ١: ٦٢، تأريخ بغداد ٢: ١٥٤، أمالي الشجري ١: ٢٢٨، فردوس الديلمي ١: ٣٥٥، مصابيح البغوي ٢: ١٤٠، كشف الهيثمي ٤: ٣٨ عن البزاز، الجامع الصغير ١: ٤١٧.

(٢) تفسير العياشي ٢: ١٥٤، بحار الأنوار ٥٢: ١٣١ – ١٣٢.

يتحقق الفرج على الصعيدين الفردي والاجتماعي، ويعجّل في الظهور المهدوي كما جرى مع بني إسرائيل، وبدونه يستمر الابتلاء الى النهاية المحددة له، وتوضيح ذلك هو: أنّ في تقوية الارتباط بالله والتوجه اليه تعالى تمهيداً لظهور المصلح الأكبر – عجل الله فرجه – لأن من المعلوم – واستناداً لما بينته الأحاديث الشريفة – أن أحد علل غيبة الإمام هي إجراء سنة التمحيص التربوية وإعداد القواعد الإيمانية المناصرة لهؑ في مهمته الإصلاحية من خلال غربلتها – وعبر أجيالها المتعاقبة – بالأوضاع الصعبة والمحن والابتلاءات، والعامل الأساسي في هذه العملية التربوية هو اتضاح صدق التوجه لديها الى الله عز وجل وطلب النجاة منه الغيبة، فروي عن الإمام الصادقؑ قوله بشأنها: «فتأويل الآية جاء في أهل زمان الغيبة... وإنما الأمد أمد الغيبة... وإن الله تعالى نهى الشيعة عن الشك في حجة الله تعالى أو يظنوا أن الله يخلي منها أرضه طرفة عين»(١).

١٢ ـ الانتظار الفوري وتكذيب الموقتين

أمرت الأحاديث الشريفة مسلمي عصر الغيبة باجتناب تحديد وقت لظهور الإمام – عجل الله فرجه –، وتكذيب من يحدد موعداً حتى لو نسب ذلك الى أحد أئمة أهل البيتؑ عن الإمام الصادقؑ قال في جواب عن سؤال عن موعد خروج الإمام المنتظر – عجل الله فرجه –:

«... إنا أهل بيت لا نوقّفت، وقد قال محمدﷺ: كذب الوقّاتون...»،

وروى أيضاً عنه ؑ قال: **«أبىٰ الله إلاّ أن يُخلف وقت الموقتين...»**

وعن الإمام الباقرؑ عن مثل ذلك فقال:

---

(١) غيبة النعماني ٦: ٢٤، المحجة فيما نزل في القائم الحجة للسيد المحدث البحراني: ٢١٩ – ٢٢٠.

« كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون ، كذب الوقّاتون ، إن موسى ﷺ لما خرج وافداً الى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاده الله على الثلاثين عشراً ، قال قومه : قد أخلفنا موسى، فصنعوا ما صنعوا. فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم فقولوا: صدق الله، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله تُؤجروا مرتين » .

ويشير حديث الإمام الباقرﷺ الى علة هذا النهي، فهي ترتبط بحكمة الله تبارك وتعالى في تربية عباده وقيادتهم الى ما فيه صلاحهم، ففي قصة موسىﷺ، كان صلاحه في تحديد المدة الزمانية الأولية بثلاثين ليلة ثم زيادة عشر أُخرٍ عليها لاحقاً، وكان كليمُ اللهﷺ يطيق تحمل هذا الاسلوب التربوي الخاص والحصول على ثماره دون أن يؤثر سلبياً على إيمانه وحسن ظنه بربه عز وجل، ولكن الأمر يختلف مع الآخرين ممن هم دونه في مراتب الإيمان، فكان إخبارهم بالموعد الأولي ثم زيادة عشر ليلال أُخريات سبباً لوقوعهم في شباك إساءة الظن بالله تبارك وتعالى ثم السقوط في جملةٍ من الممارسات الوثنية التي حكاها لنا القرآن الكريم.

وفي ضوء هذه التجربة، نفهم أن تحديد وقت معين لظهور الإمام المنتظر – عجل الله فرجه – يغلق أبواب تغييره لمصالح معينة ترتبط بالعباد وتربيتهم كأن يقدمه لانقطاع العباد الى الله أو يؤخره لتهاونهم في العمل التمهيدي للظهور، لأن التغيير يستتبع آثاراً سلبية نظير ما جرى مع قوم موسىﷺ وإن كانت له آثار إيجابية ومصالح مهمة تتحقق لبعض المؤمنين. أي أن صلاح العباد اقتضىٰ عدم التوقيت.

كما أن صلاح العباد اقتضىٰ ذلك من جهات اخرى، مثل عدم قدرة بعضهم على حفظه وكتمانه عن الأعداء وهذا ما يفقد الثورة المهدوية الكبرىٰ عنصر المباغتة المهم في تحقيق الانتصار ويُعطي الأعداء فرصة الاسعداد الأمر الذي

يزيد من الخسائر رغم الإيمان بحتمية انتصارها والى هذا المعنى يشير الإمام الصادق عليه السلام في حديث رواه ابن شعبة الحراني في كتاب تحف العقول جاء في جانب منه:

«... يابن النعمان، إن العالم لا يقدر أن يخبرك بكل ما يعلم... فلا تعجلوا، فوالله لقد قرب هذا الأمر ثلاث مراتٍ فأذعتموه، فأخره الله، والله مالكم سرٌ إلاّ وعدوكم أعلم به منكم...»(١).

١٣ ـ الوعي بفائدة الاستتار في مرحلة الانتظار

قال السيد المرتضى: إنّ أولياء إمام الزمان عليه السلام وشيعته ومعتقدي إمامته ينتفعون به في حال غَيبته(٢) النفع الذي نقول إنّه لابُدّ – في التكاليف – منه؛ لأنّهم مع علمهم بوجوده بينهم، وقطعهم على وجوب طاعته عليهم، ولزومها لهم، لابدّ من أن يهابوه ويخافوه في ارتكاب القبائح، ويخشوا تأديبه وانتقامه ومؤاخذته وسطوته، فيكثر منهم فعل الواجب، ويقلّ ارتكاب القبيح، أو يكون ذلك أقرب وأليق، وهذه هي جهة الحاجة العقلية إلى الإمام.

وكأنّي بمن سمع هذا من المخالفين ربّما عجب وقال: أي سطوة لغائب مستتر خائف مذعور؟!

وأي انتقام يُخشىٰ ممّن لا يد له باسطة ، ولا أمر نافذ، ولا سلطان قاهر؟!

وكيف يُرهب مَن لا يُعرف ولا يميّز ولا يُدرىٰ مكانه؟!

والجواب عن هذا: أنّ التعجّب بغير حجّة تظهر وبيّنة تذكر هو الذي يجب

---

(١) تحف العقول: ٣١٠، بحار الأنوار ٧٨: ٢٨٩.

(٢) في «م»: الغَيبة.

العجب منه، وقد علمنا أنّ أولياء الإمام وإن لم يعرفوا شخصه ويميّزوه بعينه، فإنّهم يحقّقون وجوده، ويتيقّنون أنّه معهم بينهم، ولا يشكّون في ذلك ولا يرتابون به، لأنّهم إن لم يكونوا على هذه الصفة لحقوا بالأعداء، وخرجوا عن منزلة الأولياء، وما فيهم إلاّ مَن يعتقد أنّ الإمام بحيث لا تخفىٰ عليه أخباره، ولا تغيب عنه سرائره، فضلاً عن ظواهره، وأنّه يجوز أن يعرف ما يقع منهم من قبيح وحسن، فلا يأمنون إن يقدِموا على القبائح فيؤدّبهم عليها.

ومَن الذي يمتنع منهم - إن ظهر له الإمام، وأظهر له معجزةً يعلم بها أنّه إمام الزمان، وأراد تقويمه وتأديبه وإقامة حدٍّ عليه - أن يبذل ذلك من نفسه ويستسلم لما يفعله إمامه به، وهو يعتقد إمامته وفرض طاعته؟!

وهل حاله مع شيعته غائباً إلاّ كحاله ظاهراً فيما ذكرناه خاصّة، وفي وجوب طاعته، والتحرّز من معصيته، والتزام مراقبته، وتجنّب مخالفته.

وليس الحذر من السطوة والإشفاق من النقمة بموقوفَيْن على معرفة العين، وتمييز الشخص، والقطع على مكانه بعينه، فإنّ كثيراً من رعيّة الإمام الظاهر لا يعرفون عينه ولا يميّزون شخصه، وفي كثير من الأحوال لا يعرفون مكان حلوله، وهم خائفون متى فعلوا قبيحاً أن يؤدّبهم ويقوّمهم، وينتفعون بهذه الرهبة حتى يكفّوا عن كثير من القبائح، أو يكونوا أقرب الى الانكفاف.

نتيجة البحث في هذا الباب

تمكين المؤمنين في الأرض آخر الزمان من الوعود الالهية الصادقة، وبه ستنتصر أُمة الإسلام وتبسط يدها كأُمة لها القيمومة على باقي الأُمم، وقد بدأ التخطيط الإلهي لهذا اليوم منذ وجد الإنسان على ظهر البسيطة.

ومن الثوابت في رسالتنا أن موقع الامامة بعد النبوة لا يتعرض للانقطاع فالامامة حجة الله القائمة على مرّ الدهور؛ لذا ينبغي أن يكون ثمة امام حيّ وهو لدينا الامام محمد المهدي بن الحسن العسكري، وغيبته الكبرى في هذه الفترة بالذات تمثل أحد مراحل التخطيط الالهي وبها سترتقي الأُمة الى أعلى مستويات الانتظار.

وقد اكتسب مفهوم الانتظار قيمة عبادية وشكّل جزءً من الرسالة، وهذه الحقيقة يمكن فهمها من خلال الروايات والوصايا التي صدرت عن النبي وأهل بيته عليهم السلام بخصوص الانتظار وشد الأُمة عملياً بهذا المفهوم.

ولما كا حاضر الأُمة الاسلامية وهي تعاصر الانتظار وتتلقى تكليفها من الرسالة قد توزعت مواقفها العملية والسلوكية والجهادية تبعاً لاختلاف المتبنيات الفكرية والعقائدية الأمر الذي أدى باتباع تلك المذاهب أن تستبعد بعض المفردات العبادية في المنظومة الإسلامية التي أعدتها الرسالة لهذا المفهوم العبادي الذي يستبطن البعد السياسي، مما أصبح الموقف من الانتظار متعدداً وتخللته السلبية في العمل. وأهم ما يترتب على الموقف السلبي هو عدم

تأهيل الأُمة للنهوض في مستوى الانتظار اللائق بها ويشكّل بالوقت نفسه عائقاً أمام مشاريع الاصلاح.

واخيراً أن عدم الانسجام بين العقيدة الصحيحة والانتظار السلبي يؤدي الى هدر طاقات الأُمة وتمزيقها .

ومواجهة مفهوم الانتظار الأصيل المرتبط بالعقيدة وأوامرها التي تؤكد ضرورة الايمان بالإمام المهدي وانتظاره حسبما أوصت به الرسالة.

الباب الخامس

المستقبليّة في حركة الامام عليه السلام

الفصل الأول

تمهيد:

تطور مناهج الدراسة عن أهل البيت عليهم السلام خلال قرن واحد

تطور البحث والتحقيق والكتابة حول حياة الأئمة عليهم السلام بما فيها حياة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام منذ مطلع القرن العشرين، وقد ساهم الباحثون بإنجاز أعمال علمية فريدة لإخراج تراثه المحبوس في داخل الموسوعات المطوّلة والمخطوطات، ذلك التراث الذي لم ير النور لولا تلك الجهود التي بذلت بعناء.

والمتتبّع لهذه الكتابات سيجد رغم تعدد منطلقات واختلاف رؤى وأهداف مؤلّفيها قد اتصفت مبادرتها الأولى بالعرض السردي الذي يغلب عليه الطابع القصصي عن حياة الإمام، ثم أعقبتها كتابات موسوعية تتحدث عمّا جاء عن الإمام، واعتنت بحفظ تراثه موزعاً ضمن أبواب، تلتها بعد ذلك كتابات وصفية دفاعية تحاول انتقاء النصوص التي تُبرز صفات الإمام، ثم نظمها بمنهج، يختاره الكاتب حسب ذوقه، ورافقتها كتابات أُخرى انتهجت العرض العبقري، أي طرح النموذج البطل الذي لا يقارن فيه أحد من حيث انجازاته ومفاخره العلمية وتأسيسه لبعض العلوم كالكيمياء والطب والإحياء والفقه والاصول

والفلسفة وغيرها، ثم ارتقت الجهود والأنشطة التحقيقية حول الإمام، فتناولت حياته بالدراسة والتحليل إلّا أنّها تجزيئية في تحليلها، تتحرك بحدود النصّ وتفكيكه بلغة حديثة، وتداخلت مع تلك الجهود أيضاً جهود كتابية ذات إطار مذهبي نحت بالإمام، وشذبت حياته ليكون قائداً للمذهب فحسب، أو رئيساً له فسلطت الضوء على حياته بالمقارنة مع أئمة المذاهب الأخرى. فتركت انطباعاً يصاحبه جهد يجرّ به عليه السلام في زاوية يجعله مكافئاً لغيره من أرباب المذاهب. جاء هذا التكريس بدافع من الواقع الموضوعي وتأثيراته على ذهن الكاتب، الواقع الذي قسّم المسلمين الى شيعة وسنّة أو قل الى مذاهب، ممّا جاءت الدراسات مستجيبة له، فتقوقعت تحت ظل تلك العناوين.

بعد ذلك وتبعاً للنهضة الإسلامية النامية، ارتقت الكتابة التأريخية حول الأئمة بما فيهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام ضمن بُنية صيغت مع باقي الأئمة؛ باعتبارهم عليهم السلام قد مارسوا أدواراً إلهيّة في عدد من المراحل، تخضع لمخطط مدروس يستهدف تربية الأُمة ويحافظ على الرسالة من جهة ثانية.

ولم يتعمّق هذا المنهج الذي فتحه السيد الشهيد الصدر رحمه الله في محاضراته التي نشرت باسم (أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف)[1] لأجل اعطاء ثماره، فبقيت بحوثه يتيمة، تفتقر الى الإضافة والتجديد، ظهرت بعد فترة ركود أصابت الابداع كتابات انطلقت من ذلك النهج مثل الإنجاز الذي قدمه السيد محمد باقر الحكيم في كتابه: (دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة) ثم بادر السيد منذر

---

(١) وقد رتّب هذه البحوث وهذّبها وحاول توثيقها بشواهد ومصادر تاريخية الاستاذ عادل الأديب في كتابه: (الأئمة الاثنى عشر).

الحكيم هو الآخر بانجاز يماثله من حيث التطوير، في مشروعه سلسلة أعلام الهداية الصادر عن المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ، وللأسف قد داخل المرحلة تلك كتابات لازالت أسيرة المنهج القديم لغة ومنهجاً ، ولم ترتق الى مستوى الحاجة والمواكبة.

على أية حال إنّ الغالب على الكتابات في هذه المرحلة هو الطابع الاجتراري المحجوز في الإطار النظري؛ رغم بعض الأعمال الفردية التي تستثنى من هذا الإطار، لقد اتّسمت بميزة الاعتزاز والمفاخرة بشخص الإمام، فمازال الغرب يطرح ابطاله ، فعلام لا نطرح أبطالنا طرحاً يؤكد وجود عباقرة في تاريخنا الإسلامي؟ لكنها تبقى جهوداً تهدف الى ابراز قوة الحضارة والمعتقد ، وهذه الانتاجات العلمية لا تخلو من أنّها لازالت في موضع الدفاع وليس لها دور في البناء والتنمية والتغيير وكأنّها تريد اقناع المسلم المعتقد بالمذهب وتتحرك تحت هذا الهدف. ولما كان الهدف بهذه الحدود ـ حدود الاعتزاز ـ فهذا من جهة يدعو الآخرين أن يعتزّوا بعباقرتهم أيضاً؛ سواء في داخل الصف الإسلامي من المذاهب الأُخرى أو خارجه ، فهي دعوى تؤول الى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، بينما تتطلب المرحلة هدفاً أعلى تريده وتستهدف أمراً أكبر من ذلك، لا بل ينبغي أن يستلّ الهدف من العقيدة نفسها بمعنى طرح الإمام وسيرته حين نخاطب أو حين نناقش أو نرد من جهة : ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَانُشْرِكَ بِهِ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾[2].

---

(١) الكافرون: ٦ .

(٢) آل عمران: ٦٤ .

طرح حياة وانشطة الإمام كمشروع ومرجع لحلّ مشكلاتنا وادراك سبل رقـيّنا الحضاري، أيّ منهج يستنهض الواقع ويساهم في تنميته.

ومن سمات إنتاجاتنا التحقيقية في هذه المرحلة أنّها تناولت حياة الإمـام بلغة الدين وعلم الكلام لا بلغة التاريخ ، أي بمعنى عرض الإمام كدين يمثّل اسناداً للرسالة، وهذا الجهد لابد من إيفائه، لكن الطموح يدعو أن يكون التعامل مع رسالة الأئمة ، ليس فقط بحدود هذه الرؤية بل ينبغي أن لا يكون الأخذ أخذاً تكرارياً بحدود المنقول، وبالتالي ستكون حياة الإمام عاجزة عن العطاء، والحال أنّ المرحلة تدعونا في كلّ يوم أن نحاكي حياته، ونستنطقها لنحصل منها على الدروس بهدف البناء والإعمار.

من هنا حاولنا أن نلقي ضوءاً على خيارات الإمام ومنهجه الإصلاحي مع الأمة ـ بعيداً عن المألوف من الكتابات التي تعتني بالسرد والتوثيق، أو توجيه النصوص ضمن مخطط قد أُعدّ سلفاً ـ وبمستوى ما تتطلبه الحاجة ضمن عدد من الفقرات وبحدود ما تستوعبه المقالة.

الفصل الثاني

الإمام جعفر الصادق عليه السلام يلاحظ واقع الأُمة مظهراً ومحتوىً

أعرب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين تصدّى لموقع الإمامة الإلهية في منتصف القرن الثاني الهجري حين أوصاه أبوه الباقر عليه السلام بصحابته، فأجاب قائلاً: «**جعلت فداك والله لأدعنّهم والرجل منهم يكون في مصر، فلا يسأل أحداً**» أو قال: «**لا تركتهم يحتاجون الى أحد**»[1]. فعزم الإمام الصادق عليه السلام على اصلاح الأُمة من خلال وضع مخططه الكبير؛ الذي سيتبين لك شيء من فقراته في السطور اللاحقة من هذا المقال.

فقبل أن يباشر الإمام بتنفيذ مشروعه قد لاحظ عدّة مظاهر، قد سادت واقع الأُمة في قرنها الثاني، ذلك العصر الذي مُلئ بالمتراكمات المتناقضة التي خلفتها السياسات السابقة، ورمت بثقلها البائس في قلب هذه المرحلة العصيبة من حياة الأُمة؛ في الوقت الذي يمثل خلّص أصحاب أهل البيت في وسط الأُمة عدداً يسيراً، وقد صرّح عليه السلام بحجم معاناته، حيث الكثرة من الناس قد خذلتهم وجهلت حقّهم، فقد كان هذا هو صريح قوله لوفد من أهالي الكوفة الذي التقاه حين تصدّيه لموقع الإمامة في المدينة بعد وفاة أبيه إذ قال: «**ما من البلدان أكثر**

---

(١) الإرشاد ١: ٤٠.

محباً لنا من أهل الكوفة، لا سيما هذه العصابة، إنّ الله هداكم لأمر جهله الناس، فأجبتمونا وأبغضنا الناس، وبايعتمونا وخالفنا الناس، وصدقتمونا وكذبنا الناس، فأحياكم الله محيانا وأماتكم مماتنا»(١).

كما يعرف الإمام جيداً تفكير وسياسة الحاكم الاموي هشام بن عبدالملك القاتل لأبيه قبل أيام وجيزة، الذي مازال يتمادى في سياسته الرعناء ولم يتراجع عن خطّ أسلافه في الخصومة لخط أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام الورثة الشرعيين للخلافة وفق النص الإلهيّ عن لسان صاحب الرسالة، الذي لم يُعد هذا النص خافياً على هشام وأبيه عبدالملك وجدّه مروان من قبل .

لاحظ عليه السلام السواد الأعظم من الناس ـ الذي لم يدرك بَعدُ المعادلة، وقد قادته الفوضى وتجاذبته ثقافات خلفتها السياسة ـ بؤر ومراكز تدّعي الأصالة والتجديد والمرجعية للفكر الإسلامي، كالخوارج والمرجئة، ومدرسة الحديث، والاعتزال، والقدرية، والزندقة، والغلاة وأصحاب الرأي والقياس في الكوفة وغيرها.

خلاصة الأمر هناك اهتزاز واضطراب عمّ الثقافة والعلم والعقيدة والاجتماع. وكلّ هذه الظواهر انتجت لنا ضميراً نفسياً مزدوجاً يائساً من الاصلاح، يبحث عن بديل يتقلب في خياراته وقناعاته، لا يمتلك معياراً ثابتاً يهديه للصواب وتراه مستجيباً للخطاب المتناقض و يتأثر بالطارئ، فهو واقع ينذر بالعاصفة والانهيار، والأخطر من ذلك يُنبئ بموت الحضارة الناشئة.

تفحص الإمام بعينه الإلهيّة الثاقبة واقع الأمة، ولاحظ حاضرها بدقة وما ينبئ عن مستقبل خطير، أُمة تتقاسمها ولاءات سياسية تسلحت برؤى عقائدية،

---

(١) البحار ٦٨: ٢٠ ح ٣٤.

تخندقت ورسمت لها أهدافاً ووضعت لها حدوداً وفواصل وسواتر حديدية مع خصومها؛ وعمدت الى توظيف وجلب الأفكار واستيرادها من أجل تقوية معتقداتها السياسية. وتخرّج من مدارسها جيل ولّد قيادات، ضاعفت المحنة بجلب عناصر فكرية أجنبية نثرت عليها مساحيق اسلامية، ورتّشتها بديكور زائف؛ لاقناع دعاتها من أجل بقائها صامدة؛ لئلا تذوب في هذا المعترك الصاخب، لقد وظفت الآيات القرآنية والحديث الشريف لصالحها فاقتطعت واختارت وأوّلت ما يناسبها، ورمت عرض الحائط ما يخالفها، ووظّف الغلاة أفكاراً غريبة لا صلة لها بالتوحيد، وقالت بوجود وسائط وعقول سماوية، تتوسط بين الله والعالم، وتتخذ من النجوم والكواكب مطايا لها. واستطاعت هذه الفكرة أن تجنّد الساخطين على النظام الأموي، وتغرر بهم، معتمدين التأويل الباطني لكثير من الآيات، وطبيعيّ لمّا كان لهؤلاء أنصار، فلهم خصوم أيضاً، فالحكومة كانت من خصومهم لتعارض أفكار الغلاة وعدم خدمتها لسلطانهم؛ لكونها لا تربط الدين بالسلطان الحاكم، وبالتالي فإنّها تعتقد بعدم شرعية السلطان الأموي الحاكم، والخوارج من جهة يرفعون شعار تكفير مرتكب الكبيرة، ويهدرون دم مرتكبها. وهذه الفرقة قد أتعبت الحكومة الأموية كثيراً، لأنّها منظمة ثورية تتسلح بفكرة واعتقاد يبرّر لها القتال، فليس من السهل القضاء عليها بقوة السلاح أيضاً.

ولما كان أكثر الحكام والملوك من أصحاب الكبائر فهم مشمولون بهذا القرار الخوارجي، وتقابلهم المرجئة التي أدت خدمات كثيرة الى السلطات الأموية والعباسية؛ حيث تبيح ارتكاب كلّ الجرائم، وللإنسان كامل الحرية في

ممارستها مثل شرب الخمر ، القتل، الزنا، ولا يخرج صاحبها عن حظيرة الإيمان ، فقد وفّرت فيما بعد غطاءً لممارسات الأمويين الظالمة، ومدرسة أهل السنة والحديث الذين يرون شرعية الحكم الأموي،فهم محافظون قد قدّموا خدمات أخرى للطغاة، وفسروا الوضع القائم؛ بأن وجود حاكم ظالم وغير عادل على رأس الأمة لا يبرر الثورة ضدّه، لأنه ولي أمر للمسلمين، وقام هؤلاء بتضخيم الحديث ونفخه أكثر ممّا صدر عن صاحب الرسالة؛ بواسطة وعّاظ السلاطين عن طريق الوضع والتزوير والتحريف حتى نشأت قبالهم مدرسة الرأي وفرقة الاعتزال المعارضة لهم واتهمتهم بالجمود والتحجّر وعدم تحكيم العقل، لعجز هذه المدرسة ـ أي مدرسة الحديث ـ عن استيعاب المستجدات والتساؤلات وتحولوا الى معارضة زمن المنصور العباسي؛ ممّا دعاه أن يقرب مدرسة الرأي والقياس، عندها شنّت المعتزلة حملاتها على مدرسة الحديث، فكانت في محتواها ـ أي المعتزلة ـ معارضة للحكومة الأموية.

ولما انتصر العباسيون اصبح الاعتزال يمثل النخبة التي تدعم السلطان العباسي، فنظّروا لشرعيته مثل ابتكار فكرة جواز تقديم المفضول على الفاضل؛ خصوصاً مدرسة الاعتزال في بغداد، نقضاً لمعتقد أهل البيت عليهم السلام الذي يرى وجوب تقديم الفاضل ـ بموجب نظرية النص ـ على المفضول، حتى التزمت هذه الفرقة الخصومة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام بهذا المحور الكلامي، الذي يعود بالفائدة للحكومة العباسية، ويبرر شرعية سلطتها وغيره من الأفكار، حتى حظي الاعتزال يومها بحماية الدولة فاصبح دينها الرسمي لمدة من الزمن.

والزندقة : حركة الحادية تجرأت على مقدسات الأمة، وطرحت افكارها

بقوة في مركز الوحي مكة وغيرها من الحواظر الإسلامية ، وقد تبنّت فلسفة إلحادية سافرة وهاجمت الفرق الأُخرى معتمدة فلسفات أجنبية هي الأُخرى كذلك.

ويدخل الى مراكز القوى في الساحة طرف آخر يغيّر المعادلة ويمزقها بين فترة وأُخرى؛ ذلك هو الاتجاه العلوي الذي أصبح رمزاً للثورة والفكر، ومعقلاً لقلق سلاطين الحكم الأموي على طول الخط، ترى السلطة فيه الخطر والمنافس الوحيد. وفي زمن الإمام الصادق عليه السلام يفسر الأمويون وكذا العباسيون بأن التحركات والفعاليات الثورية تخضع الى توجيه مركزي للإمام أو هي يحاءات منه عليه السلام ؛ لكونه الوريث الشرعي للخلافة، وهذا الظن الذي لا تمتلك الدولة عليه دليلاً، كان صحيحاً بنسبة ما ولكن ليس على وجه الإطلاق ، فقد يرى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام قبل تصدّيه للإمامة انّ اجتثاث الظلم لا يتم إلّا بالحل الثوري ، وقد تبنى زيد بن علي عمّ الإمام زعامة هذا الاتجاه، ولحقه الكثير من العلويين.

قد لاحظ الإمام عليه السلام تلك الشريحة الواسعة من الناس التي تتطلع اليهم، مع خلو ذاتها ومحتواها من عنصر الثبات وتتحرك بالعاطفة التي لا تصمد عند النزال، فولاؤها مهزوز لا يمكن العمل بموجبه؛ لأنه يتحرك كالرمال.

ثم لاحظ عليه السلام أيضاً مظاهر الفساد التي قد بُرمجت بوعي من سلاطين الجور وانفق عليها آلاف الدنانير من بيت مال المسلمين؛ مثل محافل الغناء ورقص الجواري في ليالٍ حمراء ، واشاعة شراب الخمر بمحضر الخلفاء، مع استهانة بالمقدسات ، من خلال مغنيّن، شعراء ماجنين، وعّاظ سلاطين، حضور يهودي سافر في البلاط الحاكم؛ حتى أصبح الواجهة الإعلاميةللدولة الإسلامية ،

ولهؤلاء وغيرهم أثر كبير في القرار السياسي. وتصل للإمام الأخبار عن مصير الناس في أطراف البلاد الإسلامية التي لم يصلها نور الهداية، ولم يعرف أهاليها من الإسلام إلّا اسمه، ولم يشاهدوا إلّا أمرين فقط طُبقا بحقهم ، فقد استبدلوا الحاكم بحاكم آخر، ولم ينعموا من وافر خيرات البلاد، هذا أولاً، وثانياً اداء الخراج بدل الضرائب .

نعم إنّهم مازالوا على ثقافتهم القديمة؛ يفسرون الحوادث والظواهر بطرقهم الخرافية التي ألفوها قبل الإسلام، وعاداتهم وقيمهم لم تتبدل، ولاحظوا أمراً ثالثاً، وهو أنّ الحكومة قد وضعتهم في الطبقة الثانية وجعلت العربي فوقهم في الطبقة الأولى ، وهذا النهج هو الذي جاء بالشعوبية فيما بعد كردّ فعل للنظريات والقرارات الجاهلية الغريبة في محتواها عن جسم العقيدة الإسلامية ومبادئها السامية.

إنّ هذا الوضع بشكله العام ولّد انتماءات قبلية وطائفية؛ تتنازع فيما بينها تحت ظل ديكتاتورية ظالمة، قوامها الظلم وقمع الآخرين بلا نظرية للحكم. وبمرور الزمن تخندقت القوى المتحاربة ثقافياً، وانتجت زعماء وأتباعاً وأصبحت ذات تاريخ وفلسفة. وبتعبير آخر أصبح النزاع فلسفة قبال فلسفة، وفكراً قبال فكر ، وأملى هذا الاختلاف سلوكات متباينة واهدافاً متقاطعة، ومواقف متناقضة أو متحدة فيما لو جمعتها المصلحة ، وهناك متربصون وتجار سياسة يترقبون المعادلة، ويتصيدون مواطن الفراغ السياسي ، يبكون على ظلم أهل البيت عليهم السلام في المحافل نهاراً ويعدّون المكائد ضدّهم في البيوت ليلاً ، وشخّصهم الإمام جعفرالصادق عليه السلام، وأشار الى أبعاد المؤامرة عند انصراف العباسيين من مؤتمر الأبواء، مخاطباً عبدالله قائلاً: «**لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت**

بعد، وهو ليس بالمهدي ـ أي ابنه محمد ذي النفس الزكية ـ الى أن قال: **ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم**، وضرب بيده على ظهر أبي العباس، ثم قال لعبدالله:**ماهي إليك ولا الى ابنيك** الى أن قال: **ولكنّها لبني العباس، وإنّ ابنيك لمقتولان»**[1].

هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الأُمة لم يأت بها التاريخ اعتباطاً ، بل لها عواملها، فقد ولّدتها ارادات ومخططات وسياسات، فهي بتعبير مختصر: مرحلة صنعتها لنا الظروف السابقة عليها. وعليه فما الذي نتوقعه بعد هذه الفترة، والى اين يصير هذا الوضع؟ والى أين تسير بنا الظروف بعد هذه الفترة؟ أي أنّ هذا لحاضر ماذا يحمل للمستقبل بعد ثلاثين عاماً أو بعد أربعين عاماً، أو قل بعد مائة عام؟ ماذا سيكون والله سبحانه أبى ألا تجري الأُمور إلّا بأسبابها؟ فهل الضياع يؤدي الى الالتحام؟ والتفرقة والابتعاد عن خطّ الرسالة يؤدي الى الاعتزاز بها؟ وهل الطغيان يولّد الاستقامة ويهيئ الأُمة لأن تطبّق العدالة؟ وهل نترقب أن يتخلّى الجميع عن خلافاتهم، ويتنازلوا عن معتقداتهم، فيذوب البعض في الكلّ فتنعم الحياة وتهطل السماء بخيراتها والأرض ببركاتها، فيحدث الوئام والمحبة والتراحم أم ماذا؟ كلّ هذه الأُمور وغيرها قد لاحظها الإمام بعينه الإلهيّة التي تخترق حجب الغيب، فرأى أنّ الوضع المستقبلي كئيب، موت حتمي للإسلام ، ذلك التشخيص الذي يكشف لنا عن ضخامة مسؤولية الإمام وماذا عليه من أُمور سيعدها للمستقبل، ليواجه بها هذا الظلام الآتي من بعيد، ولابدّ أن يشدّ عزمه ويتحمل لأجل ذلك الصعاب.

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٢٥٦ .

الفصل الثالث

حاضر الأُمة وخيارات المستقبل

أوّلاً: مستقبل الأُمة المحتمل وقوعه لولا تدخل الإمام

سيعجز الحدث السياسي في المستقبل، ولا يمتلك القدرة على صياغة الخطاب الذي يُحشد قوى الأُمة فتستجيب له، لأن الحدث السياسي يكون مؤثراً إذا خاطب الأفكار والقيم التي هي موضع تقديس واحترام عند الأُمة ـ ولما افترضنا أنّ القيم والأفكار قد تهشمت وتقطّعت أوصالها، وأدّت الى توزيع الأُمة الى جماعات، فلا يرى الفرقاء خطاباً يجمعهم تحت هدف واحد، وعليه فإنّ الأُمة حين ذاك تُباعد بها الاتجاهات والميول الى حيث تريد.

ويضاف لو لاحظنا الاتجاهات التي تفسّر الأحداث بأنّها تجري بتقدير من الله، وأنّ قرارات الحاكم الظالمة تعبير عن ارادة السماء، فالمرجئة والجبرية والزنادقة والمتأثرون بهذه الأفكار أصحاب الموقف الايجابى أو الحيادي من تصرفات الحاكمين؛ فسوف ينقلب موقف هؤلاء مستقبلاً مع الحاكمين ، لأن الأعمال الاجرامية المبررة وفق هذا التفسير ستبرر هي الأُخرى الأعمال المضادة لها مازال الذي يجري كلّه بتقدير من الله، وكأنّ المتناقضات كلّها بتقدير من الله ، وعند ذاك لا يستطيع أحد أن يوحد صف الأُمة بخطاب جديد، وهذا ما سوف

يطلق العنان لأهل الاطماع، فلا عودة للإسلام لا بواقعه فحسب بل بنظريته أيضاً، وهذا ما كان يدركه الإمام قطعاً.

وسيحدث الانفتاح مطلقاً على الفلسفات المخالفة للإسلام، مع اقتباس شظايا منها بغيةالرقع او التوظيف بشكل مستمر لغرض مواصلة الصراع، واحراز تقدم ضد الخصوم. ولأجل أن تحقق بالوقت نفسه قوة للمعتقد بالاضافة الى كونها مدعاة لانبهار الأنصار والمؤيدين، ودعوة الى مزيد من الاندكاك والتشرنق داخل المعتقد، وضخّها بوقود أمل يدفعها لمواصلة الطريق، ودعاية خارجية تفيد لكسب الآخرين ممّن اكتشفوا ضعف عقائدهم الباحثين عن اعتقادات جديدة، ينتمون إليها في هذه المباريات والمزايدات التي ستؤول مستقبلاً الى الانحراف المطلق عن خط الرسالة، فلا جامع ولا مشترك يوحّد صفها، ولا أمل بالأفق يلوح الى ذلك، لا على المستوىالقريب ولا علىالمستوى البعيد أيضاً، فهو تشاؤم مطبق بالمرة.

وسيفقد العمل الثوري جدواه في المستقبل البعيد فقط، ولا أقول على مستوى المستقبل القريب، حيث سنتكلم عنه في فقرة لاحقة.

إنّ حاضر الأمة إذا استمر كما هو عليه؛ فسيفقد العمل الثوري أثره، ذلك لأنّ السبب في اختلاف الولاءات هو العامل الثقافي، والثورة المسلحة خطوة لاحقة تهدف الى استنهاض الضمير والقيم الحيّة في محتوى الأمة. ولما كانت الأفكار والقيم موزعة؛ فلا مشترك يعبئ الأمة ويوحّد مصيرها، وستكون الثورة حين ذاك لغواً لا طائل وراءه.

وأخيراً أدرك الإمام جعفر بن محمد الصادقﷺ أنّ حاضر الأمة يُنبئ عن موت حتميّ قريب ما لم يتدخل هو لتفاديه. إنّ الأوضاع إذا بقيت على ماهي

عليه ستحصل ظاهرة رفض أي مشروع يريد توحيد الأمة؛ لأنها يائسة من كل بديل، وتشكك في كل طرح جديد، أمة تفتقد الهدف الكفيل بتوحيدها وتتحرك نحو أهداف تجزيئية، حوّلتها الظروف بمرور الزمن الى مطلق، وسيصبح الفكر الإسلامي فكراً هامشياً في حياتها بعد أن كان الأصيل في حركتها، وستتمزق الى دويلات، كل قد تبنّى فكرة يتعبد بها ويتخندق حولها ويقاتل من أجلها، ويُصرّ على عدم التفريط بها أو قبول الذوبان في الفكر المضاد لها، وستنقسم البلاد الإسلامية أرضاً وفكراً الى أقاليم متباعدة، لا يربط بينها مشترك ولا تنظر للإسلام كعنصر للاعتزاز، وسيعود الإسلام غريباً، وستتحرك الجماعات التي استحكمت قناعاتها نحو مستقبليات متعددة، تعمق فجوة التباعد بمرور الزمن، وسيتم الطلاق الخُلعي بين الأمة واسلامها طلاقاً لا رجعة فيه.

فإن قلت: إنّ هذه الأمور لم تحدث في أرض الواقع فهي لا تعدُ أكثر من تخيلاتٍ واستغراقات في النظر.

قلت: إنّ المرحلة التي عاصرها الإمام كان من المفروض أن تنتج لنا ظواهر، سواء هذه الظواهر التي تحدثنا عنها أم غيرها، ولما لم تحدث؛ لابد من وجود مانع قد حال بين وقوعها، وهذا المانع هو جهد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كما نعتقد نحن، وكما ستلاحظ ذلك في الفقرات التالية لجهد الإمام الذي صبّه بهذا الاتجاه .

ثانياً: الخيارات والحلول الاصلاحية المطروحة في زمن الإمام الصادق عليه السلام

وقبل الحديث عن جهد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لتغيير مسار التاريخ وتفادي ما كان يُتوقع أن يحدث ؛ لابد من الحديث عن الحلول

المقترحة والمناهج التغييرية التي لها القدرة في تغيير الوضع، أو الخيار الأسلم الذي يكفل لنا اعادة الأُمة الى اسلامها على ضوء القراءة السريعة التي مرّت عليك.

لقد كان يدور في أذهان القادة والعقول التي تراقب الأحداث ـ وذات الحضور السياسي والفكري في المعادلة ـ زمن الإمام الصادق عليه السلام عدد من الخيارات، وفي مقدمتها الخيار الثوري المسلح، وبعد أن نعرضها سنتناول خيار الإمام في التغيير والثورة.

الخيار الأوّل الثورة المسلحة:

إنّ بعض الوجوه الاجتماعية، وأهمّها العقول القريبة من الإمام والمحيطة به؛ تتحدث عن ترجيح الحل الثوري، وهذه القناعة ناشئة من تعليل مظاهر الفساد بكلّ صوره الى فساد السلطة، ولا سبيل للقضاء عليه إلّا بالقضاء على رأسه، وذلك هو السلطان المنحرف، وعلى هذا الأساس ترفض هذه الوجوه الحلول الأُخرى، معتقدة بأنّ الشرّ لا يسكته إلّا السيف.

والإمام جعفر الصادق عليه السلام يتفق مع هؤلاء من جهة، إلّا أنّ الخلاف يقع معهم من جهة الآلية أو عدم توفر مقدمات هذا الحل فضلاً عن كون الظلم واشاعته في البلاد لا يتحمله الظالم وحده، وإنّما تشاركه الأُمة في ذلك، وعليه فإنّ للمشكلة علّتين: مشكلة حاكم منحرف ، ومشكلة أُمة تخلّت عن مسؤوليتها وتفاعلت مع أُطروحات الضلالة. وبتعبير أصح أنّ المشكلة مشكلة أُمة قبل أن تكون مشكلة سلطة، لأنّ فساد الحاكم معلول لفساد الأُمة أو قبولها بالظلم والفساد. والنظرة المتوازنة للأُمور تدعو الى النظر بعين بصيرة. بهذه الدقة كان جواب الإمام لأحد أصحابه حين قال للإمام: والله ما يسعك القعود، فقال: «ولِمَ يا سدير؟» قلتُ: لكثرة مواليك وشيعتك وانصارك الى أن قال: «يا سدير وكم عسى أن يكونوا؟»

قلت: مائة ألف، قال: «مائة ألف» قلت: ومائتي ألف. قال: «مائتي ألف؟!» قلت: نعم، ونصف الدنيا، قال: فسكت عنّي ثم قال: «يخفُّ عليك أن تبلغ الى ينبع»، الى أن قال: ونظر الى غلام يرعى جداء فقال: «والله يا سدير لوكان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود»، يقول الراوي: عطفت على الجداء فعددتها فإذا هي سبعة عشر[1].

ودعا هذا التصور البعض الى أن يرى أن مسؤولية الإمام عليه السلام هي القيام بالثورة، وليس بصحيح أن ينشغل الإمام بالفكر والحديث ـ أو على الأقل أنّ الإنسان بهذا الظرف لا يمتلك تفسيراً لأيّ خيار غير الخيار الثوري المسلّح ـ ويترك الطغاة يعيثون في الأرض فساداً، ولا يكون هو المبادر للثورة فضلاً عن كونه المكلف بإزالة الظلم عن رقاب الناس، وبوسع الإمام أن يسلك هذا الاتجاه، وعدم جواز سكوته واضح؛ لأنه يبرر للظالمين انشطتهم وافعالهم المنحرفة، ولذا نجد الإمام الحسين عليه السلام قد جسّد هذا المنطوق حتى آخر لحظة من حياته، ثم لم ينقل لنا التاريخ أنّ علياً عليه السلام قد سكت يوماً عن الظلم، وقد تجلّى ذلك خلال حياته كلّها ومواقفه مع معاوية تشهد له بذلك.

وهذا التصور ترد عليه مؤاخذات، منها: أنّ ترجيح هذا الخيار دون غيره ناتج عن قصر النظرة، وعدم فهم دور الإمام وتحديده بهذا النمط ، وهذا يعني أننا قد وضعنا خطة العمل والتحرك في المجتمع بهذه الصياغة للإمام، وافترضنا أن مسؤوليته تنحصر بهذا الخيار، وجئنا بمرحلة ثانية لنرى مدى تطبيقه لهذه المسؤولية فيما إذا نجح فيها أم أخفق، والحال أنّ الأمر يقتضي العكس، كما هو ثابت في نظرتنا للإمام عليه السلام.

---

(١) أُصول الكافي ٢: ٢٤٢.

أما مسألة مقايسة الإمام الصادق بجدّه الحسين فهي قياس مع الفارق، فمن اعتقاداتنا البديهية أنّ مسؤولية الإمام هي الهداية لا الثورة، فالثورة ليست أصيلة في حياة الإمام، وإنّما الاصالة للهداية. نعم قد تتحقق الهداية عبر وسيلة الثورة، وقد تتحقق بغيرها ، فمسؤولية مكافحة الظلم وازالته عن المستضعفين تقع على عاتقه بلا إشكال ، ولكن من قال إنّ الظلم لا يرتفع إلّا عن طريق الثورة والاقتصاص من شخص الظالم؛ فهذا إن صحّ في بعض الأحيان إلّا أنّه لا يصحّ مطلقاً .

وعلى فرض أنّ الإمام جعفر بن محمد ﷺ قد اختار موقف المعارضة المسلحة، وشهر سيفه كعمّه زيد ضد الظلم، لترتب على هذا الموقف اُمور، منها:

١ ـ وقوف الدولة وأجهزتها بكلّ ثقلها، لاجهاض ثورته ممّا يجعل احتمالات النصر ضئيلة جداً.

٢ ـ إنّ القوى التي سيستعين بها الإمام من الطبيعي أن تكون من العناصر الساخطة على النظام، والتي يتوقع لها أن تتحقق كامل أغراضها وأهدافها بمجرد انتصار الثورة، وأغراض هذه العناصر ليست موضع قبول الإمام ورضاه؛ وعند ذاك ستحدث تقاطعات مع الثوار أنفسهم، ممّا يكون حدث الثورة عاجزاً عن منح الإمام فرصة لطرح برنامجه التغييري فيما بعد، والذي فجّر الثورة على أساسه، وهذا يعني أنها ثورة بلا أهداف.

٣ ـ من الطبيعي أنّه ستقف كل الفصائل والطوائف التى نمت وتطورت في الظروف السابقة وبنت لها كيانات، بمجرد حدوث انقلاب مسلّح يقوم به الإمام الصادق ﷺ ستقف معارضة ضد النهضة الجديدة، لأنها تستهدفهم أيضاً وإن لم يقفوا ضدها، سيقفون مع الأمويين وان عارضوهم قبل الثورة؛ انطلاقاً من وحدة المصلحة.

٤ ـ وعلى فرض أنّ الإمام قاد الثورة وتحقق النصر بالمعجزة؛ فماهو السبيل أو البرنامج الناجح الذي أعده الإمام ليكون ملائماً مع الوضع الجديد؟ وبتعبير آخر: هل الأرضية الاجتماعية والثقافية مهيأة ، وأنّ الأمة كانت تترقب الحدوث للتعامل مع الطرح الجديد؟ أم أنّ الأمة لا تعرف من أهداف الثورة شيئاً؟

٥ ـ إن قلت: إنّ الظروف آنذاك كانت تبحث عن قيام ثورة ، والأمة كانت تنتظر عود الثقاب الذي يفجّر عبوة البارود.

قلنا: هذا التطلع الثوري إن صح فهو تطلع ليس أصيلاً وترقب غير واعٍ، بل يتأثر بالدعاية والشعار البرّاق، وولاءاته متحركة، لا تعتمد الثابت وتتغير بين لحظة وأُخرى، وهذا يعني أنّ الإمام سيقود ثورة عائمة لا تصمد أمام التحديات، وهذا الاحتمال له ما يؤيده حين قال الإمام لعبدالله الذي جاء يخبره بكتاب أبي سلمة المتضمن دعوته للخلافة ـ بمعنى أنّ الخلافة تكون لعبدالله ـ يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم الى خراسان؟ وأنت أمرتهم بلبس السواد؟ هؤلاء الذين قدموا العراق، أنت كنت سبب قدومهم أو وجّهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً؟

هكذا كان الإمام يراقب الأوضاع وبموجبها يتّخذ القرار.

٦ ـ بالتأكيد سيشارك العلويون من آل الحسن بالثورة مع الإمام جعفر الصادق عليه السلام، مع اعتقادهم بأنّ القيادة لهم، وأنّها كانت شعوراً أو هاجساً إلّا أنّه سيتحول الى فعل، ولهذا فقد طرح محمد بن عبدالله بن الحسن نفسه خليفة للمسلمين، وممثلاً الاتجاه العلوي بحضور من الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فمن المحتمل أن يعارض الحسينيون سياسة الإمام الصادق، انطلاقاً من الاعتقاد بأهليّتهم وتقدمهم على الإمام، وعند ذلك ستحدث حرب علوية علوية بدل من أن تكون علوية عبّاسية، أو من ثلاثة أطراف.

٧ـ وتتميماً لمناقشة هذا الخيار قد يثور في الذهن سؤال وهو لماذا لا يقوم الإمام الصادق ﷺ بثورة حسينية مع العلم القطعي باستشهاده كثورة صاحب فخ وقبله زيد، رضوان الله عليهما؟

لا تصحّ المقارنة بين ثورة الإمام الحسين ﷺ، وثورة سيقوم بها الإمام الصادق ﷺ، وذلك لأنّ الإمام الحسين ﷺ كان قريب عهد بالنبوة، ولازال بعض أصحاب رسول الله احياء يُرزقون، والأُمة لا تعرف ابن بنت للنبي بالمباشرة غير الإمام الحسين ﷺ، كما لا يشك من أنه ابن الخليفة الرابع، وقد شارك في كثير من الحروب مع أبيه أمير المؤمنين ﷺ، وقد توافرت شروط موضوعية لثورته كالتي هيّأها الإمام الحسن ﷺ له، ثم إنّ الإمام الحسين كان بصدد تزييف حكومة يزيد بفضح عدم شرعيتها ورفضه لها مهما كلف الثمن، وهذا المقدار حاصل في نظر الأُمة مع الحكّام الأمويين زمن الإمام الصادق ﷺ وادراكها عدم شرعيتهم مع عدم بيعتها للإمام الصادق ﷺ كالتي أعلنتها مع جده الحسين ﷺ، بالوقت الذي أصبحت ظاهرة الثورة عاجزة عن التعبئة الجماهيرية ككل. ولم تتكفل بحدوث انقلاب جذري يقلب مفاهيم الأُمة رأساً على عقب، بل كانت الثورة زمن الإمام الصادق تمثل بعداً سياسياً لا أكثر من كونها رفض السلطان الحاكم وقيام سلطان آخر مقامه، وعليه فلا يعدو الإمام بثورته في نظر الأُمة أكثر من كونه يريد السلطة بغض النظر عن كونه محقّاً في طلبه، فهدف الثورة المستقر في ذهن الأُمة والانجاز الذي تترقبه هو ازالة الحكم الأُموي بلا بُعد استراتيجي وبلا طموح الى بديل، وحتى هذا الشعور لم يكن سائداً بحيث يمثل قناعة عامة في نظر الجميع ، وعليه فإنّ الإمام لو قام بثورة من هذا القبيل في المدينة الأكثر انصاراً له من غيرها أو بالكوفة وقتل هناك ـ وما أكثر الثورات ـ فلا تعرف الناس أكثر من كونه خرج ثم قتل ، والإمام يُريد أن يدخل المعادلة من كل أبوابها؛ فلا يحصر نفسه

بخيار واحد كزيد وغيره من الثوار.

الخيار الثاني: البناء الطائفي (دولة داخل دولة)

أن يعمل الإمام بخيار الانفراد والتكريس المذهبي، وبناء الطائفة الشيعية كفرقة من الفرق الإسلامية ليتخذ منها طريقاً من طرق التغيير، ويركّز على بناء الجماعة الصالحة، مبتعداً عن الأنشطة الأُخرى التي تستنزف قواه وتهدر طاقاته، ويعتني بحفظ الحديث والتفسير والأخلاق على أمل أن تكون فرقته ذلك النموذج المؤثر في الأُمة؛ ممّا يدعوها أن تحذو حذوه في هذا النشاط والبناء، وقد وردت تصاريح منه عليه السلام تؤكد هذا المعنى مثل: «**شيعتنا من اتقى الله**»، وقوله: «**كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا**».

فقد يقول قائل: إنّ هذا الخيار هو عين ما كان يعمل به الإمام؟

إنّ هذا الفهم لنشاط الإمام واطروحته الإصلاحية غير صحيح، وتصور خاطئ من الأساس .

إننا لو تابعنا النهضة العلمية والثورة الاجتماعية والسياسية التي تبناها الإمام بوعي؛ لوجدنا أنّ النهضة قد احدثت انعطافة تاريخية في حياة كلّ الأُمة لا في حياة الطائفة الشيعية فقط، فقد تعاطت الأُمة في حياته مفاهيم جديدة، وامتلكت وعياً جديداً، وأُعيدت الثقة فى نفسها واستردت عافيتها، وأصبح الذي يتبنى الفكر الصحيح مميزاً عن غيره أو موضع اقتداء بعد أن أكلها التناحر والتنافس المذهبي، فلا قدوة في نظر الأُمة ولا أحد يمثل الاسلام، وكلّ قد أعجب بنفسه وفرقته.

فالفتوحات العلمية في كل الحقول قد أذهلت الجميع، وأصبحت موضع افتخار ودعوى للاعتزاز والانتماء للدين، وبهذا فجّر الإمام طاقات الأُمة بعد

فترة يأس وذبول، دعاها أن تسرق أفكار الغير وتتشبث بها مدعية إسلاميتها، ودعا هذا الخطاب سواد الناس الى الجمود والتحجّر. فالنهضة التي فجّرها الإمام الصادق﵇ قد أعادت ثقة الأُمة باسلامها؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ الإمام لم يحصر تفكيره في الاطار المذهبي ، بل كان هدفه أبعد من ذلك.

لا تقل هذه دعوى خطيرة وفهم خاطئ؛ يُشم منها رائحة جواز تذويب أفكار الإمام واصالته المذهبية ودمجها بأفكار الآخرين المخلوطة، وذلك أنّ الإمام انطلق كمسؤول من قبل الله لحماية الرسالة ووحدة الأُمة، وأكّد الخصوصية كطريق لحمايتها معاً، من هنا نفسر تشديده في المحاسبة للخواص التي هي من أجل بناء تلك الجماعة، ومعنى الخصوصية هي طرد كلّ غريب من فكر وسلوك ليس له صلة بالإسلام ممّا دعا الأقربين أن يطلقوا على نهضة جعفر بالجعفرية التي هي احدى مفردات برنامجه الذي يهدف الى بناء قاعدة متينة، تمدّ الأُمة بالعطاء والبقاء لا لغرض التكريس الطائفي (أُمة داخل أُمة)، وإنّما كانت الوحدة من أساسيات عمل الإمام جعفر الصادق﵇ وأولويات برنامجه.

الخيار الثالث: تقديم الأولويات (اصلاح الحاضر من أجل بناء المستقبل)

أن يعمل الإمام ويركز نشاطه على أساس تقديم الأولويات؛ كأن يكون هدفه المركزي هو الحفاظ على وحدة الأُمة؛ لأنه كان يتخوف من حدوث طلاق بين الأُمة والاسلام لا رجعة فيه ؛ ولذا يمكن القول بأن الإمام تحرك باتجاه هدفه المركزي في مرحلته الراهنة، وعلى المدى البعيد أيضاً. وهو أن لا تتعرض الأُمة للموت المحتم كما هي سنن الله التي فعلت فعلها في الأُمم الماضية، وإن كان وجود الإمام من قبل الله يمثل السُنة الإلهيّة التي تحفظ الأُمة من السقوط المطلق، والانهيار الكامل حسب اعتقادنا بالأئمة﵈. وهذا الخيار هو الذي تبنّاه

الإمام جعفر الصادقعليه السلام ، وبالتحديد هو أن يبقى الإسلام محوراً جامعاً لفصائل الأُمة وإن اختلفت في الجزئيات، الانحراف السياسي يأتي في المرحلة الثانية من اصلاحات الإمام، فالمهمّ عند الإمام أن يبقى الإسلام هو المقياس والمرجع الذي يحاكم الآراء فيما إذا خالفت خطوطه الحمراء.

فالأُمة قد يصيبها المرض وتخنع للظالمين إلّا أنه يبقى أملها في الإسلام، فالإمام يتخوّف أن يضيع هذا الأمل ؛ لهذا فهو يبحث عن ايجاد عناصره في ضمير الأُمة، ويقطع الأمل ويسد الطريق أمام دعاة الالحاد كالزنادقة أو الغلاة، وقد تصدى لهم بقوة، بالوقت الذي كانت تعجز السلطات الأموية أو العباسية أن تجتث جذور هذه الدعوات الخطيرة على مستقبل الرسالة الإسلامية، والتي تنذر بتشتيت الأُمة، ولذا كان يسعى الإمام الى لملمة حاضرها تحت سقف واحد، لا الانشغال بالماضي القريب، وإنّما ترميم الحاضر وبناء المستقبل بمعنى الانطلاق من الماضي الأصيل لا الماضي القريب المنحرف، و لا يريد اطلاقاً أن يتعامل مع الأُمة لا من خلال حاضرها المتهرئ الخطير ولا من خلال ماضيها المنحرف القريب، هذه النقطة المركزية التي صبّ الإمام عليها كثيراً من جهوده، وكانت من أولويات أعماله ، وقد أعطت ثمارها فوق التصور .

ولا يتمّ تحقيق هذه الأولويات إلّا باعادة ثقة الأُمة برسالتها وإبعادها عن تعاطي الفكر الدخيل الذي وجد له في هذا الظرف مناخاً ملائماً، فأخذ يزحف بردائه الإسلامي الكاذب تحت عناوين التجديد، والاصلاح الداخلي أو اصلاح النظام السياسي الذي يفتقد الفلسفة الشرعية لحكمه، وقد خاض الإمام الصادقعليه السلام حرباً لا هوادة فيها؛ استهدف خلالها البنى الثقافية التحتية التي تتكئ عليها تلك المعتقدات ، وكذا الأفكار الأخرى التي تعارض النظام وتمتلك فلسفة وثقافة تبرر معارضتها الثقافية وليس السياسية كما هو في الظاهر.

لقد سلك الإمام مع كلّ الاتجاهات الفكرية والواجهات السياسية السائدة آنذاك اسلوب الهدم، فغزاها في عقور ديارها، وناظرها وحاكمها وطرح الفكر الإسلامي الأعمق، وأبطل كل ادعاءاتها، وحقق نصراً ساحقاً للإسلام الأصيل، وحصل على موضع رضا الجميع، بل حتى الخصوم، فنجد المنصور العباسي يثني على الإمام ،وثناؤه كان بمنطلق سياسي كما هي منطلقات الحاكمين، وهذا ممّا يكشف أنّ الإمام أعاد الكفة لصالح الإسلام وان حصل المنصور على مكسب آني باعتباره رئيساً للبلاد.

قال المنصور: إنّ جعفر بن محمد كان ممّن قال الله فيه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَآ﴾، وكان ممّن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات[1] لكنه من جهة قال لأبي حنيفة حين أقدم بجعفر الصادق، فقال: يا أباحنيفة! إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له من مسائلك الشداد[2].

نعم، سعي الإمام لتخريب البنى الثقافية، وقد مهّد لتحقيق الهدف الثاني الذي يريده الإمام وهو توحيد الأُمة تحت مظلّة الإسلام أرضاً وفكراً ، وليس بمهم أنّ تختلف الأُمة في الجزئيات فيما بعد، ولذا فالخلافات الإسلامية التي نلاحظها بين المذاهب لم تهزّ خطوطه الحمراء، ولم تؤد الى ضياع الأُمة كما حدث عند الديانات الأُخرى فأحال مسؤولية ذلك الى الأُمة الاسلامية نفسها لتفادي خلافاتها، ولا يعني أن الإمام ابتعد عن الدخول في هذا المعترك، وهذا بالدقة ما أراد أنّ يحققه الإمام.

والذي يدل على أنّ الإمام قد عمل بهذا الخيار هو نشاطه التالي.

---

(١) تاريخ ابن واضح ٣: ١٧ .

(٢) العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، علي بن يوسف الحلي: ١٥٣.

الفصل الرابع

التطبيقات العملية لصنع المستقبل المنشود

تحرّك الإمام لتنفيذ نظريته في الاصلاح والتربية والتغيير وفق خطة؛ تسمح له أن يختار المتناقضات كما يبدو في ظاهرها، وبتعبير آخر تعددت أدوار الإمام لأجل تنفيذ مخططه لا على جبهة واحدة، وإنّما قاد الأُمة إن صح التعبير وبما ينسجم مع الظرف والمرحلة مرة من خلال مواقع خلفية تتسم بالسرية والكتمان، ومرة من خلال مواقع أمامية ظاهرة وبيّنة للجميع، يقودها تحت عنوان الإمامة مرة أو كونه الأعلم ثانية، أو كمحدث ثالثة، ورابعة كمفسّر، وما الى ذلك تحت عناوين شتّى.

كما اختار أُسلوب الاتصال والانفصال مع الجماعات والأفراد المؤثرة في حياة الأُمة سواء الواجهات الاجتماعية أو الفكرية أو السياسية لتحقيق غرضه الكبير ولا نتجاهل ثقل تلك الاتجاهات؛ فقد كانت تعمد الى التحدي للامام، وتقتحم كلّ ممنوع، بل كان أحدهم يأتي من البلاد البعيدة لمواجهة فكر الإمام، فقد مارس أُسلوب الاتصال وعدم القطيعة مع الاتجاهات الفكرية؛ مستوعباً لأفكارها بقصد توجيهها وترشيدها نحو الأصالة، وهدم ما أعوج منه مبيّناً ومقارناً بينها وبين الفكر الأصيل، فكان يلتقي امثال الزنادقة، قال هشام بن الحكم: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبدالله عليه السلام علمٌ فخرج الى المدينة يناظره فلم يصادفه، فقيل له هو بمكة، فخرج الزنديق الى مكة ونحن مع

أبي عبدالله، فقاربنا الزنديق ونحن مع أبي عبدالله في الطواف، فضرب كتفه كتف أبي عبدالله فتمّ حوار مطول بينهما انتهى الى ايمان الزنديق على يدي الإمام، وقال الزنديق للإمام: اجعلني من تلامذتك. ومرة عبر الانفصال ، كما حدث بينه وبين الغلاة.

عن عيسى الجرجاني قال: قلت لجعفر بن محمد: إن شئت أخبرتك بما سمعت القوم، يقولون، قال: فهات، قال، قلت: فإنّ طائفة منهم عبدوك اتّخذوك إلهاً من دون الله، وطائفة أُخرى قالوا لك النبوّة، قال: فبكى حتى ابتلت لحيته، ثم قال: **إن امكنني الله من هؤلاء فلم اسفك دماءهم، سفك الله دم ولدي على يدي.**

وقوله: **لعن الله أبا الخطاب ولعن من قتل معه، ولعن من بقي منهم، ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم.** وله اتصال مع الشرائح الثورية منظّراً ومغذّياً لها أو داعماً لها، كما حدث مع ثورة عمّه زيد. قال الفضيل بن يسار أحد أصحاب الإمام: ذهبت الى المدينة بعد قتل زيد لألتقي بالإمام الصادق عليه السلام وأخبره بنتائج الثورة، وبعد أن التقيته وسمع منّي مادار في المعركة قال: **يا فضيل، شهدت مع عمي قتال أهل الشام؟** قلت: نعم. قال: **فكم قتلت منهم؟**

قلت ستة قال: **فلعلّك شاك في دمائهم؟** قال: فقلت: لو كنت شاكاً ما قتلتهم. ثم قال سمعته وهو يقول: **أشركني الله في تلك الدماء، مضى والله زيد عمي وأصحابه شهداء مثل ما مضى عليه علي بن أبي طالب وأصحابه**[1]، وعلاقة الإمام مع عمّه زيد لها انعكاساتها على زيد نفسه، فكان

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ١: ٢٨٦ .

يقول بحقّ الإمام الصادق: في كلّ زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر، لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه(١).

وقال الإمام عليه السلام: «**لا تقولوا خرج زيد! فإنّ زيداً كان عالماً صدوقاً، ولم يدعكم الى نفسه، إنّما دعاكم الى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى بما دعاكم اليه**(٢)»، وله علاقة انفصال معها من خلال تحذيره لعدد من أصحابه بضرورة عدم المشاركة مع الثورة لضرورات مستقبلية لصالح الرسالة، وله علاقة اتصال مع العلويين من آل الحسن، فقد حذر عليه السلام عبدالله بن الحسن من الترويج لابنه محمد على أساس أنه المهدي لهذه الأمة، واخبره بمستقبل الأحداث، ونبّه بأنها ستنتهي الى استشهاد محمد وأخيه ابراهيم، وأنّ الخلافة بعد أبي العباس السفاح ستكون للمنصور(٣)، وترحم عليهما حين استشهدا.

والجدير بالذكر أنهما لم يتجاوزا الإمام حينما كانا قد قررا الثورة على الأمويين ، بالرغم من عدم ايمانهما بضرورة تسليم الحكم الى شخص الإمام عليه السلام.

كما كان له عليه السلام علاقة انفصال ، فقد حذّر بخطورة مستقبل مؤتمر الأبواء والقرارات التي أُتخذت فيه، ولما ثار محمد بن عبدالله (**ذو النفس الزكية**) ترك الإمام الصادق المدينة، وذهب الى أرض له بالفرع، فلم يزل هناك مقيماً حتى قتل محمد واطمأن الناس وأمنوا رجع الى المدينة (٤). وله علاقة انفصال مع الحكومة العباسية ، وقد حرّم التعاون معهم لأنّهم ظلمة، فقال عليه السلام : « **لا تعنهم** ـ أي حكّام الجور – **على بناء مسجد** »، وقال لبعض أصحابه: « **يا عذافر ، نبئت أنك**

---

(١) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ١٤٧.

(٢) الحورالعين: ١١٨.

(٣) بحار الأنوار ٢٦: ١١٥ .

(٤) كشف الغمة ٢: ١٦٢.

تعامل أبا أيوب والربيع فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة»[١] وردّ الإمام جواباً لرسالة المنصور التي قال فيها للإمام تصحبنا لتنصحنا ، قال الإمام : « **من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك** ». وله علاقة اتصال، فقد كانت لقاءاته مع المنصور ؛ اتسمت بالمرونة والاستيعاب. قال المنصور للصادق عليه السلام : اني عزمت على أن أخرّب المدينة ولا ادع فيها نافخ ضرمة فقال: «**يا أمير المؤمنين، لا أجد بُداً من النصاحة لك فاقبلها إن شئت أو لا** ثم قال عليه السلام: **إنّه قد مضى لك ثلاثة أسلاف: أيوب عليه السلام أُبتلي فصبر، وسليمان أُعطي فشكر، ويوسف قدر فغفر، فاقتد بأيّهم شئت**. قال: قد عفوت[٢].

والجدير بالذكر أنه جاء ذلك بعد أحداث الثورة العلوية لآل الحسن.

وقال ابو بصير: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «**اتقوا الله، وعليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون واصمتوا عمّا صمتوا؛ فإنّكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يعني بذلك ولد العباس، فاتقوا الله فإنّكم في هدنة، صلّوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وأدّوا الأمانة اليهم**»[٣].

كما استوعبت مدرسته المخالفين له فقهاً وعقيدة. قال أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفي: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، وقال مالك ابن أنس أيضاً ـ وكان ممّن يحضر عند الإمام ليتأدّب بآدابه ويهتدي بهديه ـ: ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد علماً وعبادة وورعاً[٤].

وله علاقة انفصال من جهة مهاجمته لأفكار القياس والجبرية، وكان الإمام قد واجه تيار القياس والرأي الذي تزعّمه أبوحنيفة بشدة، ولمّا دخل أبوحنيفة

---

(١) وسائل الشيعة ٦: ١٢٨.

(٢) سير اعلام النبلاء: ٢٦٦١٦ .

(٣) الكافي ٨: ٢١٠ .

(٤) تاريخ ابن واضح ٣: ١٧.

على الإمام وتم حوار مطوّل بينهما قال الإمام: «**يا أبا حنيفة! إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله، ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع؟**»

فقال: أصلحك الله أقيس وأعمل فيه برأيي.

قال: **يا أبا حنيفة! إن أول من قاس ابليس الملعون، قاس على ربّنا تبارك وتعالى فقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**(١) فسكت أبو حنيفة.

وله علاقة انفصال مع الخطوط المائلة عن الحكم العباسي؛ من خلال مواقفه من عروضاتهم، كعرضي أبي مسلم وأبي سلمة. كان أبو سلمة الخلّال أحد الدعاة العبّاسيين النشطين في الكوفة، وقد لعب دوراً متميزاً في نجاح الدعوة العباسية وتكثير أنصارها في الكوفة، لما امتاز به من لياقة وعلم ودهاء وثراء؛ حيث أنفق كثيراً من ماله الخاص على رجال الدعوة العباسية، وكانت له علاقة خاصة واتصالات مستمرة بإبراهيم الإمام.

لقد أدرك هذا الرجل بعد موت إبراهيم الإمام بأنّ الأُمور تسير على خلاف ما كان يطمح اليه، أو أنّه كان قد تغيّر هواه واستجدّ في نفسه شيء، فقد لاحظ مثلاً أنّ مستقبل الخلافة سيكون الى أبي العباس أو المنصور، وهما غير جديرين بالخلافة، أو لطمعه في السلطة، فكتب للعلويين وفي مقدمتهم الإمام الصادقعليه السلام: بأنه يريد البيعة لهم.

لكننا لا نفهم من رسالة ـ أبي سلمة ـ للإمام بأنّها رسالة ندم أو اعتراض على النهج العباسي وخديعتهم للعلويين ، أو كشف اساليبهم في الاستيلاء على السلطة.

والذي ذكره المؤرخون(٢)، هو أنّ أبا سلمة الخلّال أراد نقل الخلافة الى

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) الطبري ٩: ١٢٤، وابن قتيبة: ١٢٨، والطقطقي: ١٢٧، والفرج بعد الشدة: ٣٤٧ وغيرهم.

العلويين ولم يوفّق لذلك.

وقد احتمل البعض أنّ أبا سلمة فعلاً كان صادقاً في عرضه، كما احتمل آخرون أنّ هناك عوامل أُخرى كانت قد دفعته لذلك، منها: أنه أراد أن يتخلّص من خصومه فاحتمى بالعلويين.

وهنا لابد أن نرجع الى جواب الإمامﷺ على رسالة أبي سلمة؛ حيث نجد فيه أن الإمامﷺ قد رفض العرض، لا بسبب كون الظروف قلقة وغير مؤاتية فحسب، بل كان الرفض يشمل أبا سلمة نفسه، فقد قالﷺ: «**مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟!**»(١). وأكد الإمامﷺ رفضه القاطع عندما قام بحرق الرسالة جواباً لأبي سلمة.

قال المسعودي: كاتب ابو سلمة الخلّال: ثلاثة من أعيان العلويين وهم: جعفر بن محمد الصادقﷺ، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وعبدالله المحض. وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم كان يسمى محمد بن عبدالرحمن بن أسلم مولى لرسول اللهﷺ. وقال أبو سلمة للرسول: العجل العجل! فلا تكوننّ كوافد عاد. وقال له: أقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يُجب فألق عبدالله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فألق عمر.

فذهب الرسول الى جعفر بن محمد أولاً، ودفع اليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمامﷺ: « **مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري!**» قال له الرجل: اقرأ الكتاب. فقال لخادمه: **ادن السراج مني**، فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: ألا تجبه؟ قالﷺ : **قد رأيت الجواب، عرّف صاحبك بما رأيت** »(٢).

---

(١) مروج الذهب، المسعودي ٣: ١٨٤، الآداب السلطانية: ١٣٧.

(٢) مروج الذهب ٣: ١٨٤، الآداب السلطانية: ١٣٧.

وانطلق الإمام لتنفيذ مخطّطه هذا من خلال نافذة الجامعة العلمية وغيرها، تلك الجامعة التي كان قد زرع نواتها الإمام الباقر عليه السلام.

أما أبو مسلم الخراساني الذي قاد الانقلاب على الأمويين في خراسان، وتم تأسيس الدولة العباسية على يديه، نجده في الشهور الاولى من انتصار العباسيين وإعلان البيعة لأبي العباس السفّاح بالكوفة يكتب الى الإمام الصادق عليه السلام رسالة، يريد بها البيعة للامام عليه السلام حيث جاء فيها: «إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أُمية الى موالاة أهل البيت فان رغبت فلا مزيد عليك»(١).

ولاشك أنّ أبا مسلم الخراساني المعروف بولائه وإخلاصه للعباسيين ـ وهو صنيعتهم ـ يعتبر صدور رسالة من عنده بهذه اللهجة نوعاً من المفاجأة، ولابدّ أنها تكون متأثرة بعوامل طارئة، كانت قد غيّرت من قناعاته، سواء كانت تلك العوامل ذاتية أو موضوعيّة، وإلّا فما هي الجهة التي تربطه بالإمام عليه السلام(٢)؟

لم يحدثنا التاريخ عن أية علاقة بينه وبين الإمام عليه السلام، لا عقائدية، ولا سياسية، سوى لقاء واحد، لم يتمّ فيه التعارف بينهما أو التفاهم.

نعم كان عليه السلام قد عرفه وذكر اسمه ومستقبله السياسي قبل إعلان العباسيين ثورتهم(٣).

أما موقف الإمام عليه السلام من عرض أبي مسلم الخراساني فيمكن معرفته من خلال جواب الإمام على الرسالة. فقد جاء في جوابه عليه السلام: **ما أنت من رجالي ولا**

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤١.

(٢) يقول أحد الأفاضل ويحتمل هذا العرض جاء بمثابة فخ للإمام بتحريك من أسياده لغرض الإطاحة به في شرك السلطة إن كان له هوى في الخلافة.

(٣) إعلام الورى: ٢٧٩.

الزمان زماني[١].

إنّ أبا مسلم قبل أيام قد سفك من الدماء البريئة مئات الآلاف، حتى قيل لعبدالله بن المبارك: أبو مسلم خير أو الحجّاج؟ قال: لا أقول أنّ أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شرّاً منه[٢].

وكان لا يعرف أحداً من خطّ أهل البيت ومواليهم، وكانت علاقته محصورة بدائرة ضيّقة كما حددها له مولاه ابراهيم الإمام عندما أمره أن لا يخالف سليمان بن كثير، فكان أبومسلم يختلف ما بين ابراهيم وسليمان[٣].

كما نجده بعد مقتل ابراهيم الإمام الذي كان يدعو له، يتحوّل بولائه لأبي العباس السفاح، ومن بعده لأبي جعفر المنصور، علماً بأنّ العلاقة كانت بينه وبين المنصور سيئة جداً، وكان أبو مسلم يستصغر المنصور أيام حكومة السفّاح إلّا أنّ المنصور كتم ذلك، حتى ثار لنفسه منه أيام حكومته فقتله شر قتلة.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤١.

(٢) وفيات الأعيان ٣: ١٤٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٤٩.

الفصل الخامس

مدرسة أهل البيت
أُطروحة لاصلاح الحاضر ومقدمة لايجاد المستقبل البعيد

انطلق الإمام جعفر بن محمدﷺ من خلال تطويره لمدرسة آبائه بهدف أن تكون أداة ونافذة لوعي الأُمة واصلاحها، وبالتالي لتمتدّ الى الأُمة فتكون تياراً واسعاً وعنصراً مؤثراً في حياتها سلوكاً وأخلاقاً وعلماً وجهاداً، وهذا يتطلب أن تكون النواة التأسيسية بمستوى المرحلة، ولها القدرة في العطاء والتحريك ومقدمة لصنع المستقبل الإسلامي البعيد ومنسجمة مع متطلبات الأُمة، ولهذا فقد امتازت مدرسة الإمام قائدة النواة الاجتماعية والثقافية بعدد من المميزات تبعاً لضخامة أهدافها التي أراد الإمام انجازها في هذه المرحلة، لتعطي ثمارها في المستقبل البعيد فضلاً عن اصلاحها لحاضر الأُمة.

أولاً: ممّا يميّز مدرسة الإمام الصادقﷺ عن باقي المدارس أنها لم تنغلق في المعرفة على خصوص العناصر الموالية فحسب؛ وإنّما انفتحت لتضمّ طلاب العلم من مختلف الاتجاهات . فهذا أبو حنيفة الذي كان يخالف الإمامﷺ في منهجه، باعتباره ـ قد سلك في القياس مسلكاً استوجب شدة الانكار عليه وعلى أصحابه، وهو الذي أطلق على مؤمن الطاق (أحد أصحاب الإمام الصادق ومعتمديه) اسم شيطان الطاق ـ كان ممّن يختلف الى الإمام الصادقﷺ، ويسأله عن كثير من المسائل ، وقد روى عن الإمام الصادقﷺ وحدّث عنه واتصل به

في المدينة مدّة من الزمن، كما أنه كان قد ناصر زيد بن علي عليه السلام، وساهم في الدعوة الى الثورة والخروج معه، وكان يقول: ضاهى خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر(١).

ثانياً: ولم يقتصر علم الإمام عليه السلام على حقل واحد ـ كالفقه أو الكلام مثلاً، ليكون سبباً لمخاطبة وجذب فئة محدودة من الناس ـ وإنّما تناولت جامعته العلمية مجموعة العلوم الدينية وغير الدينية، وتربّى فيها كبار العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية والبشرية؛ بحيث نجد الحضارة الإنسانية أصبحت مدينة الى علوم الإمام ومعارفه ومنهجه التعليمي والمعرفي.

والعلوم التي تناولتها جامعة الإمام عليه السلام بالبحث والتدريس هي: علم الفلك، والطبّ، والحيوان، والنبات، والكيمياء ، والفيزياء، فضلاً عن الفقه والأُصول والكلام والفلسفة وعلم النفس والتربية والأخلاق والمنطق.

ثالثا: لم تتلوث جامعة الإمام عليه السلام بسياسة الحكومات الجائرة، فلم تكن موضع شبهة وكراهيّة من الناس؛ ليتصوّر أنّ المدرسة ماهي إلّا أداة لخدمة الحكّام كما يلاحظ في بعض المدارس المعاصرة لها، بل قد رأت الأُمة أنّ هذه المدرسة على رأسها وريث النبوّة وعملاق الفكر المحمدي الإمام أبو عبدالله عليه السلام المعروف بمواقفه الرسالية واستقامته على خط الشريعة الربانية المحمدية، وقد لقب بالصادق لصدقه وعدم مساومته وعدم خضوعه لسياسة الحكّام المنحرفين، من هنا كانت جامعة الإمام عليه السلام تعتبر حصناً سياسياً وفكرياً يلوذ به طلّاب الحقيقة.

رابعاً: كما تميّزت أيضاً جامعة الإمام عليه السلام بمنهجها العلميّ السليم، وعمقها

---

(١) حياة الإمام الصادق ، القرشي.

الفكري واتّجاهها العقائدي التربوي والاصلاحي، ولم تكف أُطروحتها في الإعداد العلمي الاعتماد على حشو الذهن بالمعلومات فقط، وإنّما خرّجت هذه الجامعة شخصيات كُبرى ونماذج مُثلى عرفت بالعطاء السخيّ للأُمة.. بحيث أصبح الانتماء الى مدرسة الإمام وجامعته يعدّ من المفاخر، فقد وصل عدد طلّابها الى أربعة آلاف طالب علم، واتسعت فيما بعد؛ لتشكّل عدة فروع لها في الكوفة والبصرة، وقم ومصر.

خامساً: والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يجعل من الجامعة والجهد المبذول فيها نشاطاً منفصلاً عن حركته وأنشطته الأُخرى، بل كانت جزءاً لا ينفصل عن برنامجه التغييري؛ لأنّها بالتأكيد كانت تساهم في خلق مناخ يمهّد بدوره لبناء الفرد الصالح، ومن ثمّ المجتمع الصالح؛ لأنّ هذه الجامعة تشكّل امتداداً واعياً للخط الرسالي في وسط الأُمة. ونشاط الإمام عليه السلام وإن تعدّد لكنه نشاط مترابط ومتداخل؛ حيث نجد الكادر العلمي الحاضر في مدرسة الإمام عليه السلام هو الذي يحضر في نشاطات الإمام الخاصّة وبعض نشاطاته العامّة.

سادساً: لقد حرص الإمام الصادق عليه السلام في هذه الفترة أن يحقّق من خلال مدرسته إنجازاً في خصوص تدوين الحديث والحفاظ على مضمونه، بعد أن كان قد تعرّض في وقت سابق للضياع والتحريف والتوظيف السياسي، بعد المنع من تدوينه. والأئمة المعصومون عليهم السلام لم يستجيبوا لقرار المنع، بمعنى ضياع الحديث ونسيانه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ عندنا ما لا نحتاج معه الى الناس وأنّ الناس ليحتاجون إلينا، وأنّ عندنا كتاباً بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ علي عليه السلام وصحيفة فيها كلّ حلال وحرام...**»[1].

---

(١) أُصول الكافي للشيخ الكليني: ٢٤١/١ و٢٤٢، ح٦، كتاب الحجة، باب ذكر الصحيفة .

وجاء عنه عليه السلام أنّه قال: «**علمُنا غابر، ومزبور ونكتٌ في القلوب ونقرٌ في الأسماع، وإنّ عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة، وإنّ عندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج الناس إليه...**»[١] والجفر كانوا يكتمونه عن غيرهم.

سابعاً: وكان عليه السلام يأمر طلابه ويؤكّد لهم ضرورة التدوين والكتابة، كما نجد ذلك في قوله عليه السلام: «**احتفظوا بكتبكم فإنّكم سوف تحتاجون إليها**»[٢].

وكان عليه السلام يشير الى نشاط زرارة في مجال الحديث ويقول: «**رحم الله زرارةبن أعين، لولا زرارة لاندرست آثار النبوّة وأحاديث أبي عليه السلام**».[٣]

وقال عن زرارة وجماعة من أصحابه: «**لولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا الفقه، هؤلاء حفّاظ الدين وأمناء أبي عليه السلام على حلاله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة**»[٤].

وكان يأمر طلّابه أيضاً بالتدارس والمباحثة، حيث يقول للمفضل بن عمر: «**اكتب وبثّ علمك في إخوانك، فإنّ مت فأورث كتبك بنيك، فإنّه يأتي على الناس زمان حرج لا يأنسون فيه إلّا بكتبهم**»[٥].

وعلى هذا الأساس اهتمّ أصحابه بكتابة الأحاديث وتدوينها؛ حتى تألقت واجتمعت الأُصول الأربعمائة المعروفة[٦]. والتي شكّلت المجاميع الحديثية الأُولى عند الشيعة الإمامية.

---

(١) المناقب لابن شهر آشوب: ٣٩٦، بحار الأنوار ٤٧: ٢٦، الارشاد: ٣٠٧، الاحتجاج ٢: ١٣٤، وزادوا فيه : فسئل عن تفسير هذا الكلام، فقال أما لا الغابر فالعلم بما يكون.

(٢) أُصول الكافي: ٥٢/١، ح ١٠، بحار الأنوار: ١٥٢/٢ ح ٣٨.

(٣) الاختصاص للمفيد: ٦٩ ، اختيار معرفة الرجال للطوسي: ٣٤٨/١، رقم ٢١٧ .

(٤) وسائل الشيعة ٨: ٥٧ ـ ٥٩ .

(٥) أُصول الكافي ١: ٥٢ .

(٦) وسائل الشيعة ١٨: ٥٧ ـ ٥٩.

ثـامناً: اعـتنى الإمـام عليه السلام بـالتخصّص العـلمي فـي تـلك المـرحـلة، لأنّ للاختصاص دوراً كبيراً في إنماء الفكر الإسلامي وتطويره، بحيث يكون قادراً على استيعاب الطاقات الكثيرة الوافدة على مدرسة الإمام عليه السلام من سائر أنـحاء العالم الإسلامي، وبالتخصص تتنوع العطاءات، ويكون الابداع وعمق الانتاج. لذا وجّه الإمام التخصص العلمي، وتصدّى للإشراف على كلّ تلك التخصصات.

ففي الفلسفة وعلم الكلام ومباحث الإمامة؛ تخصص كلّ مـن هشـام بـن الحكم، وهاشم بن سالم، ومؤمن الطاق، ومحمد بـن عـبدالله الطـيّار، وقـيس الماهر، وغيرهم.

وفي الفقه وأُصوله وتفسير القرآن الكريم تخصّص كلّ من: زرارةبن أعين، ومحمّد بن مسلم، وجميل بن درّاج، وبريد بن معاوية، وإسـحاق بـن عـمّار، وعبدالله الحلبي، وأبو بصير، وأبان بن تغلب، والفضيل بن يسار، وأبـوحنيفة، ومالك بن أنس، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينة، ويـحيى بـن سعيد، وسفيان الثوري.

كما تخصّص في الكيمياء جابر بن الحيان الكوفي.

وتخصّص في حكمة الوجود المفضل بن عـمر الذي أملىٰ عـليه الإمـام الصادق عليه السلام كتابه الشهير المعروف: (بتوحيد المفضّل).

تاسعاً: ونشط طلّاب الإمام عليه السلام في نتاجاتهم، كـلّ حسب اخـتصاصه فـي التأليف والمناظرة، فقد جمع السيد حسن الصدر أسماء مؤلفات الشيعة في هذه الفترة، وذكر أنها وصلت الى ستة آلاف وستمائة كتاب(١).

كما برز في المناظرة هشام بن الحكم، وكان الإمـام الصـادق عليه السلام مسـروراً بمناظرات هشام، ويحبّ أن يسمع مناظراته مع زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد

---

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٢٨٨.

الذي تغلّب عليه ، وبعد أن قصّها هشام للإمامعليه السلام قال له الإمام: **يا هشام من علّمك هذا؟** قال: يابن رسول الله جرى على لساني... قال الإمام : **هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى**(١).

عاشراً: ومن الأهداف التي خطّط لها الإمامعليه السلام في مدرسته هو إنشاء وتنشيط حركة الاجتهاد، وتخريج الفقهاء والمجتهدين في علوم الشريعة الإسلامية.

والاجتهاد ضرورة قرآنية التزم بها أهل البيتعليهم السلام، وعملوا على تحقيقه لأتباعهم لئلّا يكونوا أتباعاً لغيرهم وليكونوا القدوة المثلى في كل عصر.

والاجتهاد المشروع هو: طريق الاستنباط الصحيح للحكم الواقعي أو الظاهري كما رسمه أهل البيتعليهم السلام، وقد تميّزت روايات أهل البيت عن روايات غيرهم ، كما أفصح عن هذه الحقيقة الإمام الصادق عليه السلام في قوله : « **حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدّي ، وحديث جدّي حديث الحسين ، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين ، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجل** » (٢) وقال عليه السلام : «**إنا لو كنا نفتي الناس برأينا وهَوانا؛ لكنّا من الهالكين، ولكنّها آثار من رسول الله صلى الله عليه وآله ، أصل علم نتوارثها كابر عن كابر ، نكتنزها كما يكتنز الناس ذهبهم وفضّتهم** » (٣).

وعليه فالاجتهاد في مذهب أهل البيتعليهم السلام هو اجتهاد في دائرة النص الشرعي الواصل إلينا عن طريق أهل البيت عن الرسولصلى الله عليه وآله، أو النص القرآني

---

(١) راجع الاحتجاج تجد كامل المناظرة ٢: ١٢٥ ـ ١٢٨ .

(٢) أُصول الكافي: ٥٣ ـ ٥٨ .

(٣) بصائر الدرجات: ٢٩٩ .

الّذي لوحظت كلّ ملابساته، ومن هنا رسم الإمام عليه السلام منهج الاجتهاد في فهم النص، وحارب اجتهاد الرأي المتمثل في القياس والاستحسان، كما حاربه القرآن وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحاولوا إبعاده عن الشريعة وإبعاد أتباعهم عنه. ومن هنا رسموا لنا معالم هذا الاجتهاد وخطوطه العريضة، وبيّنوا أسسه وأساليبه ووفّروا وسائله وأدواته وطبّقوا منهجه، ودعوا أصحابهم إليه، وقدّموا نماذج حيّة للمجتمع الإسلامي في هذا الصدد، وهكذا انبثقت مدرسة الفقهاء الرواة التي اعتمدت منهج أهل البيت الفقهي والتشريعي، وتميّزت بذلك عن سائر المدارس الفقهية المتحرّرة من هذا المنهج أو الجامدة على ظواهر النصوص.

هذا عرض مختصر لبعض انشطة الامام واطروحته التغييرية، التي استطاع بواسطتها أن يحيي معالم الشريعة ويعيد للأُمة علاقتها وثقتها بالاسلام بعد موجة خطيرة كادت أن تؤدي الى موت الأُمة المحتوم، هذا ما توصلنا اليه بنظرنا القاصر.

وخلاصة القول: بعد أن أدّت الدراسات التاريخية حول حياة الأئمة عليهم السلام دورها خلال القرن المنصرم، وبمستوى متطلبات المرحلة؛ تتأكد الحاجة اليوم لاستنطاق مسيرتهم وادخالها كعنصر واعٍ ومصحح لحركة البناء والتغيير، ويضفي هذا العنصر بقدسيته وقوته على الأنشطة والفعاليات كعامل بقاء واستمرارية؛ انطلاقاً من ربط حلقة حاضر الأُمة مع ماضيها الأصيل الذي يكفل لنا تحقيق المستقبل المنشود بخطى واضحة الرؤى.

والإقلاع عن المناهج التي تتعامل مع تراثهم بطريقة الاختزال لمقاطع من تاريخهم يفرضها الاستشهاد، الأمر الذي يجعل منها تجربة عاجزة ومحدودة العطاء تتصف بالجمود وتستعصي عن الأخذ الدائم.

لقد لاحظ الإمام جعفر بن محمد دعوات التخريب المتناقضة بأهدافها تنخر جسم الأُمة، الدعوات التي انتجتها ظروف الانحراف السياسي، التي

وجدت في زمانهﷺ مناخاً سمح لها أن تدعو لنفسها تحت لافتات التجديد أو الأصالة؛ ضمن مبادئ تحمل في داخلها بذور التمزيق والشرذمة للعالم الاسلامي وتفتته الى أقاليم، تتقاطع فيما بينها فكراً وسلوكاً وأرضاً.

واستشرف الإمام في أنّ الحاضر يكشف عن صِدام شامل، يجعل الأُمة طرائق قدداً لا أمل في عودتها تحت سقف واحد، ولهذا كانت النخب الواعية زمن الإمام قد أشغلها التفكير للخروج عن المأزق، وماهي الحلول والخيارات الكفيلة بتفادي المستقبل المخيف؟

وكان للإمام خياره المركزي الذي تبنّاه وركّز فيه على اصلاح الحاضر عن طريق ايجاد عوامل قوة، تعيد للأُمة ثقتها بالاسلام وتقضي على ظاهرة الانفعال الطارئ، واقناعها بالتنازل عن أهدافها التي ولّدتها ظروف الانحراف ليعاد أملها باهداف الإسلام الكبرى.

تلك العناصر التي تؤمّن طول حياتها وبقاءها خالدة بعد اجراء عملية استئصال لعناصر الانحراف التي توغلت في جسمها؛ لتعود بالتالي تحت خيمة الإسلام مطمئنة مع قبولهﷺ بظواهر مرضية، يكفل بطردها وعي الأُمة الجديد في زمن لاحق مازال بقاؤها ـ الأمراض ـ في نظر الإمام لا يؤدي الى موت الأُمة.

فاختارﷺ لنفسه برنامجاً يسمح له في أن يتحرك بخيارات وبدائل عبر نوافذ متعددة في آن واحد، تميزت أساليبه بانسجامها مع واقع الأُمة المتناقض في ارداته وظواهره جاءت مدرسته كمشروع يجذب الأُمة اليه، ويُعيد الأمل في اسلامها، ويحقق الانقلاب في حياتها، وبهذا يمكن القول بأنّ الإمام قد حقق أهدافه مع ضم أنشطته الأُخرى الى هذا المشروع.

الخاتمة

لم تكن محاولة التعرف على المستقبل والاهتمام به ولسيد هذا العصر أو من ابداعات الإنسان الغربي وإنّما بدأت الإنسانية تتناوله منذ انفتح الإنسان القديم على اسرار الطبيعة وبدأت علاقته بالوجود تنحى منحاً عقلياً، حيث أخذ ينمو هذا التفكير شيئاً فشيئاً حتى دخل حقول الحياة المختلفة.

ولما كانت النخب المستفيدة من المعتقدات الأُسطورية الوثنية رأت من رسالة التوحيد عائقاً يقف امام طموحاتها وأهدافها الدنيوية ل، لذا تحوات التقاطعات بين الارادات الى صراع بين دين الله ودين الملوك الذي حاول أن يوسطر التفكير المستقبلي كباقي حقول التفكير الأُخرى فظهر العرّافة والكاهن والمنجم كعناصر مزيفة تسعى لتوظيف هذا التفكير وحب تطلع الإنسان لمستقبله لصالح الحاكمين. ولكن بي الموقف الحضاري إزاء التفكير المستقبلي من الناحية الجوهرية واحد وأن اختلفت طرقه وادواته من حضارة لأُخرى.

وظلّ الإنسان بدافع حاجته وطموحاته يبحث عن بدائل فكرية يتطلع بواسطتها الى المستقبل ويتهرب عن كابوس آلهة الطالع الأُسطوري وهيمنة الكاهن المنظوي تحت عباءة السلطان. حتى دخل عد ذلك الى مجال الفلسفة حيث تناوله افلاطون في دولته الفاضلة وتبعه بعد ذلك فلاسفة آخرون.

ولكن لم يدم التفكير المستقبلي بنمو ويترك في مجال الفلسفة طويلاً وانما استقل عن الفلسفة كباقي العلوم التي استقلت عن رحمها .

ولما وظّفت العلوم الأُخرى كالفيزياء والكيمياء والهندسة والاجتماع

لاغراض النخب وظف هذا العلم هو الآخر لصالح السياسة واستعمار الإنسان.

أما لولاحظنا الموقف الإسلامي من هذا لاتفكير ولجدنا أن العقيدة الإسلامية قد أرست معالمه ودفعت بالإنسان قديماً لأن يضع مستقبله بنفسه انطلاقاً من الربط الذي أوجدته بين محتوى الإنسان وطاقاته الذاتية المودعة فيه وبين العناصر الأخرى الخارجية كالوحي والسنن الاجتماعية.

ودفعت به مرة أخرى لأن ينطلق بهذا التفكير لآفاق أوسع يثترى العقيدة بأن هناك وحدة اشتراك بين المجتمعات واستبعدت التفسير الذي يذهب إليه علماء الاجتماع من أن لكل مجتمع تاريخه وخصاصه الثابتة التيت فرده عن غيره من المجتمعات وبهذا منحته القدرة لأن يخطط للمستقبل المرغوب ولكن فضائه الواسع الذي يُشرك الإنسانية جمعاء لايجاد مستقبلها العالمي.

وبهذا يحخفق التفسير الحضاري غير الإسلامي لحركة الحضارة لأنهيلزم منه تعدد المستقبليات الإنسانية الأمر الذي يبقى ظاهرة الاختلاف ومبررات الصراع قائمة في حياة الشعوب.

ولما كان التفسير الفلسفي والحضاري للتاريخ في الاطار المستقبلي قد تبنى المنطق الحتمي للتاريخ الذي تنعدم فيه الارادة إذاً فلا معنى للحديث عن المستقبل في حقوله الحضارية والتاريخية مازال التاريخ قد تم التخطيط له مسبقاً بشكل جبري سواء في المادية التاريخية أو في فلسفة الحضارة لاتي تبقي الإنسان محجوزاً داخل حضارته.

وأما التفسير الديني للمستقبل فقد وقع في تقاطع بين الحاضر الذي تسعى المذاهب الدينية لتطبيقه وبين النبوءة المستقبلية المخترعة من قبل العقل.

وبنفس المشكلةوقع التفسير الناقص للمستقبل البشري ولم يقوَ في أن يدم حلاً متكاملاً والذي قدمها لا تتعدى سوى افكار اصلاحية تتضارب مع أصل

النظرية الإسلامية التي اسسها لاوحي وبلغ بها صاحب الرسالة النبي محمدﷺ .

وأخيراً الموقف الإسلامي من نهاية التاريخ فقد قدمه ضمن منظومة متكاملة الحلقات والأفكار والآليات والتي مها مفهوم خلود الأمة وعدم سقوطها واستمرارية خط العصمة وغير ذلك من المفردات المتداخلة مع بعضها التي تكفل بايجاد المستقبل المرغوب.

وبلورت آليات ذلك ضمن مفهوم حتمية التقدم المستقبلي تحت منظومة مفهوم الانتظار الذي يتمتع بالاستمرارية المستحدثة من استمرايـة الرسالة واصطباغه بمفهوم العبادة ذات البعد التحريكي من كونه الانتظار يؤدي في دلالته الى مشروع مل وتغيير وجهاد واستعداد لمعالجة المشاكل القادمة فهو عنصر يحمي الأمة من الانحطاط والزوال لأنه ينشأ علاقة تأثير متبادلة بين نشاط الإنسان ومستقبله فالمستقبل يؤثر في الإنسان من خلال الانتظار والإنسان يوثر في المستقبل نتيجة عمل الإنسان وونشاطه ووعيه.

ولم يكن التفكير المستقبلي الإسلامي منحصر في زواياه ومجالاته العقلية الصرفة وإنّما فعله الأئمةعليهم السلام من خلال مواقفهم وأنشطتهم الاجتماعية والسياسية فلو لاحظنا بعض خطوات الإمام الصادق مع الروف المحيطة به لوجدناه قد انطلق من خلاله وقد للأمة انجازات عظيمة على الصعيدين الحاضر والمستقبل.

وفي النهاية أرجو أن تكون دراساتنا وانجازاتنا العلمية تستهدف هذه الميادين وغيرها خدمة للرسالة والأمة. انّه ولي التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمى وصلى الله عليه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

المصادر

ـ القرآن الكريم.

ـ ادوارد سعيد: الاستشراق ط ٢ ١٩٨٤ م ترجمة كمال أبو ديب مؤسسة الاسمان العربية بيروت.

إسلامية المعرفة العدد / ١١ سنة ٣ ـ ١٩٩٨ م ـ ١٤١٨ هـ عبد الجبار النجار: قيمة الانسان دار الزيتونه ١٩٩٦ م الرباط المغرب.

ـ أُصول الكافي للكليني.

ـ اكمال الدين للشيخ الصدوق.

ـ الائمةعليهم السلام والعلم بالغيب طبعة المجمع العالمي لأهل البيت ٢٠٠٢م / عبدالرحيم الحصيني.

ـ الاحتجاج للطبرسي.

ـ الأحمد، د. سامي سعيد، تاريخ الرومان. بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٨م.

ـ الإرشاد للمفيد.

ـ الاستاذ محمد تقي مصباح اليزدي: المجتمع والتاريخ ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني ط ١ إيران دار أمير كبير ١٩٩٤ م.

ـ الإسلام بين الشرق والغرب / علي عزت.

ـ الاسلام يقود الحياة / محمد باقر الصدر.

ـ البرت شفيتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي ١٩٩٧ ط ١ ١٩٢٣ م دار الاندلس بيروت.

ـ التشريع الجنائي مقارناً بالقانون الوضعي / عبدالقادر عودة.
ـ التفسير الاسلامي للتاريخ / عماد الدين خليل.
ـ الجامع الصغير للسيوطي.
ـ الحاوي للفتاوي للسيوطي.
ـ الحورالعين.
ـ الخرائج والجرائح للراوندي.
ـ الدكتور يوسف القرضاوي: الحل الاسلامي ط ١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
ـ السواح، فراس، الاسطورة والمعنى، دراسات في المثيولوجيا والديانات الشرقية، ١٩٩٧، دار علاء الدين، دمشق ط ١.
ـ الشيخ مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ، ترجمة محمد أذر شب ط ١ ١٤٠٢ مؤسسة البعثة طهران.
ـ الصواعق المحرقة.
ـ العصمة / عبدالرحيم الحصيني
ـ العلوي، هادي، التاو: نصوص من الفلسفة الصينية القديمة.
ـ الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن: ط ١ دار إحياء التراث بيروت ـ لبنان.
ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير.
ـ المحجة فيما نزل بالقائم الحجة.
ـ المدرسة القرآنية / محمد باقر الصدر.
ـ المقنع في الغيبة للشريف المرتضى.
ـ الملل والنحل للشهرستاني.

ـ المنجد في اللغة والاعلام: ط ٢٣ دار المشرق بيروت.

الموسوعة الفلسفية / عبدالرحمن بدوي.

ـ الوردي، د. علي، الأحلام بين العلم والعقيدة.

ـ أمالي الشيخ الصدوق.

ـ إمام، إمام عبدالفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد ٣، ص ١١، قسم الفلسفة جامعة الكويت.

ـ أنساب الأشراف.

ـ أبي النصر محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، المكتبة العلمية الاسلامية طهران.

ـ أحمد محمد صبحي: في فلسفة التاريخ ط ٢ ١٩٩٤ م دار النهضة بيروت.

ـ بحار الأنوار.

ـ بيجوفيتش، علي عزت، الاسلام بين الشرق والغرب.

ـ تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية.

ـ تاريخ بغداد للخطب البغدادي.

ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام .

ـ تحف العقول لابن شعبة.

ـ تنزيه الأنبياء / الشريف المرتضى.

ـ جامع الأولياء.

ـ جفري، بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، الطبعة، ٢، ١٩٩٦م، مكتبة مدبولي، القاهرة ص ٥٦.

ـ خالد الحسن ابو السعيد: لكي لا تكون القيادة استبداداً ط ١ ١٩٩٥ م عمان فاتح.

ـ د . سمير أمين: أزمة عصرنا. مجلة النهض: بحث العولمة.

ـ زكريا، فؤاد، الفكر العلمي. الكويت، عالم المعرفة.

سعود، د. ميخائيل، الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام، دار العلم للملايين ط ١، بيروت.

ـ سنن ابن ماجة.

ـ سنن الترمذي.

ـ شلبي، أحمد، ديانات الهند الكبرى، ط ٩ ـ ١٩٩٣.

ـ صدام الحضارات / صاموئيل هانتنجون.

ـ عبدالباسط، د. سيد، من الوعي الاسطوري الى بدايات التفكير النظري، بلاد الرافدين تحديداً، دار الحصاد، دمشق، ط ١.

ـ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي بيروت.

ـ عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وكتابة التاريخ ط ١ ١٩٩٣ م ١٤١٤ هـ المعهد العالمي للفكر الاسلامي الولايات المتحدة الامريكية فيرجينيا.

ـ عبد الله الفريجي: حركة التأريخ رؤية قرانية ط ١ ١٤١٩١ هـ ١٩٩٨ م مؤسسة أم القرى قم.

ـ علامات الظهور / عبدالرحيم الحصيني.

ـ غيبة الشيخ الطوسي.

ـ غيبة النعماني.

ـ فرانكفروت. هـ . أفرا، جون ولسن، توركيلد جالويس، ما قبل الفلسفة: ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، دار مكتبة الحياة، فرع بغداد.

ـ فلسفة التاريخ / أحمد محمد صبحي.

ـ فوزي، رشيد، الشرائع العراقية القديمة.

ـ كنز العمال.

ـ مجلة التوحيد: العدد ٧٧ السنة ١٤ ربيع الأول ١٣١٦ هـ آب ١٩٩٥ م.

ـ مجلة الثقافة العالمية: العدد ٨٥، ١٩٩٧م.

ـ مجلة الكلمة العدد ٣ السنة ١ / ١٩٩٤ م ـ ١٤١٤ هـ

ـ مجلة الكلمة العدد (١٩) السنة / ٥ / ١٩٩٨ م ١٤١٩ هـ

ـ مجلة رسالة القرآن ١٤١١ هـ الاعداد ١، ٢، ٣.

ـ مجلة علوم وتكنولوجيا، العدد ٥٧، اغسطس آب ١٩٩٨. ـ

ـ محسن بيدار فر: المعجم المفرس لألفاظ القرآن الكريم: (١٤٩٤ هـ ١٣٧٢ هـ ق).

ـ محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الاسلامي ترجمة هاشم صالح المركز الثقافي العربي بيوت ط ٣ / سنة ١٩٩٨ م.

ـ محمد حسين الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن ط ٢ المحققة مؤسسة الاعلي بيروت ١٩٧١ م ١٣٩١ هـ

ـ محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي ط ٥ دار الامام الحسين إيران قم ١٣٦٣ ١٤٠٠ ١٩٨٠ م.

ـ مرتضى العسكري: عقائد الاسلام من القرآن الكريم: ط ٣ شركة التوحيد (١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م).

ـ مروج الذهب للمسعودي.

ـ معجم الديانات الكبرى /احمد شلبي.

ـ نهج البلاغة الموضوعي: علي انصاريان انتشارات مفيد طهران (١٣٩٨ هـ. ق ـ ١٩٧٨ م).

ـ وسائل الشيعة للحر العاملي.

ـ هبة رؤوف عزت: المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية ط ١ ١٩٩٥ م ١٤١٦ هـ المعهد العالمي للفكر الاسلامي هيرندن فيرجينيا الولايات المتحدة الامريكية.

الفهرس

المقدمة.. ٥

الباب الأوّل / النزعة المستقبلية.. من الخرافة الى العلم

الفصل الأوّل : تطلع الإنسان القديم نحو المستقبل.............. ١٥

نشأة التفكير المستبقلي وأساليبه المؤسطرة ١٦

المنهج الذاتي وأثره على التفكير المستقبلي........................ ٢٠

سلطة الكاهن ٢٣

البدائل الخرافية.. ٢٥

الفصل الثاني : التفكير المستقبلي يدخل مجال الفلسفة ٢٧

تراجع التفكير المستقبلي في إطاره الفلسفي.......................... ٣٠

الباب الثاني / معالم ومنطلقات تأسيسية

الفصل الأوّل : البيئة والإنسان.. ٤١

الإتجاه الفردي ٤٢

الاتجاه الاجتماعي ٤٢

الموقف الإسلامي ٤٥

الفصل الثاني : المجتمعات الإنسانية بين الأشتراك والاختلاف.......... ٥١

١ ـ أصل الاشتراك في الخلق والوحدة الإنسانية ٥١

٢ ـ مناقشة مع الرأي الآخر.. ٥٢

٣ ـ الاستدلال علىٰ وحدة الخلق والإنسانية من خلال القرآن الكريم ٥٤

الفصل الثالث : توظيف السنن الاجتماعية لمستقبل الانسان ٦٣
١ ـ كيفية توظيف السنن لصالح المستقبل ٦٥
٢ ـ الطغاة وتوظيف السنن الاجتماعية ٦٨
الاسلوب الأول..... ٦٨
الاسلوب الثاني..... ٧٠
الاسلوب الثالث ٧٠
٣ ـ موقف الطغاة أمام ظاهرة الرسل: ٧١
٤ ـ المؤمنون وتوظيف السنن الإلهية ٧٢
نتيجة البحث في هذا الباب..... ٧٦

الباب الثالث / المخطط التاريخي للبشرية

المقدمة ٧٩
الفصل الأوّل : مسار التفكير الاوربى ومراحله..... ٨١
أ ـ المادية التاريخية تفسير تقدمي للتاريخ..... ٨٣
ب ـ نظرية التعاقب الدوري للحضارة..... ٨٤
ج ـ التفسير الديني للحضارة عند توبيني..... ٨٦
د ـ علم المستقبليات في المجال الحضاري نهاية التاريخ وصِدام الحضارات..... ٩٠
نقد التفسير الفلسفي والحضاري للتاريخ في الاطار المستقبلي ٩٨
الفصل الثاني : المستقبل البشري في المنظور الديني غير الإسلامي ١٠١
أولاً : التفكير اليهودي للمستقبل ١٠١
ثانياً : التفكير البوذي للمستقبل..... ١٠٢
نقد التفكير الديني للمستقبل ١٠٣

الفصل الثالث : التفسير الناقص للمستقبل البشري (النبوءتي)..... ١٠٥
أولاً : المدرسة الإسلامية غير الإمامية والمستقبل الإنساني ١٠٦
ثانياً : الزيدية والمستقبل ١٠٧
ثالثاً : نقد التفسير الناقص للمستقبل البشري ١٠٨
الفصل الرابع : التفسير الإسلامي لمسيرة الحضارة ١١١
أوّلاً : المعنى العقائدي للتاريخ ١١١
ثانياً : السنن الإلهية وعلاقتها بالمستقبل ١١٤
ثالثاً : الإمامة ١١٥
رابعاً : امتداد خط العصمة حتى نهاية التاريخ ١١٦
خامساً : واقعية علم الغيب عند المعصوم..... ١٢٠
سادساً : مفهوم الانتظار ١٢٥
خلاصة البحث ١٢٧

الباب الرابع / حتمية التقدم المستقبلي وهيكلية الانتظار

المقدمة ١٣١
الفصل الأوّل : استمرارية الانتظار تلازم استمراية الرسالة ١٣٣
الفصل الثاني :المراحل التاريخية لمفهوم الانتظار وأثرها في صنع المستقبل ١٣٩

الفصل الثالث : القاعدة العبادية لمفهوم الانتظار منهج تحريك نحو المستقبل..... ١٤٥

الفصل الرابع : انتظار الأُمة ومسؤوليتها في مرحلة الانتظار مشروع لمستقبل الأمّة لا لصالح النخب ١٤٩
الاتجاه الأوّل : مدرسة أهل الحديث ١٥١
الاتجاه الثاني ١٥٥
الطائفة الثانية : الروايات التي توصي بالفرار من الفتن ١٥٧
الطائفة الثالثة : الروايات التي توصي بلزوم الصبر على الظلم ١٥٩
الطائفة الرابعة : الروايات التي توصي بكف اللسان في الفتنة ١٦٠
الموقف الثاني : أدلجة الأحاديث وصياغة النظرية ١٦٠
الاتجاه الثالث ١٦٦
الموقف الأول ١٦٦
الموقف الثاني ١٦٧
١ ـ الايمان بحتمية خروج المهدي ١٦٧
٢ ـ التمسك بالدين والدفاع عنه ١٦٨
٣ ـ التفقه بالدين ١٦٩
٤ ـ الرجوع للقرآن والعترة ١٧٠
٥ ـ التمسّك بولاية الإمام المهدي عليه السلام ١٧١
٦ ـ تجديد البيعة والثبات على الطاعة ١٧٢
٧ ـ تجديد البيعة في دعاء العهد ١٧٤
٨ ـ الثبات على ما عُرف من الحق ١٧٤
٩ ـ التعرف على علامات الظهور ١٧٥
١٠ ـ اختبار أدعياء المهدوية ١٧٥
١١ ـ الإكثار من الدعاء بتعجيل الفرج ١٧٦

١٢ ـ الانتظار الفوري وتكذيب الموقتين ١٧٧
١٣ ـ فائدة الاستتار في مرحلة الانتظار ١٧٩
نتيجة البحث ١٨١

الباب الخامس / المستقبلية في حركة الإمام

الفصل الأوّل : تمهيد
تطور مناهج الدراسة عن أهل البيت : خلال قرن واحد..... ١٨٥
الفصل الثاني : الإمام جعفر الصادق ﷺ يلاحظ واقع الأُمة
مظهراً ومحتوىً..... ١٨٩
الفصل الثالث : حاضر الأُمة وخيارات المستقبل ١٩٧
أوّلاً : مستقبل الأُمة المحتمل وقوعه لولا تدخل الإمام ١٩٧
ثانياً : الخيارات والحلول الاصلاحية المطروحة
في زمن الإمام الصادقﷺ ١٩٩
الفصل الرابع : التطبيقات العملية لصنع المستقبل المنشود ٢٠٩
الفصل الخامس : مدرسة أهل البيتأطروحة لاصلاح الحاضر ومقدمة لايجاد
المستقبل البعيد..... ٢١٧
الخاتمة ٢٢٥
المصادر..... ٢٢٩
الفهرس ٢٣٥